قرة العيون المبصرة

بتلخيص

كتاب التبصرة

تأليف

الشيخ أبي بكر بن الشيخ محمد الملا الحنفي الاحسائي

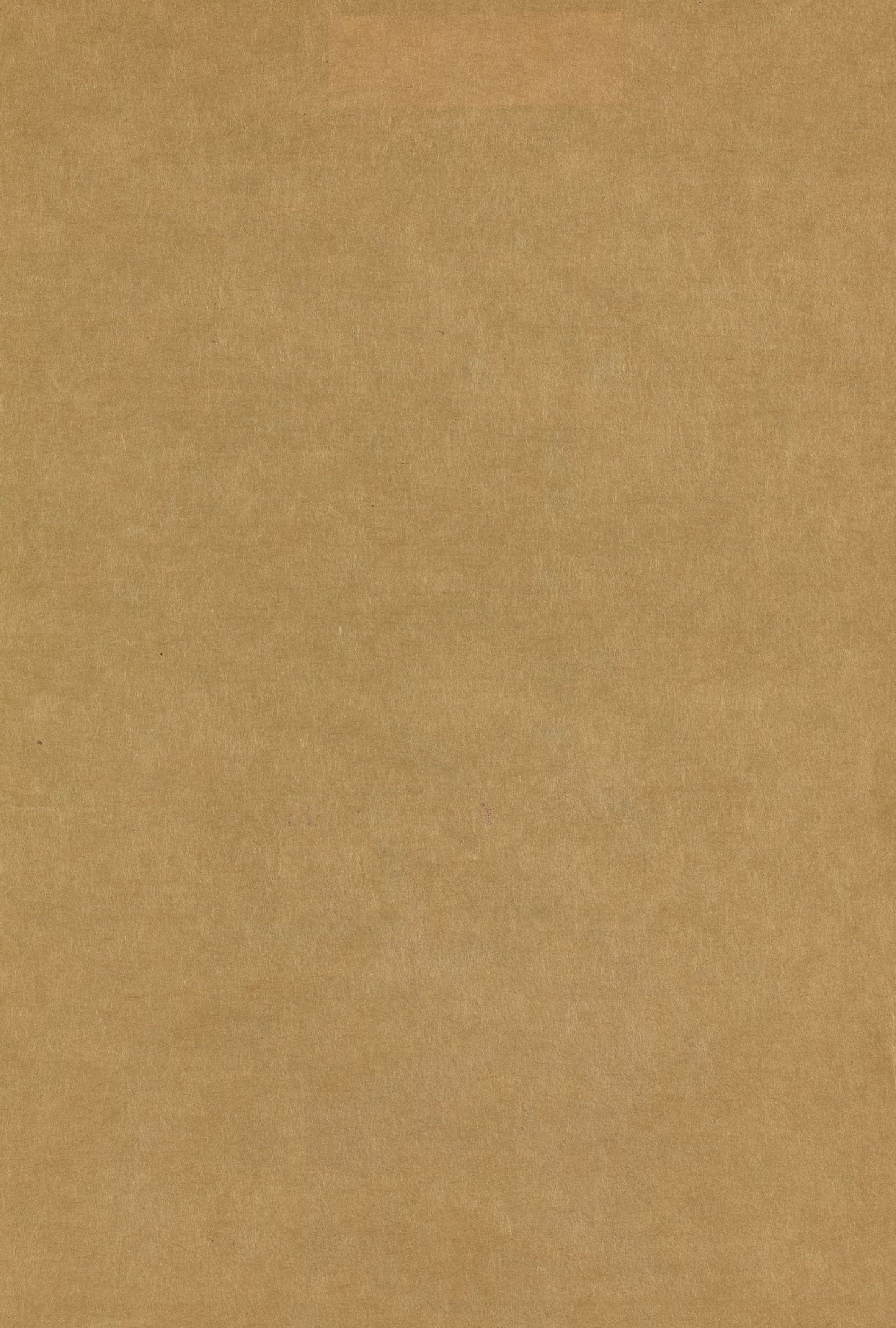
طبع على نفقة

صاحب السمو العالم الجليل الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني حفظه الله

الجزء الثاني

منشورات المكتب الاسلامي


PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
PAIR
32101 017153477





قرة العيون المبصرة

بتلخيص

كتاب التبصرة

تأليف

الشيخ أبي بكر بن الشيخ محمد الملا الحنفي الاحسائي

طبع على نفقة صاحب السمو

الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني

حفظه الله

الجزء الثاني

منشورات المكتب الاسلامي بدمشق

المجلس الثاني والاربعون

في فضل العلم وشرفه

الحمد لله محكم المخلوق ومتقن الصنعة ، المقدّر ما شاء ، فمن الذي يستطيع دفعه . علم إخلاص النية ، من إخلاص السمعة ، وسمع فلم يمنع اختلاف اللغات سمعه ، وابصر حتى جوف الجوف وجريان الدمعة ، ومنع ، فمن يعطي ما قدر منعه؟ صفاته كذاته ، وما تشبه الصانع الصنعة . الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

أحمده حمداً يدوم ما دامت الأيام السبعة ، وأشهد أنه فالق الحبة من الطلعة ، وأصلي على رسوله محمد المبعوث بأفضل شرعة ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر أول من جمع هذه الربعة ، وعلى عمر فتاح الأمصار فكم قلع قلعة ، وعلى عثمان الصابر على تلك الصرعة ، وعلى علي الذي مدائحه أنفق من كل سلعة، وعلى سائر آله وأصحابه الذين حازوا أشرف رتبة ، وأكمل رفعة ، وسلم تسليماً .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء ، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم ، أوشك أن تضل الهداة » . وهذا المثل من أرفع الأمثال ، لأن طريق التوحيد والعلم بالآخرة لا يدرك بالحس ، وإنما يعرف بالدليل . والعلماء هم الأدلاء ، فإذا فقدوا ، ضلّ السالك .

وفي « الصحيحين » من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم

بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فيسألوا ، فيفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

وعن صفوان بن عسّال أن النبي ﷺ قال : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يطلب » .

وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ ، أنه قال : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك به طريق من طرق الجنة ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، والحيتان في الماء ، وإن فضل العالم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورّثوا العلم ، فمن أخذه ، أخذ بحظ وافر » .

وقال معاذ بن جبل - رضي الله عنه - : تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله حسنة ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة .

وقال عيسى عليه السلام : من تعلم وعلم وعمل ، فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السموات . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : خُيّر سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطي المال والملك معه .

ولا يخفى ببديهة العقل ، أنه الوسيلة إلى معرفة الخالق ، والسبب للخلود في النعيم الدائم ، ولا يعرف التقرب إلى المعبود إلا به ، فهو سبب لصلاح الدارين .

قال الحسن رحمه الله تعالى : لولا العلماء ، لصار الناس مثل البهائم .

ومن آداب المعلم ، أن يترك فضول الدنيا ليتبعه الناس ، فإن الاستدلال بالفعل ، أقوى من الاستدلال بالقول ، فإن الطبيب إذا أمر بالحمية ثم خلط ، لم يلتفت إلى قوله . والمطلوب من المتعلم ، أن يطلب العلم للعمل به . ففي الحديث : « من طلب العلم ليباهي به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو ليصرف وجوه الناس إليه لم يرح رائحة الجنة » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى إذا كان

يوم القيامة ، ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية ، فأول من يدعو به ، رجل جمع القرآن ، ورجل قتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول الله للقارىء : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟ قال : بلى يا رب ، قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله له : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال : فلان قارىء ، فقد قيل ذلك . ويؤتى بصاحب المال ، فيقول الله له : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟! قال : بلى يا رب ، قال : فماذا عملت فيما أتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم ، وأتصدق ، فيقول الله له : بل أردت أن يقال فلان جواد ، فقد قيل ذلك . ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله ، فيقول الله له : في ماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك ، فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله له : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال فلان جريء ، فقد قيل ذلك . يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة » .

نبني ونجمع والآثار تندرس ونأمل اللبث والأرواح تختلس
ذا اللب فكِّر فما في الخلد من طمع لا بد أن ينتهي أمر وينعكس
أين الملوك وأبناء الملوك ومن كانوا إذا الناس قاموا هيبة جلسوا ؟
قد عمهم حدث وضمهم جدث ماتوا وهم جثث في الرمس قد حبسوا
كأنهم قط ما كانوا ولا خلقوا ومات ذكرهم بين الورى ونسوا
تالله لو أبصرت عيناك ما صنعت صنعت أيدي البلى بهم والدود يفترس
من أوجه ناضرات حار ناظرها في رونق الحسن منها كيف ينطمس
وأعظمٍ باليات ما بها رمق وليس تبقى وهذا وهي تنتهس
وألسن ناطقات زانها أدب ما شانها شانها بالآفة الخرس
ياذا النهى والحجى لا ترعوي سفهاً ودمع عينيك لا يهمي وينبجس

يا غافلاً عن نفسه أمرك عجيب ، يا قتيل الهوى ، داؤك غريب ، يا طويل الأمل ، ستدعى فتجيب ، وهذا عن قليل ، وكل آت قريب .

هلا تذكرت لحدك ، كيف تبيت فيه وحدك ، ويباشر الثرى خدك ، وتقسم الديدان جلدك ، ويضحك المحب بعدك ، ناسياً عنه بعدك ، والأهل مذ وجدوا المال ما وجدوا فقدك ، الى متى وحتى متى تترك رشدك ؟ أما يحسن أن تحسن الينا قصدك ؟ الأمر جد بجد فلازم جدك .

ذهب الأحبة بعد طول تودد ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا

خذلوك أفقر ما تكون لرفقة لم يؤنسوك وكربة لم يدفعوا

قضي القضاء وصرت صاحب حفرة عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا

يا ذا ! التحرك في الهوى لا بد من سكون ، على هذا كانت الدنيا وعليها تكون ، لا يغرنك سهلها ، فبعد السهل حزون ، لا تنظر الى فرحها فكل فرح محزون ، إن روحك دين للمهات وستقضى الديون ، ما فرحها مستأمن ، ولا ترحها مأمون ، ما أضحكت السن إلا وأبكت العيون ، إياك وإيا المومسة الخؤون ، إنها لدار الغرور ومنزل المنون رؤي على قبر مكتوب هذان البيتان :

سيعرض عن ذكري وتنسى مودتي ويحدث بعدي للخليل خليل

إذا انقطعت يوماً من العيش مدتي فإن عناء الباكيات قليل

فصل

في قوله تعالى : (فاليوم لا تظلم نفس شيئاً) يس : ٥٤ . ميزان العبد يوم القيامة مستقيم اللسان ، تبين فيه الذرة ، فيجزى العبد على الكلمة ، قالها في الخير ، والنظرة نظرها في الشر .

عن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامه ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك

كَتبتي الحافظون ؟ قال : لا يا رب ، فيقول : ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل . فيقول: بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم اليوم عليك ، فتخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فيقول : أحضروه ، فيقول : يا رب ، ما هـذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة قال : فخفت السجلات وثقلت البطاقة » .

وعن الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ قال : بينما عائشة رضي الله عنها عند رسول الله ﷺ ، بكت فقال : ما يبكيك ؟ قالت : يا رسول الله ، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أمّا في ثلاثة مواطن ، فلا يذكر أحدٌ أحداً : عند الميزان حين يوضع ، حتى يعلم أتثقل موازينه ، أم تخف؟.وعند الكتاب ، حين يقال : (هاؤم اقرؤوا كتابيه) حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه ، أَو في شمـاله ، أو وراء ظهره ؟.وعند الصراط حين يوضع بين ظهراني جهنم حتى يعلم أينجو أم لا ينجو؟» .

قوله : (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ، إن أصحاب الجنـة اليوم في شغل فاكهون ، هم وأزواجهم في ظلال) الآيات .. يس : ٥٤-٥٦ . أتراك بأي عمل تجزى؟ أتراك تهنأ أو تعزى؟ قلبك عند الصلاة في غيبة ، ولسانك حال الصوم في غيبة ، وماصفت لك في العمر ركعة ، وقد مر أكثر الأجل بسرعة .فانتبه قبل أن يفوت التدارك ،وفرغ قلبك قبل أن تفرغ دارك .

عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها ومن أسفلها خيل من ذهب ، مسرجة ملجمة بلجم من درّ وياقوت ، لا تروّث ولا تبول ، لها أجنحة ، فتطير بهم حيث شاؤوا ، فيقول الذين أسفل منهم درجة : يا رب ، بم بلغت عبادك هذه الكرامة كلها ؟ قال: فيقال لهم : إنهم كانوا يصلون الليل و كنتم تنامون ، وكانوا يصومون و كنتم تأكلون ، وكانوا ينفقون و كنتم تبخلون وكانوا يقاتلون و كنتم تجبنون » .

وقال كعب : لو أن امرأة من نساء أهل الجنة بدا معصمها ، لذهب ضوء الشمس.

وعن عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه قال : بينما نحن ذات يوم في مجلسنا قد تهيأنا للخروج إلى العدو ، وقد أمرت أصحابي أن يتهيؤوا ، فقرأ رجل في مجلسنا : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) التوبة : ١١١. فقام غلام في مقدار خمسة عشر سنة أو نحوها ، وقد مات أبوه وورثه مالاً كثيراً ، فقال : يا عبد الواحد ، (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)؟ فقلت : نعم حبيبي ، فقال : أشهدك أني قد بعت نفسي ومالي بأن لي الجنة ، فقلت له : إن حد السيف أشد من ذلك ، وأنت صبي ، وأنا أخاف عليك أن لا تصبر ، وتعجز عن ذلك فقال : يا عبد الواحد أبايع الله بالجنة ثم أعجز ؟ إني أشهدك أني قد بايعته نفسي . أو كما قال رضي الله عنه . قال عبد الواحد : فتقاصرت أنفسنا وقلنا : صبيٌ يعقل فخرج من ماله كله فتصدق به ، إلا فرسه ، وسلاحه ، ونفقته .

فلما كان يوم الخروج ، كان أول من طلع علينا فقال : السلام عليك يا عبد الواحد ، فقلت : وعليك السلام .ربح البيع ، ثم سرنا وهو معنا يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويخدمنا ويخدم دوابنا ، ويحرسنا إذا نمنا فانتهينا الى ديار الروم . فبينا نحن كذلك ، إذ أقبل وهو ينادي : واشوقاه إلى العيناء المرضية ، فقال أصحابي : لعله وسوس هذا الغلام أو اختلط عقله ، فقلت : حبيبي وما هذه العيناء المرضية ؟ فقال : إني غفوت غفوة ، فرأيت كأنه أتاني آت وقال : إذهب إلى العيناء المرضية ، فهجم بي على روضة فيها نهر من ماء غير آسن ، وإذا على شاطىء النهر جوار عليهن من الحلي والحلل مالا أقدر أصفه ، فلما رأينني استبشرن وقلن : هذا زوج العيناء المرضية ، فقلت : السلام عليكن ، أفيكن العيناء المرضية ؟ فقلن : نحن خدمها وإماؤها ، امض أمامك ، فمضيت أمامي ، فإذا أنا بنهر من لبن لم يتغير طعمه ، في روضة فيها من كل زينة ، فيها جوار لما رأيتهن افتتنت بحسنهن وجمالهن ، فلما رأينني استبشرن وقلن : هذا زوج العيناء المرضية ، فقلت : السلام عليكن ، أفيكن العيناء المرضية ؟ فقلن : وعليك السلام يا ولي الله ، نحن خدمها وإماؤها ، فتقدم أمامك ، فتقدمت أمامي ، فإذا أنا بنهر من خمر لذة للشاربين ، وعلى شاطىء الوادي

جوار أنسينني ما خلفت ، فقلت : السلام عليكن ، أفيكن العيناء المرضية ؟ فقلن : لا ، نحن خدمها وإماؤها ، إمض أمامك ، فمضيت أمامي ، فإذا أنا بنهر من عسل مصفى ، وجوار عليهن من النور والجمال ما أنساني ما خلفت ، فقلت : السلام عليكن ، أفيكن العيناء المرضية ؟ فقلن : لا يا ولي الله ، نحن إماؤها وخدمها ، فامض أمامك ، فمضيت أمامي ، فوصلت إلى خيمة من درة بيضاء ، وعلى باب الخيمة جارية عليها من الحلي والحلل مالا أقدر أن أصفه ، فلما رأتني ، استبشرت ونادت من في الخيمه : أيتها العيناء المرضية ، هذا بعلك قد قدم ، قال : فدنوت من الخيمة ، ودخلت فإذا هي قاعدة على سرير من ذهب ، مكلل بالدر والياقوت ، فلما رأيتها افتتنت بها وهي تقول : مرحباً بك يا ولي الرحمن ، قددنا القدوم علينا ، فذهبت لاعانقها فقالت : مهلاً ، فإنه لم يأن لك أن تعانقني ، لأن فيك روح الحياة ، وأنت تفطر الليلة عندنا إن شاء الله تعالى .

فانتبهت يا عبد الواحد ولا صبر لي عنها ، قال عبد الواحد : فما انقطع كلامه ،حتى ارتفعت لنا سرية من العدو فحمل الغلام على تسعة من العدو فقتلهم ، وكان هو العاشر . فمررت به وهو يتشحط في دمه ، وهو يضحك ملء فيه ، حتى فارق الدنيا . رحمه الله تعالى .

لقد بلغ القوم الآمال ،ونالوا ملكاً عظيماً لا يزال ،فأين ذاك التعب وتلك الأثقال؟ بقي الفرح والترح زال (هم وأزواجهم في ظلال) . يس : ٥٦

بالغ القوم في التحقيق ، وأخذوا بالأمر الوثيق ، وأنذرهم الفرق وأبلغهم الرفيق ، فجدوا حتى خرجوا من الضيق ، فأما البطال ، فإنه لما تلمّح الطريق ، رآه قد طال (هم وأزواجهم في ظلال) .

صام القوم عن الشهوات ، وقاموا لله في الخلوات ، وحبسوا الألسن عن فضول الكلمات ، وتركوا في الجملة جملة اللذات ، فانقضى ومضى صومهم وجاء شوال (هم وأزواجهم في ظلال) .

كم بينك يا مسكين وبينهم ؟ أسخن الشر عينك ، وأقر الخير أعينهم . نالوا الحظ

ونلت الحضيض ، أين أنت وأين هم ؟ وإنما يـكال للعبد كما كال (هم وأزواجهم في ظلال) .

سبحان من أصلحهم وسامحهم ، وعـاملهم فأربحهم ، وأثنى عليهم ومـدحهم ، وقدمهم وأقال مجترمهم ، وقال : (هم وأزواجهم في ظلال) .

قطعوا المهامه ففازوا ، وعبروا قنطرة الخوف وجازوا ، ونالوا غاية المنى وحازوا فسلم الربح ورأس المال (هم وأزواجهم في ظلال) .

اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، اجمع بيننا وبين الصدق والنية الصالحة ، والإخلاص والخشوع ، والمراقبة والنور ، واليقين والعلم والمعرفـة ، والحفظ والعصمة والنشاط ، والقوة والستر والمغفرة ، والفصاحة والبيان ، والفهم في القرآن ، وخصنا منك بالمحبة والاصطفائية ، والتخصيص والتولية ، وآتنا العلم اللدني والعمل الصـالح ، والرزق الهني الذي لا حجاب به في الدنيا ، ولا حساب ولا سؤال ولا عقاب عليه في الآخرة على بساط علم التوحيد والشرع ، سالمين من الهوى والشهوة والطبع ، وادخلنـا مـدخل صدق ، وأخرجنا مخرج صدق ، واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً .

واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .



المجلس الثالث والاربعون

في ذكر الطهارة والصلاة

الحمد لله الذي أوضح سبيل هدايته لأرباب ولايته وأبهج ، وحرك أهل عبادته الى معاملته وأزعج ، وأبدى بدائع قدرته في محكم صنعته وأخرج ، وأوقد نيران محبته في أفئدة أحبته وأجج ، من عرف لطفه ، ثنى عطفه اليه وأدلج ، ومن خاف عتبه ، ترك ذنبه وتحرج ، يحب الإخلاص في الأعمال ولا يخفى عليه البهرج ، حليم فإن غضب ، مكر بالعبد واستدرج .

لا تغتر بحلمه ، فكم عقاب في الحلم أدرج ، لا يخفى عليه ضمير القلب في سواد الليل ولا طرف أدعج ، يبصر جري اللبن يسري في العروق نحو المخرج ، وينزل الى السماء الدنيا ، فأين الذي بالمناجاة يلهج ، فيستعرض الحوائج الى أن يلوح الفجر ويتبلج ، وما انتقل ، ومن عقل رأى الحق أبلج ، هذا مذهب من القرآن القديم ، والنقل القويم مستخرج ، وهو المنهاج السليم فلا تعرّج عن المنهج .

أحمده على ما أسر وما أزعج ، وأشهد بواحدنيته شهادة موقن ما الجلج ، وأن محمداً عبده ورسوله الذي محاسن الشرائع في شريعته تدرج . صلى الله عليه ، وعلى صاحبه أبي بكر أول من أنفق ماله وأخرج ، وعلى عمر الذي اضطر كسرى إلى الهرب وأحوج ، وعلى عثمان المظلوم وقد عدل ، وما عزل ولا عرج ، وعلى علي مبيد الطغاة ، فلم يكن لهم منه مهرب ولا مخرج ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين نصر الله بهم الدين وأبهج ، وسلم تسليماً .

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان » . رواه مسلم .

واعلم أن الطهارة على أربعة أضرب .

الضرب الأول : تطهير البدن من نجس أو حدث . فأما طهارة الأنجاس ، ففي « الصحيحين » من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ، أنه مر بقبرين ، فقال: « إنهما يعذبان ، وما يعذبان في كبير . أما أحدهما : فكان لا يستبرىء من البول » .

قال الخطابي : إنهما لم يعذبا في أمر كان يكبر عليهما فعله ، أي : يشق .

وروى الدارقطني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « استنزهوا من البول ، فإن عامة عذاب القبر منه » . وأما طهارة الأحداث ، ففي التفريط فيها عذاب شديد .

ففي « الصحيحين » من حديث عبد الله بن عمرو قال : تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها ، فأدركنا ونحن نتوضأ ، فجعلنا نمسح على أرجلنا قال : فنادى بأعلى صوته مرتين أو ثلاثاً : « ويل للأعقاب من النار » .

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله تعالى أمر بعبد من عباده يضرب في قبره مائة جلدة ، فلم يزل يسأل ويسأل ، فصارت جلدة واحدة ، فامتلأ قبره عليه ناراً فلما أفاق قال : لم جلدتموني ؟ قالوا : إنك صليت صلاة بغير طهور ، ومررت على مظلوم فلم تنصره » .

وقد ورد في « إسباغ الوضوء » فضل عظيم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن ، فغسل وجهه ، خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، أو نحو هذا ، فإذا غسل يديه خرجت من يدية كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء ، أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب » . رواه مسلم .

الضرب الثاني : تطهير الجوارح من الآثام ، قال الله عز وجل : (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » الإسراء : ٣٦ .

الضرب الثالث : تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة من الحرص والحقد والحسد

والكبر وغير ذلك ، فكم من متعبد يبالغ في كثرة الصلاة والصوم ، ولا يعاني صلاح القلب ، وقد يكون عنده الكبر والرياء والنفاق والجهل بالعلم ولا يحس بذلك ، وإنما تنفع العبادة ، وتظهر آثارها ، وتبين لذتها ، مع إصلاح أمراض القلب .

الضرب الرابع : تطهير القلب عما سوى الله تعالى ، وهذه المرتبة العليا ،ولن تحصل إلا لمن تجلت له أوصاف الحبيب ، فدخل في دائرة المحبة .

قال أحمد بن أبي الحواري : سئل محمود أبو سليمان وأنا حاضر : ما أقرب مايتقرب به إلى الله عز وجل ؟ فبكى أبو سليمان ثم قال : أتسأل عن هذا ؟! أقرب ما تتقرب به إليه ، أن يطلع على قلبك ، وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو . ومن نظر إلى الله عز وجل قريباً منه ، بعد عن قلبه كل شيء سوى الله تعالى ، ومن طلب مرضاته ،أرضاه الله عز وجل ، ومن أسلم قلبه ، تولى الله جوارحه.

قال سهل بن عبد الله : ما من عبد إلا والله عز وجل مطلع على قلبه ، فأي قلب رأى فيه غيره ، سلط عليه ابليس . ثم اعلم أن الله عز وجل عظم قدر الصلاة لأنها أوفى خدمة إذ هي جامعة بين خضوع بدن ونطق لسان ، وحضور قلب ، وقد جعل الله سبحانه وتعالى عبادة ملائكته بين سجود وركوع وذكر . وذلك مجموع في الصلاة . وقد ورد فيها فضل عظيم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا » أخرجاه في « الصحيحين » .

وفي « أفراد مسلم » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » وقد فضلت الصلاة في الجماعة على غيرها .

ففي « الصحيحين » من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين صلاة » . وورد الثواب لمنتظر الصلاة .

ففي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يزال أحدكم في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه لا يمنعه إلا انتظارها » .

وقد عظم الصف الأول . ففي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لو يعلم الناس مالهم في النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » .

واعلم أن المقصود بالصلاة إنما هو تعظيم المعبود ، وتعظيمه لا يكون إلا بحضور القلب في الخدمة ، وقد كان في السلف من يتغير إذا حضر الصلاة ويقول : أتدرون بين يدي من أريد أن أقف ؟ وإذا أردت استجلاب حضور قلبك الغائب ، ففرغه من الشواغل ما أستطعت . يا هذا ، إذا صليت والقلب غائب ، كان وجود الصلاة كالعدم .

هو بالروم مقيم وله بالشام قلب

ياذاهل القلب في الصلاة ، حاضر الذهن في الهوى ، جسده في المحراب ، وقلبه في بلاد الغفلة .

قال الحسن رحمه الله تعالى : يابن آدم ، إذا هانت عليك صلاتك ، فما الذي يعز عليك ؟

لا تأسفن لأمر فات مطلبه هيهات ما فات في الدنيا بمردود
إذا اقتضت أخذت نقداً وإن سئلت أداؤها بالأماني والمواعيد
وللتأسف يبقى كل مدخر والمنية يغدو كل مولود

يا مخلوقاً من علق ، اكتف من الدنيا بالعلق ، واحذر في ري الهوى من شرق ، وتذكر يوم الرحيل ذاك القلق ، وتفكر في هاجم يسوي بين الملوك والسوق ، وتأهب له فربما بكر وربما طرق .

يا من شاب وما تاب ، اكتسب بأقي الرمق ، كان الشباب غصناً غضاً فخلا عن ورق وأنت في الشيب كالشباب تجري على نسق ، يا غريقاً في الهوى ، أصح من قبل الغرق . ليأتينك من الموت مالا يقبل رشوة ولا مالاً ، إذا مال على القوي والقويم مالا ، يا مختار

الهوى جهلا وضلالا ، لقد حملت أزرك أوزاراً ثقالاً ، إياك والمنى ، فكم وعد المنى محالاً . كم سقى الموت من الحسرات كؤوساً ، كم فرغ ربعاً عامراً مأنوساً ، كم طمس بدوراً وشموساً ، واستلب نعيماً ثم أعطى بؤساً ، وأذل جبابرة وكانوا شوساً ، وأغمض عيوناً ونكس رؤوساً ، وأبدل التراب عن الثياب ملبوساً .

يا هذا ، إحذر الأمل ، وبادر العمل ، فكأنك بالأجل على عجل ، أنت كل يوم الى القبر تتقرب ، وسترحل الى البلاد وتغرب ، وسيأكل المحب بعدك ويشرب ، وكأنك به إذا ذكرت يطرب ، فخذ العدة واسمع نصحي ، فنصحي مجرب .

إذا كان ما فيه الفتى عنه زائلا فسيان فيه أدرك الحظ أو أخطا

وليس يفي يوماً سرور وغبطة بحزن إذا المعطي استرد الذي أعطى

فصل

في قوله تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة) الحج : ٦٣ المراد بالماء هاهنا : المطر . قال عكرمة : ينزل الله تعالى الماء من السماء السابعة ، فتقع القطرة منه على السحاب مثل البعير .

قال كعب : والسحاب غربال المطر ، ولولا السحاب لأفسد ما يقع عليه .

وفي حديث أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال : « إن عند نزول الغيث تفتح أبواب السماء ، ويستجاب الدعاء » . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ قال : « قال ربكم عز وجل : لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل ، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولم أسمعهم صوت الرعد » .

روي عن المبارك بن فضالة قال : سمعت الحسن يقول : كانوا يقولون ، يعني — أصحاب رسول الله ﷺ — : الحمد لله الذي لو جعل هذا الخلق خلقاً دائماً لا ينصرف ،

لقال الشاك في الله عز وجل : لو كان لهذا الخلق رب يحادثه ، وإن الله تبارك وتعالى قد حادثه بما ترون من الآيات ، إنه جاء بضوء طبق ما بين الخافقين ، وجعل فيه معاشاً وسراجاً وهاجاً ، ثم إذا شاء ، ذهب بذلك الخلق ، وجاء بظلمة طبقت ما بين الخافقين ، وجعل فيه سكناً ونجوماً ، وقمراً منيراً ، وإذا شاء ، بنى بناء جعل فيه المطر والبرق والرعد والصواعق ما شاء ، وإذا شاء ، جاء ببرد يقرقف الناس ، وإذا شاء جاء بحرٍّ يأخذ بأنفاس الناس ، ليعلم الناس أن لهذا الخلق رباً يحادثه بما يرون من الآيات . كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة .

إني أبثك من حديثي	والحديث له شجون
غيرت موضع مرقدي	ليلاً فنافرني السكون
قل لي فأول ليلة	في القبر كيف ترى تكون

يا غافلاً عن القيامة ، ستدري بمن تقع الندامة ، يا معرضاً عن الاستقامة ، أين وجه السلامة ؟ يا مبنياً بالقدرة سينقض بنيانك ، يا مستأنساً بداره ستخلو أوطانك ، يا كثير الخطايا ، سيخف ميزانك ، يا مشغولاً بلهوه ، سينشر ديوانك ، يا أعجمي الفهم ، متى تفهم ؛ أتعادي النصيح وتوالي الأرقم ؟ تؤثر على طاعة الله كسب درهم ! وتفرح بذنب عقوبته جهنم ، ستعلم حالك غداً ستعلم .

سترى من يبكي ومن يندم ، إذا جثا الخليل وتزلزل ابن مريم ، يا عاشق الدنيا ، كم مات بها متيم ؟ يا من إذا خطرت له المعصية عليها صمم ؛ ما فعلك فعل من يريد أن يسلم .

ما للفلاح فيك علامة ، والله أعلم إن كان ثم عذر ، فقل وتكلم . أيها المتفكر في القبور الدوارس ، الباكي على ما كان به يستأنس ، إبك دمعاً مطلقاً لا يرعوي ، واترك أهل المجالس ، وتيقظ للخلاص ، فإلى كم ناعس ؟ وقم مبادراً للقوت ، فإلى كم جالس ؟ ليت شعري متى تتزود ؟ ومتى يبيض القلب الأسود ؟ أين الفرار والرقيب بالمرصد ؟ إلى متى مع الزلل والإسراف ؟ إلى كم مع الخطايا والاقتراف ؟ أين الندم والاعتراف ؟ لقد سمعت من الوعظ كل شاف كاف .

يا غافلاً عما اعدّله ، أمن هذا أم بله ؟ ما عذر من تغيب في ظلمات الغيب ، بعد إضاءة نور الشيب ؟ يا أسفاً ! من للمحتضر إذا علم من قد حضر ؟ وقلب الطرف متحيراً ونظر ، ورأى العجائب وبرق البصر ، وندم على إغفاله زاد السفر ، وجرى دمع الأسى ثم انهمر ، واحتاج الى قليل من الزاد وافتقر ، فلم ينفعه كل مستور مدخر ، وتقطع فؤاده أسفاً وانفطر ، إن في هذا عبرة لمن اعتبر ، إن كان قد سبقك فأنت على الأثر .

يا هذا ، الحساب شديد ، والطريق بعيد ،وقد خاف من لا خوف عليه ، فكيف سكن من لا أمن له .

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول : وددت أني شعرة في صدر مؤمن .

وكان عمر رضي الله عنه يقول : وددت أن أفلت كفافاً لا لي ولا علي ، لو أن لي طلاع الأرض ذهباً وفضة ، لافتديت بها من هول ما أمامي ، قبل أن أعلم ما الخبر . ولما طعن ؛ قال له ابن عباس رضي الله عنهما : لتهنك الجنة يا أمير المؤمنين ، فقال: غر بهذا غيري يا ابن عباس ، قال : ولم لا أقول لك هذا ؟ فوالله إن كان إسلامك لعزاً ، وإن كانت هجرتك لفتحاً ، وإن كانت ولايتك لعدلاً ، ولقد قتلت مظلوماً ، فقال : تشهد لي بذلك عند الله يوم القيامة ؟ فكأنه تلكأ ؛ فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ، نشهد لك بذلك عند الله يوم القيامة .

هذا خوف عمر ، وأين مثل عمر ؟ كادت الصوامت تنطق بفضله ، وهو أسير خوفه وحزنه . وكان عثمان رضي الله عنه يقول : لو أني بين الجنة والنار لا أدري الى أيتهما أصير ، لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم الى أيهما أصير . وكان علي رضي الله عنه يقول : آه من قلة الزاد ووحشة الطريق .

واعجباً لخوفهم مع التقوى ، وأمنك مع المعاصي يا سكران الهوى ، متى تفيق ؟ وصل الأحباب وما عرفت الطريق ، واتسعت الرحاب وأنت في الضيق ،وقد بقي القليل وتغص بالريق ، وتعاين زفير الموت وتعالج الشهيق ، وتبطل القوى ويخرس المنطيق ، وتغمس في بحر التلف ومن للغريق ؟ ويصيح لحرّ الزفرات على الفوات الحريق ، ويخلو

ببدنك الدود للتقطيع والتمزيق ، وخلوت بأعمالك وتجافي الصديق ، فإذا قمت من قبرك فما تدري في أي فريق .

يا معرضاً كل الإعراض عني ، كم من رسول قد أتاك مني ، ويحك عندي أمنية المتمني ! أتصر على معصيتي وتقول ظني ؟ أتنقض عزمك معي ومع العدو تبني ؟ أتترك كلامي وتختار أن تغني ؟.

أيها المثخن نفسه بجراحات الشباب ، حسبك ما قد مضى سودت الكتاب ، أبعد الشيب وعظ أو زجر أو عتاب ؟ هيهات ، تفرّق وصل الوصل وتقطعت الأسباب .

أما الأعمار كل يوم ناقصة ؟ أما الفجائع واردة وغافصة ، أما النكبات لأهلها مغافصة ؟ أما أكف الموت قابضة وقانصة ؟ فأنى لساكن الدنيا السلامة الخالصة .

ما هذه العمارة لدار خراب ؟ كلما عمّرها قوم صاح فيهم للبين غراب ، أتبني وأنت تنقض ؟ إن هذا لعجاب .

متى تتيقظ هذه النفس الملومة ؟ إنها لظالمة وكانت مظلومة ، كيف تصنع إذا نشرت الصحف المختومة ؟ ما هذا الحرص الشديد والأرزاق مقسومة ؟ تصبح حزينة وتمسي مهمومة ، أتقدر على ما يقدّر والأمور محتومة ؟ أسفاً لها ، الموت يطلبها وهي نؤومة ، ما حاربت جند هوى إلا عادت مهزومة ، يا لها موعظة بين المواعظ كالأيام معلومة ، أحسن من اللآلىء المنثورة ، والعقود المنظومة ، سبحان المتفرد بالقدرة ولا تقدر الخلائق قدره ، أنعم ، فمن يطيق شكره ؟ كلا إن الغافل في سكرة (أنزل من من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرّة) الحج : ٦٣ .

يا من لا يؤثر عنده وعده ووعيده ، ولا يزعجه تخويفه وتهديده ، يا مطلقاً ستعقله قيوده ، ثم يفنيه البلى ويبيده ، ثم ينفخ في الصور فيبتدى تجديده (كما بدأنا أول خلق نعيده) الانبياء : ١٠٤ . كم حسرة في يوم الحسرة . يوم كله أهوال ، شغله لا كالاشغال ، يتقلقل فيه القلب والبال ، فتذهل عقول النساء والرجال ، من شدة ذلك البلبال ، كل لحظة منه أشد من ساعة العسرة ، تخشع فيه الأملاك ، وتطاير فيه الصكاك ، ويعز على المحبوس الفكاك ، جعل الله خمسين ألف سنةٍ قدره .

إخواني : ارجعوا بحسن النزوع والأوبة ، واغسلوا بمياه الدموع ماضي الحوبة ، وقد نصبنا للذنوب شرك التوبة ، وذكرنا للعاصي ما فيه عبرة .

اللهم وفقنا لطاعتك ، وجنبنا المعاصي ، وارحمنا في يوم يؤخذ فيه بالأقدام والنواصي ، ويحشر فيه الداني والقاصي ، وأنلنا خيره واكفنا شره .

اللهم آمنا بك وبأسمائك وصفاتك وبمحمد رسولك ، فمن ذا الذي يرحمنا غيرك ، ومن ذا الذي يسعدنا سواك ، فارحمنا وأرنا سبيل الرشد ، واهدنا إليه سبيلا ، وأرنا سبيل الغيّ وجنبنا إياه ، واحرسنا بنورك يا الله .

اللهم يسّر لنا أمر هذا الرزق ، واعصمنا من الحرص والتعب في طلبه ، ومن شغل القلب ، وتعلق الهم به ، ومن الذل للخلق بسببه ، ومن التفكر والتدبير في تحصيله ، ومن الشح والبخل بعد حصوله ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين .



المجلس الرابع والاربعون

في ذكر الزكاة

الحمد لله الذي لا واضع لما رفع ، ولا رافع لما وضع ولا واصل لما قطع ، ولا مفرّق لما جمع ، سبحانه من مقدر ضر ونفع ، وحكم فالكل حكمه كيف وقع . أمرض حتى ألقى على شفى ثم شفى الوجع ، وواصل من شاء ومن شاء قطع .

أحمده على ما أعطى ومنع ، واشكره أن كشف للبصائر سر الخدع ، وأشهد بأنه واحد ، أحكم ما صنع ، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله والكفر قد علا وارتفع ، ففرق بمجاهدته من شره ما اجتمع ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الذي نجم نجمُ شجاعته يوم الردة وطلع ، وعلى عمر الذي عز الاسلام به وامتنع ، وعلى عثمان المقتول ظلماً وما ابتدع ، وعلى علي الذي أدحض الكفر بجهاده وقمع ، وعلى جميع آله وأصحابه ماسجد مصل وركع ، وسلم تسليماً .

اللهم يامن الى بابه كل راغب رجع ، اجعلنا ممن بالمواعظ انتفع ، وانفعني بما أقول وكل من استمع .

قال الله عز وجل ، : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) سورة التوبة : ٣٤ . الكنز : ما لم تؤد زكاته ،لقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ،ما كان من مال تؤدى زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً ،وماليس مدفوناً لا يؤدى زكاته فإنه الكنز الذي ذكره الله عز وجل في كتابه . (يوم يحمى عليها في نار جهنم) يعنى الاموال (فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم) المعنى : هذا ما ادخرتم لانفسكم (فذوقوا ما كنتم تكنزون) التوبه : ٣٥ . أي : عذاب ذلك .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : والله مامن رجل يكوى بكنز فيوضع دينار على دينار ، ولا درهم على درهم ، ولكن يوسع جلده ، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : هي حية تنطوي على جبينه وجبهته ، فتقول أنا مالك الذي بخلت به .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ ، وهو في ظل الكعبة فقال : « هم الأخسرون ، ورب الكعبة ، هم الأخسرون ورب الكعبة ، هم الأخسرون ورب الكعبة » ، قال : فأخذني غم ، وجعلت أتنفس ، قال : قلت : هذا شيء حدث في . قلت : من هم فداك أبي وأمي ؟! قال : « الا كثرون إلا من قال في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ، وقليل ما هم ، ما من رجل يموت فيترك غنماً أو إبلا أو بقراً لا يؤدي زكاتها ، إلا جاءته يوم القيامة أعظم ما يكون ، وأسمن حتى تطأه بأظلافها ، وتنطحه بقرونها ؟ حتى يقضي الله بين الناس ، ثم تعود أولاها على أخراها ، أخرجاه في « الصحيحين » .

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، أنه قال : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله : إما إلى الجنة ، وإما الى النار » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته ، مثل له شجاعاً أقرع ، له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه ، يعني شدقيه – يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، وتلى هذه الآية (ولا تحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) آل عمران : ١٨٠ . رواه مسلم . واعلم أن الزكاة أحد أركان الاسلام ، قال ﷺ : بني الاسلام على خمس » فذكر منهن الزكاة .

وينبغي للمتيقظ أن يفهم المراد من الزكاة . وذلك ثلاثة أشياء . أحدها : الابتلاء

بإخراج المحبوب . والثاني : التنزه عن صفة البخل المهلك . والثالث : شكر نعمة المال فليتذكر إنعام الله عليه ، إذ هو المعطي . وعليه أن لايؤخرها إذا حال الحول لأنها حق للفقير . ويجوز تقديمها على الحول ، وينبغي أن ينتقي الأجود للفقير . فإن الذي يعطيه ، هو الذي يلقاه يوم القيامة ، فليتخير لنفسه ما يصدق به وأن يقدم فقراء أهله ، ويتحرى بها أهل الدين ، ولا يبطل صدقته بالمن والأذى ، وليعط الفقير بانشراح صدر ولطف ، حتى كأن الفقير ينعم عليه بما يأخذه .

غوالب راحة الدنيا عناء ... وما تعطيه من هبة هباء

وما دامت على عهد لخل ... ولا وعدت فكان لها وفاء

تذيق حلاوة وتذيق مراً ... وليس لذا ولا هذا بقاء

وتجلو نفسها لك في المعاصي ... وفي ذاك الجلاء لك الجلاء

إذا نشرت لواء المكر يوماً ... لوى قلب الغبي بها اللواء

فدعها راغبا في ظل عيش ... وملك ما له أبداً فناء

عجباً لمن عرف الدنيا ثم اغتر ، أما يقيس مابقي بما مر ، أيؤثر لبيب على الخير الشر ؟ ايختار الفطن على النفع الضر ، كم من نعمة عليك قد سلفتها ؟ وما قمت بفريضة كلفتها ، إذا دعيت إلى التوبة سوفتها وإن جاءت الصلاة سفسفتها ، وإذا قمت إلى العبادة خففتها ، وإذا لاح وجه الدنيا ترشفتها ، إنها لدار قلقة تضيفتها ، أوليس قد شبت وما عرفتها ، كم حيلة في مكاسبها تلطفتها ، ولو شغلتك عنها آيات نانفقتها ، كم بادية في أرباحها تعشقتها ، كم قفار في طلابها طفتها ، كم كذبات من أجل الدنيا زخرفتها ، لقد استشعرت محبتها أي والله والتحفتها ، تحضر المسجد وقلبك مع التي الفتها ، أو مايكفيك أموالك وقد ألفتها ؟ تا الله لو علمت ما تجنى عفتها . أنسيت تلك الذنوب التي اسلفتها ؟ ألست الذي تذكرتها ثم ما خفتها ؟ آه لمراحل قطعتها وخلفتها ! آه من بضائع عمر بذرت فيها وأتلفتها ولو أردت لنفسك بختها وبختّها وعنّفتها ، لقد قتلتها بالوفاق ، فهلا خالفتها .

إخواني : قولوا للمفرط الجاني : قال لك الشيب : أما تراني ، أنا كتاب المنون

والضعف عنواني ، وليس في المسطور الا أنك فاني ، أين أهل العزائم ؟ رحلوا وماتوا أين أهل اليقظة ؟ ذهبوا وفاتوا ، أقبلوا بالقلوب على مقلبها ، وأقاموا النفوس لدى مؤدبها وأحضروا الأخرى فنظروا الى غائبها ، وسهروا الليالي كأنهم وكلوا برعي كواكبها ، ونادوا نفوسهم صبراً على نار البلاء لمن كواك بها ، ومقتوا الدنيا فما مال الملاء الى ملاعبها ، واشتاقوا الى الحبيب فاستطالوا مدة المقام بها .

أنتم على البعد همومي إذا	غبتم وأشجاني على القرب
لا أتبع القلب إلى غيركم	عيني لكم عين على قلبي

ان لم تكن معهم وقت السحر فتلمح آثار الحبيب عليهم وقت الضحى ، واقرأ في صحائف الوجوه سطور القبول عداد الأنوار ، وجوه زهاها الحسن أن تتبرقعا ، أين أنت من القوم ؟ كم بين اليقظة والنوم يا بعيد السلامة ، قد قربت منك الندامة ، ياعديم الاستقامة ، ما أرى لنجاتك علامة ، أعمالك لاتصلح للجنة ، وخصالك الباطنة أوصاف الجنة ، إلى متى جد في غير الجد وانكماش ؟ الى كم في الظلام وقد نسخت الاغباش ، تمكن حب الدنيا من القلب فما يخرجه منقاش ، ولاح نور الفلاح ، فكيف يبصر الخفاش ، أما النهار فأسير الهوى في المعاش ، وأما الليل فقتيل المنام والفراش ، كيف يصحب الصلحاء من همته صحبة الاوباش ، وهل يبارز في صف الحرب خوار ضعيف الجأش !.

فصل

قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) آل عمران : ٩٢ . المعنى : لن تنالوا البر الكامل ، وبعض المفسرين يقول ، المراد بالبر ههنا : الجنة ، ومن يدرك الفضل الا ببذل محبوب النفس ، عن اسحق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول : كان أبو طلحة أكثر انصاري بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحب أمواله اليه بيرحاء كانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب .

قال أنس فلما نزلت (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قام ابوطلحة فقال : يارسول الله ، ان الله يقول (لن تنالو البر حتى تنفقوا مما تحبون) وإن أحب أموالي إلى بيرحاء ، وإنها صدقة لله عز وجل ، أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها حيث أراك الله فقال « بخ ذلك مال رابح أورائح ، وقد سمعت ماقلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين » قال ابوطلحة : افعل ذلك ، فقسمها ابوطلحة في أقاربه وبني عمه. أخرجاه في «الصحيحين» .

وعن نافع قال : كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشيء من ماله ، قربه لربه عز وجل. قال نافع : كان بعض رقيقه قد عرفوا ذلك منه ، فربما شمر أحدهم فلزم المسجد ، فاذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه ، فيقول له اصحابه : ياأبا عبد الرحمن ، والله مابهم الا أن يخدعوك ، فيقول ابن عمر فمن خدعنا بالله، انخدعنا له . قال نافع : فلقد رأيتنا ذات عشية وراح ابن عمر على نجيب له قد أخذه بمال ، فلما أعجبه سيره ، أناخه مكانه ثم نزل عنه وقال : يانافع ، انزعوا ركابه ورحله ، وجللوه وأشعروه وأدخلوه في البدن .

وعن الربيع بن خثيم انه وقف سائل على بابه فقال: اطعموه سكراً، فان الربيع يحب السكر. واعلم أن الانفاق يقع على الزكاة المفروضة وعلى الصدقة والنافلة وعلى الإيثار والمواساة للاخوان فمن أخرج لله عز وجل شيئاً ، فليكن ،من أطيب ماله وليوقن بالمضاعفة.

فعن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يصعد الى الله الا طيب - فان الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل :

وعن أبي مسعود الانصاري رضي الله عنه قال : جاء رجل الى رسول الله ﷺ بناقة مخطومة ، فقال هذه في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة » .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ان الصدقة لتطفىء غضب الرب ، وتدفع ميتة السوء » وعنه أيضاً عن رسول الله ﷺ قال : « ان الله عز وجل ليدرء بالصدقة سبعين ميتة من السوء » وفي رواية عنه أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال :

«تصدقوا فإن الصدقة فكاك من النار ، والصدقة تمنع سبعين نوعاً من البلاء ، أهونها الجذام والبرص » وينبغي للمتصدق أن يصلح نيته ، فيقصد بالصدقة وجه الله عز وجل ، فإن لم يقصد وجه الله لم تقبل منه ويتحرى الحلال ففي افراد مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : «لا يقبل الله صدقة من غلول » وكان الحسن رحمه الله يقول : أيها المتصدق على المسكين يرحمه إرحم من ظلمت . وأن يتيخير الأجود فقد قال الله تعالى (أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) البقرة : ٢٦٧ وليخرج المعطي وإن قل ، فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه سئل أي الصدقة افضل ، فقال : «جهد المقل» قال الحسن رحمه الله : أدركنا أقواماً ما كانوا يردون السائل إلا بشيء ، ولقد كان الرجل منهم يخرج من بيته فيأمر أهله أن لا يردوا سائلاً . ومن آداب العطاء أن يكون سراً فإن صدقة السر تطفىء غضب الرب عز وجل . قال عبد العزيز بن عمير : الصلاة تبلغك نصف الطريق ، والصوم يبلغك باب الملك ، والصدقة تدخلك عليه . وكان السلف يؤثرون عند الحاجة ، ويقدمون الأجود المحبوب .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فبعث إلى نسائه ، فقلن ماعندنا الا الماء فقال رسول الله ﷺ : من يضم هذا أو يضيف هذا الرجل ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا ، فانطلق به إلى امرأته فقال : أكرمي ضيف رسول الله ﷺ ، فقالت : ماعندنا إلا قوت الصبيان ، فقال هيئي طعامك ، واصلحي سراجك ، ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء ففعلت ، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته ، فجعلا يريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين ، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال : ضحك الله الليلة ، أو عجب من فعالكما فأنزل الله تعالى (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) الحشر : ٩ .

وعن ابن الاعرابي : قال استشهد باليرموك عكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وجماعة من بني المغيرة ، فأتوا بماء وهم صرعى فتدافعوه حتى ماتوا

ولم يذوقوه ، أتي عكرمة بالماء فنظر الى سهيل ينظر إليه فقال : ابدؤوا بهذا ، فنظر سهيل الى الحارث ينظر إليه ، فقال : ابدؤوا بهذا ، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا ، فمر بهم خالد ابن الوليد فقال : بنفسي أنتم . نقه ابن عمر من مرض فاشتهى سمكة ، فلما قدمت إليه ، جاء سائل فناولها إياه واشتهى الربيع بن خثيم حلوى فلما صنعت له دعا بالفقراء فقال : كلوا فقال أهله : أتعبتنا ولم تأكل ، فقال : وهل أكل غيري ؟ كم بينك وبين الموصوفين كما بين المجهولين والمعروفين آثرت الدنيا و آثروا الدين ، فتلمح تفاوت الامر يا مسكين ، أما الفقير فما يخطر ببالك ، وإذا جاء سائل أغلظت له في مقالك ، فإن أعطيته فحقيراً يسيراً من رديء مالك .

إلى كم تتعب في جمع الحطام وتشقى ؟ وتؤثر ما يفنى على ما يبقى . عباد الله ، إلى متى تجمعون مالا تأكلون ؟ وتبنون مالا تسكنون ، والجيّد في بيوتكم تدخرون ، والرديء الى الفقير تخرجون (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

حرّكوا هممكم الى الخير وازعجوا ، وحثوا عزائمكم الى الجد وأدلجوا ، والتفتوا عن الحرص على المال وعرجوا ، وآثروا الفقير بما تؤثرون ، (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

ويحكم السير حثيث ، ولا ملتحد ولا مغيث ، فبادروا بالصدقة المواريث (ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون) البقرة : ٢٦٧ (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

يا بخيلاً بالفتيل ، شحيحاً بالنقير ، يا صريعاً بالهوى إلى متى عقير ؟ تختار لنفسك الأجود ، ولربك الحقير ، مالا يصلح لك من الشيء تعطيه الفقير إن كنت تصدق بالثواب فتصدق بالمحبوب المصون (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

يا وحيداً عن قليل في رمسه ، يا مستوحشاً في قبره بعد طول أنسه ، لو قدم خيراً نفعه في حبسه . (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

تجمع الدنيا على الدينار لغيرك ، وينساك من أخذ كل خيرك ، ولا تتزود منه شيئاً لسيرك ، هذا هو الجنون . (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

اللهم ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وهب لنا تقواك ، واهدنا بهداك ، ولا تكلنا الى أحد سواك ، واجعل لنا من كل هم وغم فرجاً ، ومن كل ذنب وضيق وشهوة مخرجاً واكفنا شر ما تعلق به علمك مما كان ويكون .

اللهم أحاط علمك بجمع المعلومات ، وعلت قدرتك على جميع المقدورات . وجلت إرادتك أن يخالفها شيء من الكائنات ، يامن منه وبه واليه كل شيء ، يامن يقول للشيء كن فيكون .

اللهم اعذنا بمعافاتك من عقوبتك ، وبرضاك من سخطك ، واحفظ جوارحنا عن مخالفة أمرك ، وامح من قلوبنا الركون الى غيرك .

وأعذنا اللهم من سوء القضاء ، ومن شماتة الاعداء ، ومن كل متكبر لا يؤمن بيوم بالحساب .

يامن بيده ملكوت كل شي ، وهو يجير ولا يجار عليه ، انصرنا باليقين ، وأيدنا بالنصر المبين ، واغفر لنا ولوالدينا ، ولجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الخامس والاربعون

في ذكر الصيام

الحمد لله خالق الدجى والصباح ، ومسبب الهدى والصلاح ، ومقـدر العموم والأفراح ، الجائد بالفضل الزائد والسماح . مالـك الملك والمنجي من الهلك ، ومسير الفلك والفلك ، وميسر النجاح . عز فارتفع ، وفرق وجمـع ، ووصل فقطع ، وحرم وأباح ، ملك وقدر ، وطوى ونشر ، وخلق البشر ، وفطر الاشباح ، رفع السماء ، وأنزل الماء ، وعلم آدم الأسماء ، وذر الرياح ، أعطى ومنح ، وأنعم ومدح ، وعفا عن من اجترح ، وداوى الجراح ، علم ما كان وما يكون ، وخلـق الحركة والسكون ، وإليه الرجوع والركون في الغدو والرواح ، يتصرف في الطول والعرض ، وينصب ميزان العدل يوم العرض ، (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكواة فيها مصباح) النور : ٣٥ . أحمده وأستعينه وأتوكل عليه ، وأسأله التوفيق لعمل يقرب إليه ، وأشهد بوحدانيته عن أدلة صحاح ، وأن محمداً عبده المقدم ورسوله المعظم ، وحبيبه المكرم ، نفـديه بالأرواح . صلى الله عليه وعلى أبي بكر رفيقه في الغار ، وعلى عمر فتاح الامصار ، وعلى عثمان شهيد الدار ، وعلى علي الذي يقتل رعبه قبل السلاح ، وعلى جميع آله وأصحابه صلاة دائمة مابدا فجر ولاح ، وسلم تسليما .

اعلموا أن الصوم من أشرف العبادات ، وله فضيلة ينفرد بها على جميـع التعبدات وهي إضافته إلى الله عز وجل ، بقوله : « الصوم لي وأنا أجزي به » .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل عمـل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى ماشاء الله ، يقول الله عز وجل :

إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع طعامه وشهوته من أجلي ، للصائم فرحتان فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه . ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك ، الصوم جنة » .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «إن للجنة باباً يقال له الريان يقال يوم القيامة : أين الصائمون ؟ هلموا إلى باب الريان ، فإذا دخل آخرهم أغلق ذلك الباب » وفي لفظ « فلم يدخل منه أحد » هذان الحديثان في «الصحيحين » ثم إن للصوم آداباً منها : كف النظر ، واللسان عن الفضول ، ومنها الإفطار على الحلال ، وتعجيله وأن يفطر على تمر ويقول إذا أفطر : اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت ، وعليك توكلت . ويستحب السحور وتأخيره .

وفي « الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا كان أحدكم يوماً صائماً ، فلا يجهل ولا يرفث ، فإن امرؤ قاتله أو شتمه ، فليقل إني صائم » . وقد لا تخلص النية ولا يحصل الأجر .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ، ورب قائم حظه من قيامه السهر » فأما ما يستحب صيامه فقد كان جماعة من السلف يصومون المحرم .

وقد أخرج مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم » .

وفي أفراده من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ أنه قال في صوم يوم عاشوراء «يكفر السنة الماضية » .

وفي « الصحيحين » من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : ما كان رسول الله ﷺ يصوم في شهر من السنة أكثر من شعبان ، كان يصومه كله . وفيهما من حديث عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه ، وينام سدسه » .

وفي أفراد مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « صيام يوم عرفة إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله ، والسنة التي بعده » .

وفي أفراده من حديث أبي أيوب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ . أنه قال : «من صام رمضان ، ثم اتبعه ستاً من شوال ، فذلك صيام الدهر » .

وفي أفراده منحديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إن أبواب الجنة تفتح يوم الاثنين والخميس » .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : قلت : يارسول الله ، إنك تصوم لاتكاد تفطر ، وتفطر لاتكاد تصوم إلا يومين إن دخلا في صيامك ، وإلا صمتهما قال : أي يومين ؟ قلت : يوم الاثنين والخميس ، قال : « ذانك يومان تعرض فيهما الاعمال على رب العالمين ؟ فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم » .

ويستحب صيام ثلاثة أيام من كل شهر .

ففي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : أَوصاني خليلي بثلاث ؛صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتي الضحى ، وأن أوتر قبل أن أنام .

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إذا صمت من الشهر ثلاثة أيام ، فصم ثلاث عشرة ، وأربع عشرة وخمس عشرة » وقد كان جماعة من السلف يغتنمون العمر فيسردون الصوم ولا يفطرون إلا الأيام المحرمة.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسرد الصوم . وسرده أبو طلحة أربعين سنة . وسردته عائشة ، وعروة ، وسعيد بن المسيَّب .

وقد كان بعض السلف يبكي عند الموت ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي على يومٍ ما صمته ، وليلة ما قمتها .

فاغتنموا اخواني : زمنكم ، وبادروا بالصحة زمنكم ،واحفظوا أمانة التكليف لمن أمنكم فكأنكم بالحميم وقد دفنكم ، وبالعمل في القبر قد ارتهنكم .

ألم يأن تركي ما عليّ ولا ليا ... وعزمي على ما فيه إصلاح حاليا

وقد نال مني الدهر وابيض مفرقي بكر الليالي والليالي كما هيا
أصوّت بالدنيا وليست تجيبني أحاول أن أبقى وكيف بقائيا
وما تبرح الأيام تحذف مدتي بعدّ حساب لا كعد حسابيا
أليس الليالي غاصبات لمهجتي كما غصبت قبلي القرون الخواليا
وتسكنني لحداً لدى حفرة بها يطول الى أخرى الليالي ثوائيا
فياليتني من بعد موتي ومبعثي أكون تراباً لا عليّ ولا ليا

يامن ذنوبه كثيرة لاتعد ، ووجه صحيفته بمخالفته قد اسود ، كم ندعوك الى الوصال وتأبى إلا الصد ، أما الموت قد سعى نحوك وجد ؟ أماعزم أن يلحقك بالأب والجد ؟ أما ترى منعماً أترب الثرى منه الخد ؟ كم عاينت متجبراً كف الموت كفه الممتد ، فاحذر أن يأتي على المعاصي فإنه اذا أتى أبي الا ّ الرد ، الى كم ذا الصبى والمراح ، أَأبقى الشيب موضعاً للمزاح ؟ لقد أغنى الصباح عن المصباح ، وقام حرب المنون من غير سلاح ، فعاد ذو الشيبة بالضعف ثخين الجراح ، ونطقت ألسن الفناء بالوعظ الصراح ، واأسفا صمت المسامع والمواعظ فصاح ، وأنىّ بالفهم لمخمور غير صاح ؟ لقد أسكرك الهوى سكراً شديداً لايزاح ، وما تفيق حتى يقول الموت لابراح .

أما تبصر الآجال كيف تخرمت وكل امرىء للهلك والموت صائر
وأنت بكأس القوم لابد شارب فهل أنت فيما يصلح النفس ناظر

لقد وعظ الزمان بالآفات والمحن ، ولقد حدث بالظعن كل من قد ظعن ، ولقد أنذر المطلق في أغراضه المرتهن ، تالله لو صفت الفطن أبصرت مابطن .

إخواني أمر الموت قد علن كم طحطح الردى وكم طحن ، ياباىٔعاً لليقين مشترياً للظنين يامؤثراً للرذائل في اختيار الفتن ، انت في المعاصي مطلق الرسن ، وفي الطاعة كذي وسن . يارضيع الدنيا وقد آن فطامه ، ياطالب الهوى وقد حان حمامه .

قال وهب بن منبّه رحمه الله : إن لله منادياً ينادي كل ليلة ابناء الخمسين : هلموا الى الحساب أبناء الستين ، ماذا قدّمتم ؟ ماذا أخرتم ؟ أبناء السبعين عدوا أنفسكم في الموتى :

كبرت وقاربت نصف المائه وبدّلت يا شيخ بالتسمية
وقد نشر الشيب في عسكر الشبـــاب على رأســك الألوية
تحوّل إلى توبة لا تحـــور عساها تكون هي المنجيــة
ولا تطلق اللحظ في ريبــة فكم تعتد الإثم والمعصية

إلى كم ياذا المشيب ، أما الموت منك قريب ؟ كم تعب في وعظــك خطيب ، كم عالجك طبيب ، إنه لمرض عجيب ، إنه لداء غريب ، عظم واهن ، وقلب صليب ، ويحك أتنفق أنفاس النفس النفيسة على تحصيل الدنيا الخسيسة ؟ متى يقنعك الكفاف ؟ متى يردُّك العفاف ؟ إنك لتأبى إلا الخلاف ، مقاليدك ثقال وركعاتك خفاف ، يا قبيح الخصال ، ياسيىء الأوصاف ، يا مشترياً بسنيّ الخصب السنين العجاف ، قــف متدبراً لحالك ، فالمؤمن وقّاف ، وتذكر وعيد العصاة ويحك أما تخاف ؟ خلّ فضول الدنيا وقد سلمت ، إن لم تقبل نصحي لك ندمت ، البلغة منها ما تفوت ، والزاهد فيها ما يموت ، فاعرض عنها جانباً ، وكن لأهلها مجانباً ، وإذا أتلفك هجير المجاعة ، فلذ بالصبر في ظـل القناعة ، ويحك إن الدنيا فتنة ، وكم فيها من محنة ، غير أنها لا تخفى على أهل الفطنة مسكنها حرج ، وساكنها منزعج .

إنما الدنيـــا بلاء ليس في الدنيا ثبوت
إنما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت
كل من فيها لعمري عن قريب سيموت
إنمـا يكفيك منهـا أيها الراغـب قوت

فصل

في قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) ق : ١٦ .
الإنسان : ابن آدم . ومانوسوس به نفسه : ما تحدثه به ، ويكنه في قلبه .
وهذا يحث على تطهير القلب من مساكنة الوساوس الردية ، تعظيماً لمن يعلم (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) الوريد: عرق في باطن العنق . وحبل الوريد : هو الوريد، فأُضيف الى نفسه لاختلاف لفظي اسمه (إذ يتلقى المتلقيان) وهما الملكان ، يتلقّيان القول ، ويكتبان (عن اليمين وعن الشمال قعيد) أي : قاعد . والمعنى: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أي :حافظ ، وهو الملك الموكل به . والعتيد : الحاضر معه أينما كان .

قال سفيان الثوري يوماً لأصحابه : أخبروني لو كان معكم من يرفع الحديث الى السلطان ، أكنتم تتكلمون بشيء ؟ قالوا : لا ، قال : فإن معكم من يرفع الحديث الى الله تعالى .

وقال بعض السلف: مررت برجل منفرد فقلت له : أنت وحدك ؟ فقال : معي ربي وملكاي ، فقلت اين الطريق ؟ فاشار الى السماء ، ثم مضى وهو يقول : اكثر خلقك شاغل عنك .

وقال بعضهم : اذا نطقت فاذكر من يسمع ، واذا نظرت فاذكر من يرى، واذا عزمت فاذكر من يعلم . راود رجل امرأة فقالت ألا تستحي ؟ فقال مايرانا الا الكواكب قالت :فأين مكوكبها؟!

كأن رقيباً منك يرعى خواطري ... و آخر يرعى ناظري ولساني
فما نظرت عيناي بعدك نظرة ... لغيرك الا قلت قد رمقاني
ولا بدرت من في بعدك لفظة ... لغيرك الا قلت قد سمعاني
ولا خطرت في غير ذكرك خطرة ... على القلب الا عرجت بعناني

يامن معاصيه كثيرة مشهورة ، يامن نفسه بما تجني عليه مسرووة ، أفي العين كمه أم عشا ؟ أم الأمر يجري اليك كما تشا ؟ أعلى القلب حجاب أوغشاء؟ يامن إذا قعد عصى ، وكذا اذا مشى . كل فعلك غلط ، كل عملك سقط ، أترى هذا العقل اختلط ، أما قوم بهذا الشمط ؟ أما علم الشيب على حروف الموت ونقط ؟

كتب يوسف بن اسباط إلى حذيفة المرعشي رحمهما الله تعـالى : أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله والعمل بما علمك الله ، والمراقبة حيث لايراك الا الله ، والاستعداد لما ليس لأحد فيه حيلة ، ولا ينتفع بالندم عند نزوله ، فاحسر عن رأسك قناع الغافلين وانتبه من رقدة الموتى ، وشمر للسباق غداً فان الدنيـا ميدان المتسابقين . ولا تغتر بمن أظهر النسك وتشاغل بالوصف وترك العمل بالموصوف .

واعلم يا أخي أنه لابد لي ولك من المقام بين يدي الله تعالى ، يسألنا عن الدقيق الخفي ، وعن الجليل الخافي ، ولست آمن أن يسألني واياك عن وساوس الصدور ولحظات العيون والإصغاء للاستماع .

واعلم أنه لايجزىء عن العمل القول ، ولا عن البذل العدة ، ولا من التوقي التلاوم .

يا مطلقاً نفسه فيما يشتهي ويريد ، أذكر عند خطراتك المبدىء المعيـــد ، وخف قبح ما جرى فالملك يرى والملك شهيد (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) هـلا استحييت ممن يراك ، إذ ركبت من هواك ماعنه نهاك ، ستبـكي عيناك على ماجنت يداك ، أَمـا تعلم أنه بالمرصاد فقل لي : أين تحيد ؟ (ونحن أَقرب إليـــه من حبل الوريد)لو صدق علمك به لراقبته ، ولو خفت وعيده في الحرام ما قاربته ، ولو عـــلمت شؤم الجزاء في كأس الهوى ما شربته ، لقد أضعنا الحديث عند سكران يميـد (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

مـا ظنك بمن يحصي جميع كلماتك ، ويضبط كل حركاتك ويشهد عليك بحسناتك ، وسيئاتك على الترتيب والتنضيد (عن اليمين وعن الشمال قعيد) .

ترفع الصحائف وهي سود ، وعمل المنافق كله مردود ، يحضره الملكان لدى المعبود ، بأسر العبيد (عن اليمن وعن الشمال قعيد).

يضبطان على العبد ما يجري من حركاته ، وما يكون من نظراته وكلماته ، واختلاف أموره وحالاته ، لا تنقص ولا تزيد (عن اليمين وعن الشمال قعيد) .

كلامك يا هذا مكتوب ، وفعلك كله محسوب ، وأنت غداً مطلوب ، ولك ذنوب ولا تتوب ، وشمس الحياة قد أخذت في الغروب ، فما أقسى قلبك من بين القلوب ، وقد أتاه ما يصدع الحديد (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد).

أتظن أنك متروك مهمل ؟ أم تحسب أنه ينسى ما تعمل ؟ أم تعتقد أن الكاتب يشغل ؟ هذا صائح النصائح قد أقبل ، يا قاتلا نفسه بكفه لا تفعل ، يا من أجله ينقص وأمله يزيد (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

أنا من خوف الوعيد	في قيام وقعود
كيف لا أزداد خوفاً	وعلى النار ورودي
كيف جحدي ما تجرّمت	وأعضائي شهودي
كيف إنكاري ذنوبي	أم ترى كيف جحودي
وعلي القول يحصى	برقيب وعتيد

كأنك بالعمر قد انقرض ، وهجم عليك المرض ، وغاب كل مراد وغرض ، وإذا بالتلف قد عرض أَخاذا (لقد كنت في غفلة من هذا) .

شخِصَ البصر وسكن الصوت ، ولم يمكن التدارك للفوت ، ونزل بك ملك الموت وحاذا (لقد كنت في غفلة من هذا) .

عالجت أشد الشدائد ، فيا عجباً لما تكابد ، كأنك سقيت سمّ الأساود ، فقطع أفلاذا (لقد كنت في غفلة من هذا) .

بلغت الروح الى التراقي ، ولم تعرف الراقي من الساقي ، وما تدري عند الرحيل ما تلاقي ، عياذاً بالله عياذاً (لقد كنت في غفلة من هذا).

ثم أَدرجوك في الكفن ، وحملوك الى بيت العفن ، على العيب والقبيح والأفن ، وإذا الحبيب من التراب قد حفن ، وصرت في القبر جُذاذا (لقد كنت في غفلة من هذا)؟

وتسرّبت الأقارب عنك تسري في مالك وتغري، وغاية أمرهم أن تجري دموعهم رذاذا (لقد كنت في غفلة من هذا) .

قفّلوا الأقفال وبضّعوا البضاعة ، ونسوا ذكرك يا حبيبهم بعد ساعة ، وبقيت هناك الى يوم الساعة ، لا تجد وزراً ولا معاذا (لقد كنت في غفلة من هذا) .

ثم قمت من قبرك فقيراً ، لا تملك من المال نقيراً ، وأَصبحت بالذنوب عقيراً ، فلو قدّمت من الخير حقيراً صار ملجأ وملاذا (لقد كنت في غفلة من هذا) .

ونُصِب الصراط والميزان ، وتغيرت الوجوه والألوان ، ونودي الشقي فلان ابن فلان ، وما ترى للعذر نفاذاً (لقد كنت في غفلة من هذا) .

كم بالغ عذولك في الملام ،وكم قعد في زجرك وقام ، فإذا رأى قلبك ما استقام، قطع الكلام على ذا (لقد كنت في غفلة من هذا) .

اللهم نبّه قلوبنا من سِنَة الغفلة ، ووفقنا لما يرضيك في أوقات المهلة ، ولا تحرمنا بذنوبنا ولا تطردنا بعيوبنا .

اللهم قوّ عزائمنا ، وثبت دعائمنا ، وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء يا أرحم الراحمين .

اللهم يا مصلح الصالحين ، أصلح فساد قلوبنا ، واستر في الدنيا والآخرة عيوبنا ، واغفر بعفوك ورحمتك ذنوبنا ، وهب لنا موبقات الجرائر ، واستر علينا فاضحات السرائر ولا تخلنا في موقف القيامة من برد عفوك وغفرانك ، ولا تتركنا من جميل صفحك وإحسانك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين آمين .



المجلس السادس والاربعون

في ذكر الحج

الحمد لله الملك القديم الواحد العزيز العظيم الشاهد ، سامع ذكر الذاكر وحمد الحامد ، وعالم ضمير المريد ونية القاصد ، لعظمته خضع الراكع وذل الساجد ، وبهداه اهتدى الطالب وأدرك الواحد ، رفع السماء فعلاها ولم يحتج الى مساعد ، وألقى في الأرض رواسي راسخات القواعد ، فتنزه عن شريك مشاقق أو ندٍّ معاند ، وعزّ عن ولد وجلّ عن والد ، وأحاط علماً بالأسرار والعقائد ، وأبصر حتى دبيب النمل في الجلامد ، وسطى فسالت لهيبته صعاب الجوامد ، ويقول في الليل هل من سائل؟ فانتبه يا راقد ، بنى بيتاً أمر بقصده وتلقى الوافد ، وأقسم على وحدانيته وما ينكر إلا معاند (والصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً إن الهكم لواحد) الصافات : ٤ .

أحمده على الرخاء والشدائد ، وأقر بتوحيده إقرار عابد ، وأصلي على رسوله بيت القصائد . صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر التقي النقي الزاهد ، وعلى عمر العادل فلا يراقب الولد ولا الوالد ، وعلى عثمان المقتول ظلماً بكف الحاسد ، وعلى علي البحر الخضم والبطل المجاهد ، وعلى سائر آله وأصحابه الأقارب منهم والأباعد ، وسلم تسليماً.

قال الله عز وجل : (ولله على الناس حجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً) آل عمران :

فرض الله عز وجل جح البيت بهذه الآية ؟

واعلم أن وجوب الحج موقوف على وجود البلوغ والعقل والحرية والإسلام والزاد والراحلة ، وأن يكون وجود الزاد والراحلة فاضلاً عما يحتاج إليه وعن نفقة العيال الى أن يعود ، وعن قضاء دين إن كان عليه . ثم ينبغي أن ينظر في أمن الطريق وسعة الوقت ، الى غير ذلك .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « من قدر على الحجّ ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً ، وإن شاء نصرانياً » .

وقد ذكرنا في أول الكتاب بناء البيت وفضائله ، وفضائل الحجر الأسود ، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي أنه قال : « في الركن اليماني وكّل الله عزوجل سبعين ألف ملك ، فمن قال أسألك العفو والعافية ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، قالوا : آمين » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله عز وجل في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة تنزل على هذا البيت ، ستون للطائفين ، وأربعون للمصلين ، وعشرون للناظرين » .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من طاف بالبيت سبعاً ، وصلى خلف المقام ركعتين فهو عدل محرر » .

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : « من طاف بالبيت لم يرفع قدماً ولم يضع أخرى إلا كتب الله عز وجل له بها حسنة ، وحط عنه بها خطيئة ، ورفع له بها درجة » .

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من طاف بالبيت خمسين مرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

وفي حديث بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « النفقة في الحج تضاعف كالنفقة في سبيل الله ، الدرهم بسبعمائة » .

وأما حج الماشي فقد روي عن زاذان قال : مرض ابن عباس رضي الله عنه مرضاً شديدا فدعا ولده فجمعهم فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من حج من مكة ماشياً حتى يرجع إلى مكة كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم » فقيل له : وما حسنات الحرم ؟ قال : « بكل حسنة مائة الف حسنة » .

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الملائكة تصافح ركبان الحاج وتعتنق المشاة »

وأما فضيلة الحج : فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، والعمرتان أو العمرة إلى العمرة تكفر مابينهما » وعنه أيضاً قال قال رسول الله ﷺ : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كما ولدته أمه » . وهذان الحديثان في « الصحيحين » .

وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من أراد دنيا وآخرة فليؤم هذا البيت ، ما أتاه عبد يسأل الله دنياً إلا أعطاه منها ، ولا آخرة إلا ادخر له منها » .

وينبغي لمن أراد الحج أن يتذكر بأهوال الطريق ، الأهوال بعد الموت ، وفي القيامة ، وبالإحرام الكفن وبالتلبية إجابة الداعي . وليحضر قلبه لتعظيم البيت ، وليتذكر بالالتجاء اليه التجاء المذنب ، وبالطواف الطواف حول دار السيد ليرضى ، وبالسعي بين الصفا والمروة، التردد في فناء الدار ، وبرمي الجمار رمي العدو ، فإذاوصل الحاج الى المدينة فلبجل على فكره تعظيم من يقصده ،وليتخايل في مسجدها وطرقاتها نقل أقدام المصطفى هناك ، والصحابة وليتأسف إذ لم يحظ برؤيته ولم يكن في صحابته .

وما عشت من بعد الأحبة سلوة	ولكنني للنائبات حمول
وما شرقي بالمـاء إلا تذكراً	لماءبه أهل الحبيب نزول

وينبغي لمن عاد من الحج أن يقوى رجاؤه بالقبول ومحو ماسلف . وليحذر من تجديد زلل ، وقد سئل الحسن البصري : ما الحج المبرور ؟ فقال : أن يعود زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرة .

روى عن علي بن الموفق أنه قال : لما تم لي ستون حجة ، خرجت من الطواف ، وجلست تحت الميزاب ، وجعلت أفكر لا أدري أي شيء حالي عند الله تعالى ، وقد كثر ترددي الى هذا المكان ، فغلبتني عيني ،فكأن قائلا يقول لي : ياعلي أتدعو الى بيتك إلا من تحب ؟ قال : فانتبهت وقد سري عني ما كنت فيه .

غفلت وليس الموت في غفلة عني	ولا أحد يجني علي كما أجني
أشيد بنياني وأعـلم أنـني	أزول لمن شيدته ولمن أبني

كفاني بالموت المنغص واعظاً بما أبصرت عيني وما سمعت أذني
وكم للمنايا من فنون كثيرة تميت وقد وطنت نفسي على فني
ستسجنني يارب في القبر برهة فلا تجعل النيران من بعده سجني
ولي عند ربي سيئات كثيرة ولكنني عبد به حسن الظن

من للعاصي إذا دعي فحضر ، ونشر كتابه ونظر ، ولم يسمع عذره وقد اعتذر ، وناقشه المولى ثم ماغفر .

آه لراحل لم يتزود للسفر ، ولخاسر إذا ربح المتقون افتقر ، ولمحروم جنة الفردوس حل في سقر ، ولفاجر فضحه فجوره فاشتهر ، ولمتكبر بالذل بين الكل قد ظهر ، ولمحمول إلى جهنم فلا ملجأ ولا وزر . آه من يوم تكور فيه الشمس والقمر .

يا كثير الرياء قل لي : متى تخلص ؟ الدهر حريص على قتلك يامن يحرص ، تفكر فيمن أصبح مسروراً فأمسى وهو متنغص ، ومتى أردت لذة فاذكر قبلها المنغص ، وتعلم أن الهوى ظل ، والظل متقلص ، حائط الباطل خراب فإلى كم تجصص ؟ أين الهم المجتمع تفرق فما تنتفع ، يدعوك الهوى فتتبع ، ويحدثك المنى فتستمع ، كم زجرك ناصح ولا تطع ، سار الصالحون يامنقطع ، شروا مايبقى بمايفنى وأنت لم تشر ولم تبع . أين تعبهم نسخ بالروح ولم يضع ، كأنه ماجاع قط من شبع . جز على قبور العباد وناد في ذاك الناد ، أيتها الأودية والوهاد ، مافعلت تلك الأوراد ؟ سبحان من قسم الأقسام ، فلقوم يقظة ولقوم منام .

قال وهب بن منبه : كان في بني لسرائيل رجلان ان بلغت بهما عبادتهما أن مشيا على الماء ، فبينما هما يمشيان في البحر إذا هما برجل يمشي في الهواء ، فقالا له : ياعبد الله بأي شيء أدركت هذه المنزلة ؟ فقال : بيسير من الدنيا ، فطمت نفسي عن الشهوات ، وكففت لساني عما لايعنيني ، ورغبت فيما دعاني ، ولزمت الصمت ، فإن أقسمت على الله أبر قسمي ، وإن سألته أعطاني .

يابعيداً عن الصالحين ، يامطروداً عن المفلحين ، لقد نصب الشيطان الاشراك ،

وجعل حب الفخ هواك . وكم رأيت مأسوراً وسط ذاك ، فأخذه فخه فهو بعيد الفكاك ، كم يوم غابت شمسه وقلبك غائب ، كم ظلام أسبل ستره وأنت في عجائب ، كم ليلة بالخطايا قطعتها ، وكم من أعمال قبيحة قد رفعتها ، كم من ذنوب جمعتها ، والصحف أودعتها ، كم نظرة لاتحل قد نظرتها ، كم من موعظة حضرتها ، كأنك ماسمعتها ، كم من ذنوب تعب غيرك بها أنت صنعتها ، وكم أمرتك النفس بما تهوى فأطعتها ، ياموافقاً لنفسه آذيتها خالفها ، وقد نفعتها .

طوى نفسه عني الشباب المزايل — فأسلمت للشيب الذي لايزايل

نسير إلى الآجال في كل ساعة — وأيامنا تطوى وهن مراحل

وماأقبح التفريط في زمن الصبا — فكيف به والشيب في الرأس شائل

ترحل من الدنيا بزاد من التقى — فعمرك أيام وهن قلائل

فصل

في قوله (إن الذين يتلون كتاب الله) فاطر : ٢٩

قال مطرف بن عبد الله : هذه آية القراء ، ومعنى يتلون : يقرؤون .

روي عن انس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن لله عز وجل أهلين من الناس ، فقيل : من أهل الله منهم ؟ قال : أهل القرآن ، هم أهل الله وخاصته » .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ حرفاً من كتاب الله عز وجل ، فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

واعلم أن لتلاوة القرآن آداباً ، منها ان يقرأ وهو على وضوء متأدباً مطرقاً مرتلاً ، بتحزين وبكاء معظماً للكلام والمتكلم به ، محضراً لقلبه ، متدبراً لما يتلوه ، فقد كان في السلف من يختم كل ليلة ، وكان عثمان رضي الله عنه يختم في الوتر ، ومنهم من

كان يختم ختمتين ،ومنهم من كان يختم ثلاث ختمات ، وهؤلاء الذين غلب عليهم انتهاب العمر ، ومنهم من كان يختم في كل اسبوع ، اشتغالاً بنشر العلم ، ومنهم من كان يختم في كل شهر اقبالاً على التدبر .

وقد روى ابو ذر رضي الله عنه ،عن النبي ﷺ أنه قام ليلة بآية يرددها (ان تعذبهم فإنهم عبادك) المائدة: ١١٨. وقام تميم الداري بآية (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) الجاثية: ٢١.

وقال ابوسليمان القاري : إني لأقيم في الآية اربع ليال أوخمس .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : من ختم القرآن فله دعوة مستجابة .

وقال عبد الرحمن بن الاسود من ختم القرآن نهاراً غفر له ذلك اليوم ، ومن ختمه ليلاً غفر له تلك الليلة .

وعن طلحة بن مصرف قال : من ختم القرآن في أي ساعة من النهار كانت ، صلت عليه الملائكة حتى يمسي أو أي ساعة من الليل كانت ،صلت عليه الملائكة حتى يصبح .

وقال الإمام احمد : رأيت رب العزة في المنام ، فقلت : يارب ماأفضل ماتقرب به المتقربون اليك ؟ فقال بكلامي ياأحمد ، فقلت يارب بفهم أو بغير فهم ؟ فقال : بفهم وبغير فهم .

قال بن مسعود رضي الله عنه ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون وبنهاره اذ الناس مفطرون ، وبحزنه اذ الناس يفرحون ، وببكائه إذ الناس يضحكون وبصمته اذ الناس يخوضون .

قوله تعالى (وأقاموا الصلاة) الرعد: ٢٢. المعنى : ويقيمون الصلاة ،وهو إدامتها بحدودها في مواقيتها . (وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية) كانوا إذا قدروا على السر لم يخرجوا الصدقة علانية ، لأن صدقة السر تزيد على العلانية بسبعين ضعفاً (يرجون تجارة لن تبور) أي لن تفسد ولن تكسد . يامقصراً في أعماله ، بخيلا بماله ، لاتسألون عن حاله يوم ترحاله ياداثم الخسران فمايربح ، يامقيماً على المعاصي مايبرح ، متى رأيت من فعل فعلك أفلح؟ تقبل على العدو ولا تقبل ممن ينصح ! قم على قدم الطلب فاقرع الباب بالأدب يفتح ، صاحب أهل الخير تكن منهم ، واستفد خصالهم وخذ عنهم .

لما سمعوا مضاعفة الاجر في قوله تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) البقرة : ٢٦١. ثم سمعوا قوله تعالى (فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) قال ابن عباس رضي الله عنهما : لاينقضي عددها . وسمعوا لفظ القرض في ذمة الكرم ، بادروا بالأموال .

روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزل قوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) البقرة : ٢٤٦.

قال أبو الدحداح يعني لرسول الله ﷺ : وإن الله ليريـد منا القرض ؟ قال نعم قال : أرني يدك يارسول الله . قال : فناوله يده ، فقال : اني قد أقرضت ربي حائطي ، قال وحائطه فيه ستمائة نخلة . وأم الدحداح فيه وعيالها ، فجاء أبو الدحداح فنادى ياأم الدحداح قالت : لبيك . قال : اخرجي من الحائط ، فقد أقرضته ربي عز وجل .

سبحان من خلق تلك النفوس واختارها ، وصفاها بالتقى ورفع أكدارها ، وجعل حمى معرفته وحبه دارها ، فإذا مرت على النار أطفأ نورها نارها ، قوم تيقظوا في أمورهم وعقلوا ، وحاسبوا أنفسهم فما أضاعوا ولا غفلوا ، وحاربوا جنود الهوى فأسروا وقتلوا ، وتدبروا منازل المتقين ونزلوا (فألئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) سبأ : ٢٦ .

هم الرجال وغبن ان يقال لمن لم يتصف بمعالي وصفهم رجل

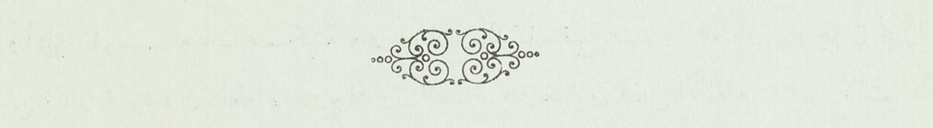
كانوا يقومون الديجور ببكاء مطرود مهجور ، ورعد قلوبهم مقلق زجور ، فامتلأت بالخيرات الحجور (يرجون تجارة لن تبور) فاطر : ٢٩ . رفضوا الدنيا شغلا عن الزينة ، وأذلوا نفوسهم فعادت مسكينة ، وعلموا أن الدنيا سفينة فتهيؤوا للعبور ، يرجون تجارة لن تبور ، يوثرون بالطعام ، ويواصلون الصيام ، ويعملون فضل الأنعام ، فما كانت إلا أيام حتى أحضرت البدور ، يرجون تجاره لن تبور . العليل عليل ، والانين طويل ، والعيون تسيل ، ومامضى الا القليل ، حتى فرح الصبور ، يرجون تجارة لن تبور .

سليمهم كالسليم ، وحزينهم سقيم ، يحذرون الجحيم ، ويرجون النعيم ، في كمال الحور ، يرجون تجارة لن تبور . سبحان من قضى لقوم سروراً ، وعلى آخرين ثبورا (وكان أمر الله قدراً مقدور) الأحزاب : ٣٨ . (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) التوبة : ٤٠ .

اللهم وفقنا توفيقا يوقفنا عن معاصيك ، وارشدنا برشدك الى السعي الى مايرضيك وأجرنا يامولانا من خزيك وعذابك ، وهب لنا ماوهبته لأوليائك وأحبابك .

اللهم نحن عبيدك الخاضعون لهيبتك ، المتذللون لعزك وعظمتك ، الراجون لجميل رحمتك ، امرتنا ففرطنا ولم تقطع عنا نعمك ، ونهيتنا فعصيناك ، ولم تحرمنا كرمك ظلمنا أنفسنا وتجرأنا عليك فلم تقطعنا مع غناك عنا وفقرنا اليك .

اللهم ردنا اليك بفضلك ورحمتك ، ووفقنا للاقبال عليك ، والاشتغال بخدمتك واغفر لنا ولوالدينا ، ولجميع المسلمين ، برحمتك ياارحم الراحمين .



المجلس السابع والاربعون

في الأخوة والصداقة

الحمد لله الذي لطف بالبرايا إذ برأهم وبر ، وروح أرواح أهل الصلاح براح الفلاح وسر ، واطلع على ضمير من نوى وعزم من أسر ، وقدر الاشياء كلها فقضى الخير وقضى الشر ، وأمات وأحيا ، وأفقر وأغنى ، ونفع وضر ، لطفه عظيم ، وجوده عميم ، قد استمر ، رب أشعث أغبر لو أقسم عليه لأبر ، سميع يسمع أنين المدنف المضطر ، بصير يرى في دجى الليل الذر ، عليم بانكسار من ندم وإصرار من أصر ، حليم فإن سطا رأيت الأمر الأمر ، يمد رواق الظلام ، فإذا لاح الصباح فر ، وينير النهار فإذا انقضى عاد الليل و كر ، فالقمر آية الليل ، والشمس تجري لمستقر ، أحمده على إنعامه الذي كلما احتلب در ، وأقر بوحدانيته عن دليل قد استقر ، وأصلي على رسوله محمد الذي عمت رسالته البحر والبر ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر المنفق حتى تخلل بالعباءة وزر ، وعلى عمر الزاهد فما غره ماغر ، وعلى عثمان الذي ارتفع بالكرم فبر وأبر ، وعلى علي الذي ما أقدم قط ففر ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين ثبت لهم الفخر واستمر ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل : (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم) الانفال : ٦٣ أيدك : بمعنى قواك . والمراد بالآية : الأوس والخزرج . وهم الأنصار ، وكان بينهم عداوة في الجاهلية ، فألف الله عز وجل بينهم ، وهذا من أعجب الآيات ، لانهم كانوا ذوي أنفة شديدة ، فلو أن رجلاً لطم رجلاً لقاتلت عليه قبيلة ، حتى تدرك ثاره ، فآل بهم الإسلام إلى إلى أن يقتل الرجل ابنه وأباه في طاعة الله عز وجل .

وقد روى أبو الأحوص عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى : (لو أنفقت مافي الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم) قال : هم المتحابون في الله .

واعلم أن المعنى الجامع بين المسلمين الإسلام . فقد اكتسبوا به أخوة أصلية ، ووجب عليهم بذلك حقوق لبعضهم على بعض .

وفي « الصحيحين » من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذ اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وفيهما من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وفيهما من حديث أبي هريرة . رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « حق المسلم على المسلم خمس . يسلم عليه إذا لقيه ، ويشمته إذا عطس ، ويعوده إذا مرض ، ويشهد جنازته إذا مات ، ويجيبه إذا دعاه » .

وإذا ثبتت هذه الحقوق للاشتراك في الإسلام ، فكلما زادت المخالطة وصفاً زادت الحقوق مثل القرابة ، والمجاورة ، والضيافة ، والصحبة والصداقة ، والأخوه الخاصة في الله عزوجل . فأما حق القرابة فمعلوم وجوب بر الوالدين ، وتقديم الأم في البر ، ووجوب صلة الرحم .

وفي « الصحيحين » من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من أحب أن يوسع الله عليه في رزقه وينسىء له في أثره ، فليصل رحمه » . وأما حق الجار : ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وأما حق الضيف ففي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

وأما حق الصحبة ، فقال مجاهد : صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان

يخدمني اكثر . وأما الصداقة ، فإنهـــا تطلق على مادون الأخوة ، فالأخوة هي المرتبة العليا ، وهي التي عقدها رسول الله ﷺ بين أصحابه ، وقد علم أن الأخوة العامة في قوله تعالى : (إنما المؤمنين إخوة) الحجرات : ١١ واقعة قبل عقده ، غير أنه أراد الأمر الخاص . وهذه الأخوة هي التي توجب المحبة في الله عز وجل ، وهي أوثق عرى الايمان ، كما روى البراء ابن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أوثق عرى الإيمـان أن تحب في الله وتبغض فى الله » .

ومن جملة ثواب المتحابين ، ماروي في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله » فذكر منهم رجلين تحابا في الله عز وجل ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن لله عز وجل عباداً على منابر من نور في ظل العرش يغبطهم الشهداء ، قيل : من هم ؟ قال : المتحابون في جلال الله عز وجل » .

واعلم أن هذا الثواب في هذه المحبة إنما يكون إذا كانت لله عز وجل خالصة لايشوبها شيء من الكدر . ومتى قويت محبة الله سبحانه وتعالى ، في القلب قويت محبـــة أوليائه والصالحين من عبـاده ، فلينظر الإنسان من يؤاخي ومن يحب ، وقـد قال عليه الصلاة والسلام : « يحشر المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » .

وفي « الصحيحين » من حديث ابن مسعود رضي الله عنـه عن النبي ﷺ أنه قال : « المرء مع من أحب فإذا أحب شخصاً فليعلمه » .

وقال أبو زرعة : ما تحابّ رجلان في الله عز وجل إلا كان أفضلهما ، أشدهما حباً لصاحبه ، فإذا صفت المحبة وخلصت ، وقع الشوق والـتزوار ، وصار بذل المـال أحقر الأشياء . أما التزوار فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يذكر الأخ من إخوانه في بعض الليل فيقول : يا طولها من ليلة ، فإذا صلى المكتوبة غدا إليه فاعتنقه .

وقال مجاهد : إذا مشى أحد المتحابين إلى الآخر ، فأخذ بيده فضحك إليـــه ، تحاتّت خطاياهما كما يتحاتُّ ورق البحر .

وعن معروف الكرخي رحمه الله تعالى أنه قال : امش ميلاً صِلْ جماعة ، امش ميلين صلّ جمعة ، امش ثلاثة أميال عد مريضاً ، امش أربعة أميال شيّع جنازة ، إمش خمسة أميال شيّع حاجاً او معتمراً ، امش ستة أميال شيع غازياً في سبيل الله ، امش سبعة أميال بصدقة من حلٍّ إلى رجل ، امش ثمانية أميال أصلح بين الناس ، امش تسعة أميال صل رحماً وقرابة ، امش عشرة أميال في حاجة عيالك ، امش أحد عشر ميلاً في معونة أخيك ، امش بريداً ـ والبريد اثنا عشر ميلاً ـ زر أخاً في الله عز وجل .

وأما بذل المال فله ثلاث مرات . أدونها : المساهمة في المال . وأوسطها : المواساة . وأعلاها : تقديم الأخ في المال على النفس .

قال ابن عمر رضي الله عنهما : لقد رأيتنا وما أحدنا بأحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم . وقد كان بعضهم يتلطف في ايصال البرّ الى اخوانه ، فيأتي بالصرة فيها الأربعمئة والخمسمئة ، فيودعها أحدهم ثم يلقاه بعد فيقول : انتفعوا بها فهي لكم . وكان الأخ في الله يخلف أخاه في أهله إذا مات أربعين سنة .

وجاء رجل من السلف الى بيت صديق له ، فخرج إليه فقال : ما جاء بك ؟ قال : عليّ أربعمائة درهم ، فدخل الدار فوزنها ثم خرج بها ، فأعطاه إياها ، ثم عاد الى الدار باكياً ، فقالت له زوجته : هلا تعللت عليه ، إذا كان إعطاؤه يشقّ عليك . فقال : إنما أبكي لأني لم اتفقد حاله ، فاحتاج أن يقول لي ذلك. وجاء فتح الموصلي الى منزل لصديق له يقال له : عيسى التمار ، فلم يجده في المنزل ، فقال للخادمة : أخرجي لي كيس أخي ، فأخرجته ففتحته ، فأخذ منه درهمين . وجاء عيسى ، فأخبرته الخادمة فقال : ان كنت صادقة فأنت حرة . فنظر فإذا هي صادقة فعتقت .

واعلم أنه اذا علت مرتبة الأخوة ، وقع فداء الأخ بالنفس .

خرج ابراهيم بن أدهم في سفر ومعه ثلاث نفر ، فدخلوا مسجداً في بعض المفاوز والبرد شديد ، وليس للمسجد باب ، فلما ناموا ، قام ابراهيم فوقف على الباب الى الصباح فقيل له : لِمَ لَمْ تنم ؟ فقال : خشيت أن يصيبكم البرد ، فقمت مقام الباب .

وروي أن أبا بكر الغوطي وأبا عمرو بن الآدمي ، وكانا متآخيين في الله تعالى ، خرجا من بغداد يريدان الكوفة ، فلما صارا في بعض الطريق ، إذهما بسبعين رابضين على الطريق ، فقال أبو بكر لأبي عمرو : أنا أكبر منك سناً ، فدعني أتقدمك ، فإن كان حادثة ، اشتغلا بي وجزت أنت ، فقال له أبو عمرو : نفسي ما تسامحني بهذا ، ولكن نكون جميعاً في مكان واحد ،فإن كان حادثة كنا جميعاً ، فجازا بين السبعين فلم يتحركا ومرا سالمين .

إخواني : نُسخ في هذا الزمان رسمُ الاخوّة وحكمه ، فلم يبق إلا الحديث عن القدماء ، فإن سمعت بإخوان صدقٍ فلا تصدق .

كان السلف يتعاشرون بنزع الغل على مُناصحة النفوس ، فصارت عِشْرة العشيرة على موافقة الهوى .

كانوا يميلون على الدنيا بالذم ، فصار الميل إليها بالقلب .تمالؤوا على حبها ومالوا، فإذا فوّت عن صديقهم أعرضوا عنه ومالوا ، فافتح بصرَ البصيرة ، فعلى هذا تراهم ، ثم ألتفت عنهم وإياك وإياهم .

قال أبو جعفر الباقر لأصحابه : هل يدخل أحدكم يده في كم صاحبه فيأخذ منه ما يريد ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم بإخوان . هيهات جل الاخوان وبقي الخوّان ،وقلّ أن ترى في الزمان إلا من إذا ادعى مان .

هل تحسَّان لي رفيقاً رفيقا	أو تصيبان لي صديقاً صدوقاً
قد فشى الغدر والخيانة في النا	س فما إن أرى رفيقاً شفيقا

لقد طال عن الصواب تجافيك ، وصعب على الرائض تلافيك ، ما تعرف عدوك من مصافيك ، فسبحان من جمع هذه الخلال فيك ، سترى والله عملك كما سطره الملك ، وتعلم أن الهوى الذي ختلك قتلك ، ويحك ما الذي حملك على أن أفسدت بالنفاق عملك؟ يا هذا ، رفيقك أين سلك ؟ أما تعلم أنه هلك ، يا هذا أما هذه الملامة لك ؟

قد تعاطاك سبات وتغشاك مشيب

فأتى ماليس يمضي ومضى مالا يؤوب

فتأهب لسقام ليس يشفيه طبيب

لا توهمه بعيداً إنما الآني قريب

فصل

في قوله تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين)الزخرف:٦٧.

الاخلاء : الأصدقاء في الدنيا . يومئذ،أي: يوم القيامة . بعضهم لبعض عدو :لأن الخلّة إذا كانت في المعصية ، صارت عداوة يوم القيامة . إلا المتقين ، فإنهم ينتفعون بالخلة في الدنيا والآخرة .

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : كن يقظاناً ، وارتد لنفسك أخداناً ،وكل خدن لا يوافقك على مسرتي فلا تصحبه ، فإنه لك عدو .

ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال :

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه

فكم من جاهل أردى حليماً حين واخاه

يقاس المرء بالمرء إذا ما هو ما شاه

وللشيء على الشيء مقاييس واشباه

وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

قوله تعالى : (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون)الزخرف:٦٨

إذا اشتد الخوف على جميع الخلائق يوم القيامة ، نودوا بهذه الآية ، فيرفع الناس رؤوسهم ، فيقول : الذين آمنوا وكانوا مسلمين ، فينكس الكفار رؤوسهم (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون)الزخرف:٧٠. فيه أربعة أقوال .

أحدها : تكرمون . والثاني : تنعمون . والثالث : تفرحون . والرابع : أنه السماع في الجنة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، فيتحدثون في ظلها ، فيشتهي بعضهم لهو الدنيا ، فيرسل الله عز وجل ريحاً ، فتتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا (يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب) الزخرف:٧١.
قال الزجاج : واحد الصحاف : صحفة ، وهي القصعة . والأكواب: جمع كوب، وهو إناء مستدير ، لا عروة له . وقيل : الأكواب : الأباريق التي لا عرى لها .

روى ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه ، فيخرّ بين يديك مشوياً » .

وقال بكر بن عبد الله المزني : إن العبد يشتهي اللحم في الجنة ، فيجيء طائره ، فيقع بين يديه ، فيقول : ياولي الله ، أكلت من الزنجبيل ، وشربت من السلسبيل ، ورتعت بين العرش والكرسي ، فكُلْني .

وعن مقاتل بن حيان قال: إن أهل الجنة إذا دعوا بالطعام ، قالوا :سبحانك اللهم، فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم ، مع كل واحد منهم صحفة من ذهب ، فيها طعام ليس في الأخرى ، فيأكل منهن كلهن .

وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لشجرة يقال لها : طوبى . لو سخر الراكب الجواد أن يسير في ظلها لسار فيه مائة عام من قبل أن يقطعها ، ورقها وقشورها برود خضر ، وزهرها رياط صفر ، وثمرها حلل حمر . وصمغها زنجبيلٌ وعسلٌ ، وبطحاؤها ياقوت أحمر ، وزمرد أخضر ، وترابها مسك وعنبر ، وحشيشها زعفران ، يتفجر من أصلها أنهار السلسبيل ، والمعين والرحيق ،وظلها مجلس من مجالس أهل الجنة، يألفونه ، ومتحدث يجمعهم، فبينما هم يوماً في ظلها يتحدثون إذ جاءتهم الملائكة يقودون نجباً خلقت من الياقوت ، ثم نفخ فيها الروح ، مزمومة بسلاسل من ذهب ، كأن وجوهها المصابيح نضارة وحسناً ، لم ينظر الناظرون إلى مثلها

حسناً وبهاء ، عليها رحال من الدر والياقوت ، مفصصة بالدر والمرجان ، ملبسة بالعبقري والأرجوان ، وأناخوا تلك النجائب ، ثم قالوا لهم : إن ربكم يقرئكم السلام ، ويستزيدكم لتنظروا إليه ، وينظر إليكم ، ويكلمكم وتكلمونه ، ويزيدكم من فضله ، فيترحل كل رجل منهم على راحلته ، فانطلقوا بهم صفاً واحداً ، لا تفوت أذن ناقة أذن صاحبها ، ولا يمرون بشجرة من أشجار الجنة إلا أتحفتهم بثمرها ، ورحلت عن طريقهم ، كراهة أن ينثلم صفّهم ، ويفرق بين الرجل ورفيقه .

وتجلّى لهم الجبار يحييهم بالسلام ، وقال : مرحباً بعبادى الذين حفظوا وصيّتي ، ورعوا عهدي وخافوني بالغيب ، فقالوا : وعزتك ، ما أدينا حقك فائذن لنا بالسجود لك ، فقال : إني وضعت عنكم مؤنة العبادة ، وأرحت لكم أبدانكم ، وطالما نصبتم لي الأبدان ، فالآن أفضيتم الى روحي ، ورحمتي وكرامتي ، فسلوني ما شئتم ، وتمنوا علي أعطكم أمانيّكم ، لن أجزيكم بقدر أعمالكم ، ولكن بقدر رحمتي وطولي وجلالي ، وعظمة شأني ، فما يزالون في الأماني والعطايا والمواهب ، حتى إن المقصر منهم في أمنيته يتمنى مثل جميع الدنيا منذ خلقها الله تعالى الى يوم أفناها .

فقال لهم ربهم تعالى : لقد قصرتم في أمانيكم ورضيتم دون ما يحق لكم ، فقد أوجبت لكم ماسألتم وتمنيتم ، وزدتكم ما قصرت عنه أمانيكم ، فانظروا الى ماوهب لكم ربكم ، فإذا غرف مبنية من الدر والمرجان ، أبوابها من ذهب ، وسررها من ياقوت وفرشها من سندس واستبرق ، ومنابرها من نور ، يفور من ترابها وعراصها نور ، فلما انتهوا الى منازلهم ، وجدوا الملائكة يهنئونهم بكرامة ربهم ، فلما دخلوا قصورهم ، وجدوا ما سألوا وتمنوه ، فقال لهم ربهم : (فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً) الاعراف : ٤٤ . قالوا : نعم ، قال : أرضيتم ثواب ربكم ؟ قالوا : نعم ، رضينا فارض عنا . قال : برضائي عنكم حللتم داري ، ونظرتم الى وجهي ، وصافحتكم ملائكتي ، وهنيئاً هنيئاً لكم عطاء غير مجدود . فعند ذلك قالوا (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله ، لايمسنا فيها نصب ، ولا يمسنا فيها لغوب) فاطر : ٣٤-٣٥ .

يامتشبطاً عن طلب هذه الدار ، يامن علم خشونة المنزل فما دار ، اين البذر في زمن الاقتدار ؟ ويحك اغتنم نعمة المهلة ، وانتبه من رقدة الغفلة ، لاترض أرض الرذائل ، واسم إلى سماء الفضائل .

شمر فقد صيح بالرحيـل — وابك على الذنب بالعويل

بادر مدى عمرك القليـل — فالموت يأتيك عن قليـل

كم من عزيز حمى جنـوداً — أصبح في حـالة الذليل

ياليـت شعري وأي يوم — في بكرة منه أو أصيـل

يصيح بي فيـه غير شك — من صاح في القوم بالرحيل

سبحان من أنعم على الأحباب ، سبحان من سخر لهم الأسباب ، سبحان من جعل جزاء الصوم عن الطعام والشراب (يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب) وصـل أولو الألباب إلى الباب ، وقد زالت تلك الأسقام والأوصاب ، وقيل لأيوب البـلاء والمصاب (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) ص : ٤٢ (يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب) .

فتح لهم باب الرضى فدخلوا ، ومهدت لهم المساكن فنزلوا ، فيافوزهم والله لقد وصلوا إلى مالم يكن لهم في حساب (يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب) .

لايصف الواصفون ما أعطاهم ، ولا يقدر الخلائق قدر ما أولاهم ، وأعظم العطايا أن تجلى لهم مولاهم ، وارتفع الحجاب (يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب) .

قد نصحناك ياهذا وأطلنا ، وأخبرناك العواقب وقلنا ، ونراك كلما دخلنا بك من باب خرجت من باب .

اللهم أنت أعلم بنا منا ، فبكمال جودك تجاوز عنا ، ووفقنا لما يرضيك عنا وأعنا ، وارزقنا قبل الممات حسن المتاب .

اللهم حسن إيماننا بالتوفيق ، وزين سرائرنا بالتحقيق ، واحمنا من المخالفة والعصيان

واكفنا آفات الأعراض والنسيان ، كما حميتنـــا بكرمك من دواعي الكفر الموبقة ، ونفحات البدع المحرقة ، تفضل علينا بالقبول والإجابة ، وصدق التوبة وحسن الإنابة ، واجعلنا ممن رجع إليك فاكرمت له المآب .

اللهم قد اعترفت نفوسنا بالإساءة وانقطاع الحيل ، ووثقت قلوبنا بحبل الرجـــاء وحسن الأمل ، فاجعلنا بطاعتك عاملين ، وعلى ما يرضيـــك مقبلين ، وألبسنا ملابس الصادقين ، ولا تحرمنا بذنوبنا ياأرحم الراحمين ، واغفر لنا ولوالدينـا ولجميع المسلمين . آمـــين .



المجلس الثامن والاربعون

في ذكر العزلة

الحمد لله الواحد القديم الجبار ، القادر العظيم القهار ، المتعالي عى درك الخواطر والأفكار ، المتفرد بالعز والقهر والاقتدار ، الذي وسم كل مخلوق بسمة الافتقار ، وأظهر آثار قدرته بتصريف الليل والنهار ، سميع بصير بسمع لا كالأسماع ، وببصر لا كالأبصار . قادر مدبر حكيم عليم بالأسرار ، يبصر دبيب النمل السوداء في الليلة الظلماء على الغار ، ويسمع أنين المدنف يشكو مابه من أضرار ، كلم موسى كفاحاً لما قضى الأجل وسار ، ورآه نبينا كما دل على ذلك القرآن والأخبار ، ويراه المؤمنون إذا نزلوا دار القرار ،صفاته كذاته والمشبهة كفار ، نقر ونمر وأرباب البحث في خسار (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أَسس بنيانه على شفا جرف هار)التوبة:١٠٩.

أحمده في الإعلان والإسرار ، وأشهد بوحدانيته بأصح إقرار ، وأصلي على رسوله محمد سيد الأنبياء الأطهار ، صلى الله عليه وعلى أبي بكر رفيقه في الغار ، وعلى عمر قامع الكفار ، وعلى عثمان شهيد الدار ، وعلى علي القائم بالاسحار ، وعلى سائر آله وأصحابه خصوصاً المهاجرين والأنصار ، وسلم تسليماً .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قيل : يارسول الله أي الناس خير ؟ قال : «رجل يجاهد بنفسه وماله ،ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ،ويدع الناس من شره » أخرجاه في « الصحيحين » . وعن عقبة بن عامر قال : قلت : يارسول الله ، ما النجاة ؟ قال : « أملك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك » . وقد كان السلف الصالح يؤثرون العزلة ويمدحونها ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : خذوا بحظكم من العزلة .

وقال سعد بن أبي وقاص : والله لوددت أن بيني وبين الناس باباً من حديد ، ولا يكلمني أحد ، ولا أكلمه ، حتى ألحق بالله عز وجل . وقال ابن مسعود لاصحابه : كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الليل ، حلاس البيوت ، جدد القلوب ، خلقان الثياب ، تعرفون في أهل السماء ، وتخفون على أهل الأرض .

وقال أبو الدرداء : نعم صومعة الرجل بيته ، يكف فيها بصره ولسانه ، وإياكم والسوق ، فإنها تلهي وتلغي .

وقال ابن عباس : لولا مخافة الوسواس ،لرحلت إلى بلاد لا أنيس بها ، وهل يفسد الناس إلا الناس . وقال أبو حذيفة: والله لوددت أن لي إنساناً يكون في مالي ، ثم أغلق عليّ باباً . فلا يدخل عليّ أحد حتى ألحق بالله عز وجل .

وقال سعيد بن المسيب وابن سيرين : العزلة عبادة . وقال عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ، ويهرب من الناس ، فاقتربوا منه ، فإنه يُلقّى الحكمة .

وقال داود الطائي : فر من الناس كما تفر من الاسد . وأوصى سفيان الثوري بعض أصحابه فقال : إن استطعت أن لاتخالط في زمانك هذا أحداً فافعل .

وكان يقول: هذا زمان السكوت ولزوم البيوت . وجاء رجل الى الفضيل فجلس إليه فقال : ما أجلسك الي ؟ فقال رأيتك وحدك فقال: إماأن تقوم عني ، وإما أن أقوم عنك ، فقال : أنا أقوم ، أوصني فقال : أخف مكانك ، واحفظ لسانك .

وقال مالك بن أنس : كان الذين مضوا يحبون العزلة والانفراد من الناس .

وقال بشر : من عامل الله بالصدق ، استوحش من الناس . وقد كان أحمد بن حنبل رحمه الله يحب العزلة، وكذلك إبراهيم بن أدهم ،وسليمان الخواص ،ويوسف بن أسباط ، وحذيفة المرعشي ، وخلق كثير .

واعلم أن العزلة لاينبغي أن تقطع عن العلم والجماعات ، ومجالس الذكر والاحتراف

للعائلة . وإنما ينبغي أن يعتزل الإنسان ما يؤذي ، وقد يخاف من المخالطة المباحـة ، إذاً فيجتهد الإنسان في ترك مايخاف عواقبه .

قال شعيب بن حرب : الناس ثلاثة : رجل تعلمه فيقبل منك ، ورجل تتعلم منه ، واهرب من الثالث . وفصل الخطاب في هذا ، أن الناس على ضربين : عالم وعابد ، فالعالم لاينبغي له أن ينقطع عن نفع الناس ، فإنه خلف الأنبياء ، وليعلم أن هـداية الخلق أفضل من كل عبادة . وفي « الصحيحين » أن النبي ﷺ قال لعليّ رضي الله عنه : « والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » .

فمتى ماجاء الشيطان ، فحسن للعالم الانقطاع عن الخلق في الجملة ، فذاك خديعة منه ، ولقد حسن لخلق من السلف دفن كتبهم ، ومحو علمهم ، وهذا من الخطأ العجيب . بل ينبغي للعالم أن يعتزل عن الشر ومن يؤذي ، ويبرز لمن يستفيد ، وظهوره أفضل من اختفائه . وأما إن كان عابداً ، فالعابد لايناقش في هذا الزمان ، فإن من القوم من شغلته العبادة ، كما روي أن الحسن رأى رجلا متعبداً فأتاه فقال : ياعبد الله ، مايمنعك من مجالسة الناس ؟ قال : ما أشغلني عن الناس ، قال : فما منعك أن تأتي الحسن ؟ قال : ما أشغلني عن الحسن . قال : فما الذي أشغلك ؟ قال : إني أمسي وأصبح بين ذنب ونعمة ، فرأيت أن أشغل نفسي بالاستغفار للذنب والشكر لله على النعمة ، فقال : أنت عندي أفقه من الحسن . ومن القوم من استغرقته محبة الله عز وجل والانس بـه ، فاستوحش من الخلق . قيل لغزوان الزاهد : لو جالست إخوانك ! فقال : إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي .

تعبي راحتي وأُنسي انفرادي ... وشفائي الضنا ونومي سهادي
لست أشكو بعادمن صدّعني ... أيُّ بعدٍ وقد ثوى في فؤادي
هو يختـال بين عيني وقلـبي ... وهو ذاك الذي بدا في السواد

فهؤلاء عزلتهم أصلح لهم ، بل لا ينبغي أن تشغلهم العزلة عن الجماعات ومجالسة العلماء ، فإن فعلوا كان ذلك من الشيطان ، وإنما تؤمر العوام باعتزال الشر فحسب ، فإنه الجهاد في حقهم .

واعلم أن السمع يوصل إلى القلب خبر المسموعات ، والبصر خبر المنظورات ، ورب نظرة نقشت في القلب صورة فقعد نحوها ، فإن الإنسان ليمشي في السوق فيبقى قلبه ، والعزلة توجب السلامة من ذلك .

وقد كان في الصالحين من إذا خرج إلى السوق فكسب مايكفيه ، قام إلى المسجد.

فالبدار البدار إلى حفظ القلوب بالعزلة عن كل ما يؤذي .

إني نظرت إلى الزما ن وأهله نظراً كفاني

فعرفته وعرفتهم وعرفت عزي من هواني

فحملت نفسي بالقنا عة عنهم وعن الزمان

وتركتها بعفافها والزهد في أعلى مكاني

فلذاك أحببت الصديق فلا أراه ولا يراني

يا مريضاً ما يعرف أوجاعه ، يا مضيع العمر بالساعة والساعة ، يا كثير الغفلة وقد دنت الساعة ، ياناسياً ذكر النار إنها لنزّاعة ، كأنه وملك الموت قد أزعجه وراءه ، وصاح بالنفس صيحة فقالت سمعاً وطاعة ، ونهضت تعرض كاسد التوبة ، وهيهات غلق الباعة .

يا من قد مال بالآمال إلى جمع المال ، كأنك به إلى غرم قدمال ، واعجباً بالحرص يجمعونه وبالأمل يحفظونه ، وبالغفلة يأكلونه ، وفي الهوى يصرفونه ، أين من لبس الحرير والقز ؟ وحرك الجواد تحته وهزّ ، وتعاظم على أبناء جنسه وعزّ ، وقهر وغلب ، وسلب وبز ، ذبحه سيف المنون ، وما قطع ولا حز ، فتسلب الحبيب بعد فراقه وجز.

هذي منازلهم وقد رحلوا وعلى الكراهة غيرها نزلوا

رحلوا وأبقوها لغيرهم إن المنازل والغنى دوَلُ

شادوا مبانيها وماسكنوا إلا نزول الضيف وانتقلوا

وتفرّقت عنهم أقاربهم وجنودهم وخلوا بما عملوا

يا آمل الدنيا وقد عصفت بالناس قبلك خانك الأمل

أتروم جهلاً أن تقيم بها وو راءك الأيام والأجل

يا هذا ، إذا أسلمك الاتراب ، تسلمك التراب . كيف يفرح بحياته من يعلم أنها مطيّة حياته ؟

يا من هجم الشيطان عليه ، وهو في بادية المخالفة فسباه ، فباعه فاشتراه الهوى بثمن بخس ، تالله لو كنت في حصن التقى ماقدر عليك ، ياسيء النظر لنفسه ، في شمس فهمك غيم ، بين دائك ودوائك حجاب ، لو أهمتك نفسك سعيت لها في الخلاص ، لو رضيت بالبلغة ما استوهن قلبك كسب الحطام ، إلى كم يستخدمك الهوى ، وأنت حر تعرض لجواد المجاهدين ، لعل بعضهن يستصحبك ، أما بلغك لطف ، هل من سائل ؟ أما سمعت عفو ، هل من تائب ؟ لا تيأس فباب الرجاء مفتوح ، لا تلق بيدك فعلم القبول يلوح .

عسى وعسى من بعد وقت التفرق على كل مانرجوا من الخير نلتقي
ولو ظفرت عيني برؤياك ساعة لكنت على عيني من العين أتقي

فصل

في قوله تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) السجدة : ١٦ . تتجافى ، أي : ترتفع . والاية في قيام الليل . وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) : قال : قيام العبد من الليل . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يضحك الله إليهم رجل يقوم من الليل ، والقوم قد صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال » .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وهو قربة إلى ربكم ، ومغفرة للسيئات ، ومنهاة عن الاثم » .

واعلم أن السلف كانوا في قيام الليل على سبع طبقات .

الطبقة الاولى : كانوا يحيون كل الليل ، ومنهم من كان يصلي الصبح بوضوء العشاء وكان ابن عمر يحيي الليل . ومن القوم سعيد بن المسيب ، وصفوان بن سليم المدنيان ، وفضيل بن عياض ، وهشيم بن الورد المكيان ، وطاووس ووهب بن منبه اليمانيان ، والربيع بن خثيم والحكم الكوفيان ، وأبو سليمان الداراني وعلي بن بكار الشاميان ، وأبو عبد الله الخواص ، وأبو عاصم العباديان ، ومنصور بن زاذان ، وهشيم الواسطيان ، وحبيب أبو محمد وأبو حازم السلماني الفارسيان ، ومالك بن دينار ، ويزيد الرقاشي البصريان .

الطبقة الثانية : كانوا يقومون شطر الليل . منهم عبد الله بن عباس . قال ابن أبي مليكة : صحبته وكان يقوم شطر الليل ، يكثر والله في ذلك التسبيح .

الطبقة الثالثة : كانوا يقومون ثلث الليل . وفي « الصحيحين » من حديث عبد الله ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله عز وجل ، صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه ، وينام سدسه » .

الطبقة الرابعة : كانوا يقومون سدس الليل أو خمسه .

الطبقة الخامسة : كانوا لايراعون التقدير ، وإنما كان أحدهم يقوم إلى أن يغلبه النوم فينام ، فإذا انتبه قام .

الطبقة السادسة : قوم كانوا يصلون من الليل أربع ركعات أو ركعتين . وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته ، فصليا جميعاً ركعتين ، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

الطبقة السابعة : قوم يحيون ما بين العشاءين ، ويصلون في السحر ، فيجمعون بين الطرفين . ومن أراد قيام الليل ، فلا يكثر الاكل والشرب ، ولا يتعب أعضاءه في النهار بالكد ، ولا يعمل معصية ، وليستعن بالقيلولة .

ومن آداب الباطن أن يكون القلب سليماً للمسلمين، ولا بد له من خوف مقلق ، وشوق مزعج .

كان شداد بن أوس إذا أوى إلى فراشه ، كأنه حبة على مقلى ، ثم يقول : اللهم إن جهنم لا تدعني أنام . فيقوم إلى مصلاه .

وقالت بنت الربيع بن خثيم : ياأبت ، مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام؟ فقال : يابنية ، إن أباك يخاف البيات .

وقالت أم عمر بن المنكدر : يابني أشتهي أن أراك نائماً ، فقال : ياأماه ، والله إن الليل ليرد عليّ فيهولني ، فينقضي عني وما قضيت منه أربي .

وكان زمعة العابد يقوم فيصلي طويلا ، فإذا كان السحر ، نادى بأعلى صوته : ياأيها الركب المعرسون ، أكل هذا الليل ترقدون ؟ ألا تقومون فترحلون ، فيسمع من ههنا باك ، ومن ههنا داع ، ومن ههنا متوضىء ، فإذا طلع الفجر ، نادى بأعلا صوته : عند الصباح يحمد القوم السرى .

وعن أحمد بن أبي الحواري قال : دخلت على أبي سليمان وهو يبكي ، فقلت له : مايبكيك؟ فقال لي : ياأحمد ، ولم لا أبكي ؟ وإذا جن الليل ، ونامت العيون، وخلى كل حبيب بحبيبه ، وافترش أهل المحبة أقدامهم ،وجرت دموعهم على خدودهم ، وقطرت في محاريبهم ، أشرف الجليل سبحانه وتعالى ، فنادى جبريل : بعيني من تلذذ بكلامي ، فلم لاتنادي فيهم ، ماهذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيباً يعذب أحبابه ؟ أم كيف يجمل بي أن أعذب قوماً إذا أجنهم الليل تملقوا لي بي ؟ حلفت إذا وردوا عليّ يوم القيامة ، لأكشفن لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا اليّ ، وأنظر اليهم .

وقال أحمد بن أبي الحواري أيضاً : سمعت أبا سليمان يقول : بينا أنا ساجد ، ذهب بي النوم ، فإذا أنا بحوراء قد ركضتني برجلها وقالت : حبيبي ، أترقد والملك يقظان ينظر إلى المتهجدين في تهجدهم ؟ بؤساً لعين آثرت لذة نومة على لذة مناجاة العزيز ، فقم

فقد دنا الفراق ، ولقي المحبون بعضهم بعضاً ، فما هذا الرقاد ؟ حبيبي وقرة عيني ، أترقد عيناك وأنا أُربى لك في الخدور ؟ فوثبت فزعاً ، وقد عرقت استحياء من توبيخها إياي ، وإن حلاوة منطقها لفي سمعي وقلبي .

وكان أبو بكر رضي الله عنه لقصر أمله ، يوتر أول الليل ، وعمر لتأميل الخدمة يؤخره إلى آخر الليل ، وعثمان يتهجد في آناء الليل ،وعلي يستغفر في أواخر الليل .

قام القوم على أقدام قدم الليل لولا قيام تلك الاقدام .

من كان يؤدي حق هل من سائل ، ياغافلين عما نالوا ، لقد ملتم عن التقى وما مالوا ، قاموا في غفلات الراقدين ،فقوبلوا بجزاء لم يطلع عليه الغير (فلا تعلم نفس ماأخفي لهم من قرة أعين) السجدة : ١٧ .

ما أطيب ليلهم في المناجاة ،ما أقربهم من طريق النجاة ، ما أقل ما تعبوا وماأيسر ما نصبوا ، وما كان إلا القليل حتى نالوا ماطلبوا ، لو ذاق الغافل شراب أنسهم في الظلام ، أو سمع الجاهل صوت حنينهم في القيام ، وقد نصبوا لما انتصبوا له الأقدام ، وترنموا بأشرف الذكر وأحلى الكلام ، وضربوا على شاطىء أنهار الصدق الخيام ، وزموا مطايا الشوق إلى دار السلام ، وسارت جنود حبهم والناس في الغفلة نيام ، وشكوا في الأسحار ما يلقون من وقع الغرام ، ووجدوا من لذة الليل ما لا يخطر على الأوهام .

فإذا أسفر النهار تلقوه بالصيام ، وصابروا الهواجر هجر الشراب والطعام ، وتدرعوا دروع التقى خوفاً من الزلل والآثام ، فنورهم يخجل شمس الضحى ، ويزري بدر التمام ، فلأجلهم تنبت الأرض ومجراهم مجرى الغمام ، وبهم يسامح الخطاؤون ويصفح عن أهل الإجرام ، فإذا نازلهم الموت ، طاب لهم كأس الحمام ، وإذا دفنوا في الأرض فخرت بحفظها تلك العظام .

تتجافى جنوبهم عن لذيذ المضاجع ، كلهم بين خائف مستجير وطامع ، تركوا

لذة الكرى للعيون الهواجع ، واستهلت عيونهم بانصباب المدامع ، فأجيبوا إجابة لم تقع في المسامع .

ليس ما يصنعونه أوليائي بضائع ، تأجروني بطاعتي ، تربحوا في البضائع ، وابذلوا لي نفوسكم ، إنها من ودائعي لو رأيتهم بين ساجد وراكع ، وذليل مخول ومتواضع ، ومنكس الطرف من الخوف خاشع ، فإذا جن الليل حنّ الجازع (تتجافى جنوبهم عن المضاجع).

فنفوسهم بالمحبة علقت ، وقلوبهم بالأشواق قلقت ، وأبدانهم للخدمة خلقت ، يقومون بالليل إذ انطبقت أجفان الهاجع (تتجافى جنوبهم عن المضاجع).

يبادرون بالعمل الآجل ، ، ويجتهدون في سد الخلل ، ويعتذرون من ماضي الزلل ، والدمع لهم شافع (تتجافى جنوبهم عن المضاجع).

سبق والله القوم بكثرة الصلاة والصوم ، واذا أقبل الليل حاربوا النوم ، والحرم في الطوالع (تتجافى جنوبهم عن المضاجع).

كن يا هذا رفيقهم ، ولج وإن شقّ مضيقهم ، واسلك ولو يوماً طريقهم ، فالطريق واسع (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

اهجر بالنهار طيب الطعام ، ودع في الدجى لذيذ المنام ، وقل لأغراض النفس سلام (والله يدعو إلى دار السلام) يونس : ٢٥ . فما يقعد السامع (تتجافى جنوبهم عن المضاجع).

يا من يرجو مقام الصالحين ، وهو مقيم مع الغافلين ، ويأمل منازل المقربين ، وهو ينزل مع المذنبين ، دع هذا الواقع (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

الصدق الصدق فبه تسلم ، الجدّ الجدّ فبه تنعم ، البدار البدار قبل أن تندم ، هذا هو الدواء النافع (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

اللهم يا من فتح بابه للطالبين ، وأظهر غناه للراغبين ، فقال عز من قائل في كتابه

المبين (ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) غافر : ٦٠ .

انظمنا في سلك حزبك المفلحين ، واجعلنا من عبادك المخلصين ، وآمنا من الفزع الاكبر يوم الدين ـ واحشرنا مع الذين أنعمت عليهم من النبيين ، والصديقين والشهداء والصالحين ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، الاحياء منهم والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس التاسع والاربعون

في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

الحمد لله مدبر الليالي والأيام ، ومصرف الشهور والأعوام ، الملك القدوس السلام ، تنزه جلاله عن درك الأفهام ، وتعالى كماله عن احاطة الاوهام ، ليس بجسم فيشبه الاجسام ، ولا متجوف فيحتاج للشراب والطعام ، ارتدى برداء الكبرياء والإعظام ، وأبصر مافي بواطن العروق ودواخل العظام ، وسمع خفيّ القول وألطف الكلام ، لايعزب عن سمعه صريف الأقلام ، ولا يخفى عن بصره دبيب النمل تحت سجف الظلام ، إله رحيم عظيم الإنعام ، ورب قدير شديد الانتقام ، قدر الأمور فأحسن إحكام الاحكام ، وصرف الحكم في فنون النقض والإبرام ، بقدرته هبوب الريح وتسيير الغمام (ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام) . الشورى : ٣٢ .

أحمده حمداً يبقى على الدوام ، وأقر بوحدانيته كافراً بالأصنام ، وأصلي على رسوله محمد شفيع الأنام ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر السابق إلى الإسلام ، وعلى عمر الذي كان إذا رآه الشيطان هام ، وعلى عثمان الذي أنهض جيش العسرة بنفقته وأقام ، وعلى علي البحر الخضم والاسد الضرغام ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين بلغوا بالطاعة نهاية المرام ، وسلم تسليماً .

إعلموا أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل الدين ، فإنه شغل الانبياء ، وقد خلفهم فيه خلفاؤهم ، ولولاه شاع الجهل وبطل العلم ، وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلا للمنكر والساكت عن الإنكار بقوله عليه السلام : « مثل القائم على حدود الله ،

والواقع فيها ، والمداهن فيها ، مثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها ، وأصاب بعضهم أعلاها ، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذاهم ، فقالوا : لو خرقنا في نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً » . أخرجاه في « الصحيحين » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله شراركم على خياركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

وعن عبد الله بن جرير عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال : « ما من قوم فيهم رجل يعمل بالمعاصي وهم أعز منه وأمنع ، فلا يغيرون عليه إلا أصابهم الله بعقاب » .

واعلم أنه قد اضمحل في هذا الزمان الأمر بالمعروف ، حتى صار المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، وهذا من قوله عليه الصلاة والسلام : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ » . وفي حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له أنت ظالم ، فقد تودع منهم » .

وفي حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ : أنه سئل : ما أفضل الجهاد ؟ قال : « كلمة عدل عند سلطان جائر » . وقال الشافعي رحمه الله : أشد الأعمال ثلاثة : الجود من قلة ، والورع في خلوة ، وكلمة حق عند من يرجى ويخاف .

وينبغي للآمر بالمعروف أن يلطف ، فقد قال الله عز وجل : (فقولا له قولاً ليناً) طه : ٤٤ . وقال سليمان التيمي : ما أغضبت أحداً فقبل منك .

مر بالصلت بن أشيم فتى يجر ثوبه ، فهم أصحاب الصلت أن يأخذوه بألسنتهم أخذاً شديداً ، فقال الصلت : دعوني أكفكم أمره ، ثم قال له : يا أخي إن لي إليك حاجة قال : وما هي ؟ قال : أحب أن ترفع إزارك ، قال : نعم ، فرفع إزاره . فقال الصلت لأصحابه : هذا أمثل مما أردتم ، لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم .

واعلم أنه إذا هذب الآمر نفسه أثر قوله : إما في زوال المنكر ، أو في انكسار المذنب ، أو إلقاء الهيبة له في القلوب .

قال فتح بن شحرف : تعلق رجل بامرأة ومعه سكين ، لايدنو منه أحد إلا عقره ، وكان شديد البدن ، فبينما الناس كذلك والمرأة تصيح ، مر بشر بن الحارث ، فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل ، فوقع الرجل إلى الارض ، ومرت المرأة ومر بشر فدنوا من الرجل وهو يرشح عرقاً ، فسألوه ماحالك ؟ قال : ما أدري ، ولكن حاكني شيخ وقال : إن الله عز وجل ناظر إليك وإلى ماتعمل ، فصعقت لقوله ، وهبته هيبة شديدة ، لا أدري من ذلك الرجل . فقالوا له : ذاك بشر بن الحارث . فقال : واسوأتاه ! كيف ينظر إلي بعد اليوم ، وحم من يومه ، ومات يوم السابع .

وينبغي للآمر بالمعروف أن يحذر من فعل مانهى عنه ، وترك ما أمر به ، فقد روى أسامة بن زيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه ، فيقولون : أي فلان ، ماشأنك ؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » . أخرجاه في « الصحيحين » .

يا هذا إنما فضل العقل لنظره في العواقب ، فأما من لا يرى إلا الحاضر ، فطفل . واعجباً تفيق في المجلس بلفظ توبة كما يفيق المجنون ، فيتكلم بكلمة حكمة ، فإذا عادت السوداء ، خلط علتك علة ظريفة يتحير في مثلها المداوي ، تسرع في طلب الدنيا إسراع جواد ، وأنت في طلب الآخرة جبان ، إن لاح ذنب ، وثبت وثوب فهد ، وإن عرضت على طاعة أخذك فالج .

خذ الوقت أخذ اللص واسرقه واختلس   فوائده قبل المنايا الرواتب
ولا تتعلل بالأماني فإنها   عطايا أحاديث النفوس الكواذب
ودونك ورد العمر ما دام صافياً   فخذ وتزود منه قبل الشوائب

قد أعدت لك كأس لا تشبه الكؤوس ، موت يسلب الأرواح ويختلس النفوس ، ورحلة لا تدري بالسعود أو بالنحوس ، إلى لحد ٍ ضيق وعر ٍ ما مهدته الفؤوس ، تحط

فيه ذليلاً وأنت مسحوب منكوس ، ولا يشبه المطامير ولا يجانس الحبوس ، المدر فيه فراش ، والتراب فيه لبوس .

كم محنة يلقى ذلك الملقى المرموس ، ثم ينفخ في الصور فتطير إلى الاكف الطروس ، وتجني ثمار الجزاء يومئذ من قديم الغروس ، وتشتد الشدائد في يوم قمطرير عبوس ، وتذل العتاة الجبابرة المتغطرسون الشوس ، ويتساوى في الخضوع الأتباع والرؤوس ، وتقسم بين الخلائق خلع السعود وملابس النحوس . واعجباً لجمود ذهنك وأنت في الاعراض تنوس ، يا مؤثرا شهوة لحظة تجني له حرب البسوس ، يا من قد غلب الاطباء دواؤه ، أمريض أم ممسوس ؟ تعنى بعلاجك بقراط وتحيرجا لينوس .

سبحان من خلق قلبك من حجارة تعالى القدوس ، واعجباً لعقلك ، العِرض مبذول والعَرض محروس جل همك مع الدنيا ، وحظ الاخرى منحوس .

أنت في دنياك ضيف والتواني منك حيف

مرّ بالقرّ شتاء وأتى بالحرّ صيف

خاسر من نقده حين تقوم السوق زيف

فاغتنم أجراً وذكراً حسناً فالوقت سيف

فصل

في قوله تعالى : (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم) . في هذه النفخة قولان .

أحدهما : أنها الاولى . والثانية : أنها الثانية .

وأما الصور : فروى عبد الله بن عمرو بن العاصي ، أنه سئل النبي ﷺ عن الصور فقال : « هو قرن ينفخ فيه » (فلا أنساب بينهم يومئذ) أي : لا أنساب بينهم يؤمئذ يتفاخرون بها ، لان الانساب لا تنقطع يومئذ ، انما يرفع التواصل والتفاخر بها ، ولا يتساءلون

بالأنساب ، أن يترك بعضهم لبعض حقه أو لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه لاشتغال كل واحد بنفسه . وقيل : لا يسأل بعضهم بعضاً من أي قبيلة أنت .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : يومئذ يؤخذ بيد العبد أو الامة ، فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ، ثم ينادي مناد : هذا فلان ابن فلان ، فمن كان له حق فليأت الى حقه ، فتفرح المرأة أن يثبت لها حق على أبيها وأمها ، ثم قرأ ابن مسعود (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) المؤمنون : ١٠١-١٠٢

قال الفراء : أراد بموازينه : وزنه . عن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك حفظتي ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقول : إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فيقول : أحضروه ، فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة »

وروي أن داود عليه السلام ، سأل ربه أن يريه الميزان ، فأراه إياه ، فقال : يا الهي من يقدر أن يملأ كفته حسنات ؟ فقال : ياداود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة . (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار) المؤمنون : ١٠٣ - ١٠٤

قال عبد الله بن أبي الهذيل : لفحتهم لفحة فما أبقت لحماً على عظم إلا ألقته على أعقابهم . (وهم فيها كالحون) الكالح : الذي تشمرت شفته عن أسنانه .

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : (وهم فيها كالحون) قال : تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته » (ألم تكن آياتي تتلى عليكم) يعني : القرآن (فكنتم بها تكذبون

قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين) المؤمنون : ١٠٥ - ١٠٦ .

فأقر القوم أن ما كتب عليهم من الشقاوة ، منعهم من الهدى . ههنا حارت العقول وانقطعت قوى القلوب ، سبق الشقاء لأبي جهل ، والسعادة لعمر ، قبل خلق الماء والطين.
يا ابن آدم ، أنت بين أخطار أربعة :

الخطر الأول : هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي ، وما تدري في أي الفريقين كنت .

والخطر الثاني : في بطن الأم اكتب رزقه وأجله ، وشقياً أو سعيداً . هذان خطران قد مضيا .

والخطر الثالث : عند الموت ، هل يبشر بالجنة أو بالنار .

والرابع : يوم القيامة (وعرضوا على ربك صفاً) الكهف : ٤٨ . (فريق في الجنة وفريق في السعير) الشورى : ٧ . ولا تدري من أي الفريقين أنت .

إخواني : العمل على الاكتساب لا على سابق القدر ، فاعتبروا بمن غلبت عليه الشقوة ، واسألوا الله خاتمة الخير .

ففي « الصحيحين » من حديث سهل بن سعد ، أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا ، فلما مال رسول الله ﷺ ، ومال الآخر إلى عسكرهم ، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه ، فقالوا : ما اجترأ منا اليوم أحد كما اجترأ فلان ، فقال رسول الله ﷺ : إنه من أهل النار ، فقال رجل من القوم : أنا صاحبه ، فخرج معه فكلما وقف وقف معه ، وكلما أسرع أسرع معه ، فجرح الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه على الارض وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه ، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ يقول : أشهد أنك رسول الله وقص عليه القصة ، فقال رسول الله ﷺ : ان الرجل ليعمل عمل أهل الجنة ، فيما يبدو للناس ، وهو من أهل النار » . وان الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة .

وعن اسماعيل بن أبي حكيم قال : بعثني عمر بن عبد العزيز حين ولي في الفداء ، فبينا أنا أجول في القسطنطينية إذ سمعت صوتاً يقول :

أورقت وغاب عني من يلوم ولكن لم أنم أنا والهموم

كأني من تذكر ما ألاقي إذا ما أظلم الليل البهيم

سليم مل منه أقربوه وودعه المداوي والحميم

قال اسماعيل : فسألته من أنت؟ فقال: أنا الواصبي الذي أخذت ، فعذبت فجزعت ، فدخلت في دينهم . فقلت : إن عمر بن عبد العزيز بعثني في الفداء، وأنت والله أحب من أفديه إليّ إن لم تكن بطنت في الكفر ، وقلت له : أنشدك الله أسلم فقال : أسلم وهذان ابناي ، فقد تزوجت امرأة وهذان ابناها ، فإذا دخلت إلى المدينة ، قال أحدهم : يانصراني ، وقيل لولدي وأمهم كذلك ، لا والله لا أفعل ، فقلت قد كنت قارئاً للقرآن ، فما بقي معك من القرآن ؟ فقال : لاشيء إلا هذه الآية ، (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) الحجر : ٢ .

وعن منصور بن خلف قال : كان رجلان قد اصطحبا في الإرادة مدة ثم سافر أحدهما فخرج الآخر في الغزاة ، ووقف في الصف يقاتل ، وإذا برجل قد خرج من الروم فاستدعى البراز ، فخرج إليه مسلم فقتله ، فخرج آخر فقتله ، فخرج هذا الرجل إليه ، فتطاردا فحسر الرومي عن وجهه ، وإذا به رفيقه الذي كان يصاحبه ، فقال له : ما الخبر؟ فقال : اني خالطت هؤلاء القوم ، ودخلت في دينهم ، ولي منهم أولاد ، وقد اجتمع معي مال ، فقال له بعد قراءة القرآن فعلت هذا ! قال : ما أحفظ منه جزءاً قال : ارجع ولا تفعل ، قال : ما أفعل ، فلي منهم جاه ومال ، فانصرف أنت وإلا قتلتك كما قتلت أصحابك ، فقال له : قد قتلت ثلاثة من المسلمين ! ولا عامر عليك إن انصرفت ، فانصرف ودعني أقاتل غيرك ، فرجع الرومي مولياً ، فتبعه المسلم فطعنه ، وهو على النصرانية .

قوله تعالى : (ربنا أخرجنا منها) أي : من النار ، (فإن عدنا) إلى المعاصي والكفر (فانا ظالمون) (قال اخسئوا فيها ولا تكلمون) المؤمنون : ١٠٧ - ١٠٨ .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدل عندهم ماهم فيه من العذاب ، فيستغيثون بالطعام ، فيغاثون بالضريع ، (لايسمن ولا يغني من جوع) الغاشية : ٧ . فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة ، فيذكرون أنهم يجيزون الغصص بالشراب ، فيستغيثون بالشراب ، فيغاثون بالحميم ، ينالونه بكلاليب من حديد ، فإذا دنا منهم شوى وجوههم ، وإذا دخل في بطونهم ، قطع ما في بطونهم فيطلبون الى خزنة جهنم : أن (ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب) فيجيبونهم. ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا : بلى ، قالوا : فادعوا (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) الرعد : ١٤ . فيقولون : سلوا مالكاً ، فيقولون (يا مالك ليقض علينا ربك) الزخرف : ٧٧ فيقول : (انكم ماكثون) ، فيقولون : لا أحد خير لكم من ربكم ، فيقولون : (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) فيقول الله عز وجل : (اخسئوا فيها ولا تكلمون) فعند ذلك ييأسون من كل خير ، ويأخذون في الشهيق والويل والثبور . وهذا الحديث رواه الترمذي مرفوعاً والموقوف أصح .

ماعذر من جرّ عاصياً رسنه	ماعذره بعد أربعين سنة
أكلما طالت الحياة بـه	أطار عن أخذ حذره وسنه
قل لي اذا مت كيف تنقص من	سيئة أو تزيد في حسنه

يبكي أهل النار فلا يرحمون ، ويستغيثون فلا يغاثون ، من لهم بقطرة ماء يشربون ، من لهم براحة لحظة يتركون ، أسفاً لهم يتمنون المنون ، وآخر ما به يجابون (اخسئوا فيها ولا تكلمون) يتقلبون في العذاب فلا يستريحون ، حركات عذابهم مالها سكون ، غضب عليهم من يقول للشيء كن فيكون ، فإلى من بعد الرحيم يشكون ، وأشد ما به يعذبون (اخسئوا فيها ولا تكلمون) غلت الايدي الى الاعناق ، والنار شعار والنار نطاق ، لقد حملوا مالا يطاق ، وكذا المغضوب عليه يكون (اخسئوا فيها ولا تكلمون) لو رأيتهم في الاغلال والقيود ، بعد القصور وتلك المهود ، ومستغيثهم يقول ما أعود ، وكل عذاب عذبوه دون (اخسئوا فيها ولا تكلمون) لو كانت اوقات تعذيبهم ممتدة ، الى مقدار

معلوم ومدة ، لكانت تلك العظائم والشدة ، لما يرجونه تهون (اخسئوا فيها ولا تكلمون) تتميز عليهم جهنم ، وزمانهم كله قد أظلم ، وينساهم من رحمته من يرحم ، فاحذروا انتم ان كنتم تفهمون (اخسئوا فيها ولا تكلمون) .

اللهم عافنا من مكرك ، وزينا بذكرك ، واستعملنا بأمرك ، ولا تهتك علينا جميل سترك ، وامنن علينا بعطفك وبرك ، وأعنا على ذكرك وشكرك .

اللهم خلقتنا مسلمين ، فسلمنا من عذابك ، وجعلتنا مؤمنين ، فآمنا من عقابك ، انت الملك الحق المبين ، النور الهادي القوي المتين ؛ عرفتنا بربوبيتك ، وغرقتنا في بحار نعمتك .

اللهم إن نظرنا الى فضلك فالعجب ممن هلك كيف هلك ، وان نظرنا الى عدلك ، فالعجب ممن نجا كيف نجا .

اللهم إن حاسبتنا بفضلك نلنا رضوانك ، وان حاسبتنا بعدلك ، لم ننل غفرانك .

اللهم إن كنا قد عصيناك بجهل ، فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر الذنوب ولا يبالي .

اللهم أنت أعلم بالحال من قبل الشكوى ، وأنت قادر على تحقيق الآمال وكشف البلوى .

اللهم أنت ملاذنا إذا ضاقت الحيل ، وملجؤنا اذا انقطع الامل ، بذكرك نتنعم ونفتخر ، والى جودك نلتجىء ونفتقر ، فبك فخرنا واليك فقرنا .

بذكرك يا مولى الورى نتنعم ... وقد خاب قوم عن سبيلك قدعموا
شهدنا يقينا ان علمك واسعٌ ... فأنت ترى ما في القلوب وتعلم
إلهي تحملنا ذنوباً عظيمة ... أسأنا وقصّرنا وجودك أعظم
سترنا معاصينا عن الخلق غفلة ... وأنت ترانا ثم تعفو وترحم
وحقك ما فينا مسيء يسرّه ... صدودك عنه بل يخاف ويندم
سكتنا عن الشكوى حياءً وهيبة ... وحاجاتنا بالمقتضى تتكلم

اذا كان ذلّ العبد بالحال ناطقاً ... فهل يستطيع الصبر عنه ويكتم

الهي فجد واصفح وأصلح قلوبنا ... فأنت الذي تولي الجميل وتكرم

ألست الذي قربت قوماً فوافقوا ... ووفقتهم حتى أنابوا وأسلموا

وقلت استقاموا منّة وتكرّماً ... فأنت الذي قومتهم فتقوم

لهم في الدجى أنس بذكرك دائماً ... فهم في الليالي ساجدون وقوم

نظرت اليهم نظرة بتعطف ... فعاشوا بها والخلق سكرى ونوّم

لك الحمد عاملنا بما أنت أهله ... وسامح وسلمنا فأنت المسلم

اللهم دلنا عليك ، وارحم ذلنا بين يديك ، ولا تحرمنا بذنوبنا ، ولا تطردنا بعيوبنا ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين . برحمتك يا أرحم الراحمين . آمين .



المجلس الخمسون

في ذكر التوبة

الحمد لله الذي لم يزل موجوداً ، قديماً عليا كبيراً ، عظيماً خبيراً بالبواطن عليما ، هدى اليه صراطاً مستقيماً ، وعافى بالعفو من كان بالذنب سقيما ، وضمن عفو الصغائر لمن ترك الكبائر تكريماً (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم ،وندخلكم مدخلاً كريماً) النساء : ٣١ .

أحمده أن وهب لنا أنعاماً جسيما ، وأقر بوحدانيته اجلالاً له عن الند وتعظيماً ، وأصلي على رسوله محمد الذي قدمه على الكل تقديماً ، صلى الله عليه ، وعلى أبي بكر صاحبه ظاعناً ومقيما ، وعلى عمر الذي قوّم السياسة بعدله تقويماً ،وعلى عثمان الذي أمسى لغرام البلاء غريماً ، وعلى عليّ بحر العلوم وأكرم به رحيماً ، وعلى سائر آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان وسلم تسليماً .

قد أمر الله عز وجل بالتوبة فقال : (وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون)النور: ٣١ وقال : (توبوا الى الله توبة نصوحاً) التحريم : ٨ .

وأمر نبيّه ﷺ بذلك فقال : « يا أيها الناس توبوا الى ربكم ، فإني أتوب اليه في اليوم مائة مرة » والإجماع منعقد على وجوب التوبة عن المعاصي ، والآدمي لا ينفك عن ذنب ، والذنوب على ضربين : صغائر ، وكبائر .

واختلفت الأحاديث في عدد الكبائر وفيها أحاديث كثيرة ،منها ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « اجتنبوا السبع الموبقات» ، قالوا : يا رسول الله ، وما هنّ ؟ قال « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله الا

بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقـذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وعن أبي ميسرة عن عبد الله قال : قلت : يا رسول الله ، أيّ الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » ، قلت : ثم أيّ ؟ قال : « أن تقتل ولدك من أجل أن يطعم معك » ، قلت : ثم أيّ ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » .

وعن أنس بن مـالك رضي الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سئل عنها ، فقال : « الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين » . وقال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قول الزور أو شهادة الزور » .

وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » . وهذه الاحاديث في « الصحيحين » .

وهذه المذكورات لا تدل على حصر الكبائر كلها ، ولعل الشارع قصد الإبهام ليكون الناس على وجل من الذنوب .

واعلم أن الكبائر على ثلاث مراتب .

الاولى : ما يمنع معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ، وهو الكفر ، ولا حجاب أكثف من الجهل بالله ، ويتلو الجهل به الأمن من مكره ، والقنوط من رحمته ، ويتلو ذلك البدع المتعلقة بذات الله عز وجل وصفاته .

المرتبة الثانية : قتل النفس ، ويتلوها قطع الاطراف ، وما يفضي الى الهلاك ، ويقع في هذه المرتبة الزنا واللواط . فالزنا سبب لاختلاف الانساب ، واللواط سبب لعدم النسل .

المرتبة الثالثة : الاموال وأخذها بالغصب والسرقة ، وأكل مال اليتيم والربا ، وتقويتها بشهادة الزور ، وجحد الودائع ، كلها محرمة وعليها الوعيد .

وقد تعظم الصغائر بأسباب . منها الإصرار ، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « لا صغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار » .

ومنها استصغار الذنب ، وفي « الصحيحين » : أن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا فطار .

وقال بلال بن سعد : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ، وانظر إلى من عصيت .

ومنها الفرح بالصغيرة والتبجح بها ، ومنها أن يتهاون بستر الله وحلمه ، ومنها أن يذكر الذنب للناس ، وفي ذلك جناية على ستر الله ، ومنها أن يكون عالماً فيقتدى به في نحو لبس الحرير .

واعلم أن التوبة ندم يورث عزماً وقصداً ، وعلامة الندم : طول الحزن على مافات ، وعلامة العزم والقصد : التدارك لما فات ، وإصلاح ما يأتي .

فإن كان الماضي تفريطاً في عبادة قضاها ، أو مظلمة أداها ، أو خطيئة لا توجب غرامة ، حزن إذ تعاطاها .

ومن علامة التائب أن يغضب على نفسه ، ومنها أن تضيق الأرض عليه ، كما ضاقت على كعب بن مالك وصاحبيه ، فيستولي عليه الحزن والبكاء ، فيشغله عن اللهو والضحك ومتى قصر في قضاء دين ، أو رد مظلمة ، دل على ضعف التوبة . ومما أمر به العازم على التوبة : الصلاة .

وقد روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : « ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ ، فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ، ويستغفر الله إلا غفر له » .

واعلم أن التوبة إذا صحت ، قبلت بلا شك ، إذا وقعت قبل نزول الموت ، لو كانت عن أي ذنب كان .

وفي « الصحيحين » : أن رجلاً قتل تسعة وتسعين نفساً ، ثم سأل هل له توبة ، فقيل له : اخرج إلى قرية كذا ، فخرج وأدركه الموت ، فنأى بصدره نحو القرية ، فوجد أقرب إليها بشبر ، فغفر له .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لله عز وجل أفرح

بتوبة أحدكم من رجل خرج بأرض دويّة مهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، وزاده وما يصلحة ، فأضلها ، فخرج في طلبها ، حتى أدركه الموت ولم يجدها ، قال : أرجع إلى مكاني الذي أضللتها فيه ، فأتى مكانه ، فغلبته عينه فاستيقظ ، فإذا راحلته عند رأسه ، عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه » أخرجاه في « الصحيحين » .

أنا عبدك الجاني وأنت المالك   إن لم تسامحني فإني هالك

يا من تدارك طول جهلي حلمه   ذخري لحشر عفوك المتدارك

مولاي أسررت القبيح وظاهري   حسن وأنت لحجب ستري هاتك

حسبي خساراً أن تراني مسرفاً   ويظن هذا الخلق أني ناسك

إخواني : الذنوب تمرض القلوب ، ويقوى مرضها على قدر كثرتها ، والإصرار مرض يختص بعين القلب ، والذنوب تؤثر في ذات القلب ظلمة ، وفي باطنه مرضاً ، فإذا دامت حركاته في الخير ، فتصير كالسكتة تلحق المغشي عليه ، وربما أخرجت إلى الموت .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « أربع من الشقاء : جمود العين ، وقساوة القلب ، والحرص على الدنيا ، وطول الأمل » .

وعنه ﷺ أنه قال : « إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد ، قيل : يا رسول الله ، ما جلاؤها ؟ قال : ذكر الله ، وتلاوة القرآن » .

وسئل الحسن رحمه الله ، ما عقوبة العالم إذا آثر الدنيا ؟ قال : موت قلبه .

واعلم أن المريض إذا أحسّ بمرضه فقد بقيت فيه بقية ترجى ، فإن عزمت على الدواء ، فألق قلبك بين يدي طبيب العلم ، وابتدىء بالحمية عن الذنب ، واجل سواد القلب عند صيقل الذكر ، واصبر على مرارة الدواء ، وقف على الباب وقوف ذل ، ونكس رأس الندم ، واشك ثقل الكل إلى من له الكل ، وإياك والتواني عن هذا الأمر ، فاستدرك (قبل أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله) الزمر : ٥٦ .

فرض على الناس أن يتوبوا　　لكن ترك الذنوب أوجب
والصبر في النائبات صعب　　لكن فوت الثواب أصعب
والدهر في صرفه عجيب　　وغفلة الناس عنه أعجب
وكل آتٍ فهو قريب　　والموت من كل ذاك أقرب

ياعجباً لك تتسمى باسم تاجر ، وتخاصم على الحبة وتشاجر ، وتغضب على القيراط وتهاجر ، وتركب الخنا وتسل الخناجر ، وترضى باسم عاص ولقب فاجر . أمالك من عقلك زاجر ؟ أما تؤمن أولاً بالمقادر ، أما تعلم أن المانع المعطي قادر ؟ يا من نومه كثير وانتباهه نادر ، تشتغل عن القرآن المنزل ، وتسمع من مغن يتغزل ، وتمشي إلى الطاعة مشي أقزل .

ويحك إن أمير الحياة سيعزل ، كأنك بالسماء تمور وبالأرض تزلزل ، وبالميزان ينصب ولا تدري اي الكفتين اثقل .

دنياك أشبهت المدامة ظاهراً　　حسناً وباطن أمرها لا يعلم
وعظ الزمان فما فهمت عظاته　　فكأنه في صمته يتكلم
كلٌ تسير به الحياة وماله　　علم على أي المنازل يقدم
ومن العجائب أننا بجهالة　　نبني وكل بناء قوم يهدم
وأضيع أوقاتي بغير ندامة　　ويفوتني الشيء اليسير فأندم

فصل

في قوله تعالى: (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) آل عمران: ١٩١ في المراد بهذا الذكر ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الذكر في الصلاة يصلي الإنسان قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنبه .

والثاني : أنه الذكر في الصلاة وغيرها .

والثالث : أنه الخوف .

فالمعنى يخافون الله في جميع تصرفاتهم . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي وأنا معه حين يذكرني ، إن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملاءٍ ، ذكرته في ملاءٍ خير منهم ، ومن تقرب إلي شبراً ، تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلي ذراعاً ، تقربت إليه باعا ، ومن جاءني يمشي ، أتيته هرولة » . أخرجاه في « الصحيحين » .

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لايقعد قوم يذكرون الله تعالى ، إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وفي حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « مامن قوم اجتمعوا يذكرون الله ، لايريدون بذلك إلا وجه الله ، إلا ناداهم مناد من السماء : أن قوموا مغفوراً لكم ، وقد بدلت سيئاتكم حسنات » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى ، تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء ، قال : فيسألهم ربهم تعالى وهو بهم أعلم ، مايقول عبادي ؟ قالوا : يذكرونك ويسبحونك ويمجدونك ، قال : وهل رأوني ؟ يقولون : لا والله يارب ما رأوك قال : فيقول : لو أنهم رأوك لكانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً ، قال : فيقول : وما يسألوني ؟ قالوا : يسألونك الجنة ، قال : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله يارب ، ما رأوها فيقول : كيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد عليها حرصاً ، وأشد عليها طلباً ، وأعظم فيها رغبة ، فيقول : فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون من النار ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا والله ما رأوها ، قال : يقول كانوا أشد منها فراراً ، وأشد مخافة ، قال : فيقول : فأشهدكم

أني قد غفرت لهم ، قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ، ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، فيقول : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم » أخرجاه في « الصحيحين » .

وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن الله عز وجل يقول : « أنا مع عبدي ماذكرني وتحركت بي شفتاه» .

وفي حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله عز وجل : أخرجوا من النار من ذكرني يوماً ، أو خافني في مقام » . وعنه أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » قالوا : يارسول الله ، وما رياض الجنة ؟ قال : « مجالس الذكر » .

واعلم أن الذاكرين تختلف أحوالهم ، فمنهم من يؤثر قراءة القرآن ويقدمه على كل ذكر . فقد كان منهم من يختم كل يوم ختمة ، ومنهم من يختم ختمتين ، ومنهم من أكثر ذكره التهليل والتسبيح والتحميد .

وفي « الصحيحين » : من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من قال لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به ، إلا أحد عمل أكثر من ذلك ، ومن قال في يومه مائة مرة : سبحان الله وبحمده ، حطت خطاياه ، وإن كانت مثل زبد البحر » .

قال سعيد بن عبد العزيز : قلت لعمر بن هانىء : أرى لسانك لا يفتر عن ذكر الله عز وجل ، فكم تسبح كل يوم ؟ قال : مائة ألف إلا أن تخطىء الأصابع . وقال محمد ابن ثابت البناني : ذهبت ألقن أبي وهو في الموت ، فقلت : يا أبت ، قل : لا إله إلا الله قال : يابني خل عني ، فإني في وردي السادس والسابع .

ذكرك لي مؤنس يعارضني يعدني عنك منك بالظفر
وكيف أنساك يامدى هممي وأنت مني بموضع النظر

ومن الذاكرين من غلب على قلبه حب المذكور ، فلا يزال في الذكر والتعبد . قال الجنيد رحمه الله تعالى : ما رأيت أعبد لله من سري السقطي ، أتت عليه ثمان وسبعون سنة ، مارئي مضطجعاً إلا في علة الموت . ومن الذاكرين من صار الذكر إلفاً لا عن كلفة ، فماله همّ غيره ، فهو يذكر أبداً على جهة الحضور .

وشغلت عن فهم الحديث سوى ما كان منك وعندكم شغلي
وأديم نحو محدثي نظري أي قد فهمت وعندكم عقلي

أين أهل الادكار ؟ أين قوام الأسحار ؟ أين صوام النهار ؟ خلت والله منهم الديار وامتلأت بهم القفار ، فصلْ إليهم وصلّ عليهم .

سبحان من قضى على الغافلين كسلاً وقعوداً ، ورفع المتقين علواً وصعوداً ، ومنحهم من إنعامه فوزاً وسعوداً ، بمطلوبهم يذكرون الله قياماً وقعوداً ، وعلى جنوبهم أنعم عليهم وأعطاهم ، واستصلحهم واصطفاهم ، (وقليل ماهم)ص : ٢٤ . اشتغل الناس بدنياهم ، واشتغلوا بذكر محبوبهم (قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) آل عمران : ١٩١.

قنعوا بأدون المطعم واللباس ، وألقوا نفوسهم في المساجد كالأحلاس ، يمشون بالسكينة بين الناس ، ومـا دروا بهم في دروبهم (يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) .

اكتفوا في الليل بيسير النوم ، واشتغلوا بالصلاة والصوم ، وكانت والله همم القوم في إصلاح قلوبهم (يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم) .

لبسوا ثياب السفر ، ورحلوا على أكوار السهر ، فلو سمعت وقت السحر ، ترنم طروبهم (يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) .

تناولوا كؤوس الدموع يتجرعون ، فلو رأيتهم في طريق الخضوع يتضرعون ، والقوم يقلقون ويتضرعون في ستر عيوبهم (يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) .

يستغيثون إلى الحق ويشكرون ، واليتامى في الذل يحكون ، وجملة الأمر أنهم يبكون على قبح مكتوبهم (يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم).

أما الليل فسهارى ، وأما النهار فأسارى ، وكأنهم بالمحبة سكارى ، في شروقهم وغروبهم (يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) .

اللهم يا من لا تضره المعصية ، ولا تنفعه الطاعة ، ارحمنا بالتائبين إليك في هذه الساعة ، وتعطف على يدٍ امتدت إليك بالذل والضراعة ، وأيقظنا يا مولانا من نوم الغفلة ، ونبهنا لاغتنام أوقات المهلة ، ووفقنا لمصالحنا ، واعصمنا من ذنوبنا وقبائحنا ، واستعمل في طاعتك جميع جوارحنا ، ولا تؤاخذنا بما انطوت عليه ضمائرنا ، وأكنته سرائرنا من أنواع القبائح والمعائب التي تعلمها منا ، وامنن علينا يا سيدنا بتوبة ، تمحو عنا كل ذنب وحوبة ، حتى تنقلب أعداؤنا خائبين ، خاسرين داخرين صاغرين ، لم ينالوا من تحقيق إرادتهم فينا مطلباً ، ولم يبلغوا من عدم إسعافك إيانا بما طلبناه منك مأربا ، واغفر لنا مغفرة عامة ولجميع المسلمين ، الأحياء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الحادي والخمسون

في ذكر الصبر

الحمد لله الذي كوّن الأشياء وأحكمها خلقاً ، وفتق السماء والأرض وكانتا رتقا ، وقسم العباد فأسعد وأشقى ، وهو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً .

أحمده وما أقضي بالحمد له حقاً ، وأشكره ولم يزل للشكر مستحقاً ، وأشهد أنه المالك للرقبات كلها رقاً ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، أشرف الخلائق خلقاً ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق ، الذي حاز كل الفضائل سبقاً ، ويكفيه (وسيجنبها الأتقى) الليل : ١٧. وعلى عمر العادل فما يُحابي خلقا ، وعلى عثمان الذي استسلم للشهادة فما توقى ، وعلى علي بائع ما يفنى ومشتري مايبقى ، وعلى جميع آله وأصحابه الناصرين لدين الله حقاً ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) الزمر : ١٠ .
المعنى : أنهم يعطون عطاء كثيراً أوسع من أن يحسب ،أو يحاط به . وقد ذكر الله عز وجل الصبر في نحو من تسعين موضعاً من القرآن ، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات ، فقال : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) السجدة : ٢٤ . إلى غير ذلك .

وأما الأحاديث ، ففي « الصحيحين » من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا إن الصبر من الإيمان ، بمنزلة الرأس من الجسد ، ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له » .

وقال الحسن رحمه الله : الصبر كنز من كنوز الخير ، لا يعطيه الله عز وجل إلا لعبد كريم عليه .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما أنعم الله على عبد نعمة ، فانتزعها منه ، فعاضه الصبر، إلا كان ما عوّضه خيراً مما انتزع منه .

وقال ميمون بن مهران : ما نال أحد شيئاً من جسيم الخير إلا بالصبر. وكان بعض الصالحين في جيبه رقعة ، يخرجها كل ساعة ، ينظر إليها ، وكان فيها : (فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) الطور : ٤٨.

واعلم أن جميع ما يتقلب فيه العبد لا يخلو من نوعين : موافق لهواه ومخالف ، وهو محتاج إلى الصبر فيهما .

فأما الموافق للهوى : فهو الصحة والسلامة ، والمال والجاه ، وكثرة العشيرة والأتباع ، وجميع ملاذ الدنيا ، والإنسان محتاج إلى الصبر في هذه الأشياء ، فلا يبطر بها ، ولا تخرجه إلى مالا يصلح ، فإن لم يفعل ، لم يأمن الطغيان .

قال بعض العلماء : البلاء يصبر عليه مؤمن ، ولا يصبر على العافية إلا صدّيق . وبهذا المعنى قال الله عزوجل : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) . المنافقون : ٩ .

وأما المخالف للهوى : فهو على ثلاثة أقسام .

القسم الأول : مايتعلق باختيار العبد ، وهو أفعاله التي توصف بأنها طاعة أو معصية ، فهو محتاج إلى الصبر على الطاعة ، لأن النفس تنفر بطبعها من العبودية ، وتكره الصلاة للكسل ، والزكاة للبخل ، ومفتقر إلى الصبر عن المعاصي ، فإنه يقتضيها باعث الهوى .

القسم الثاني : مالا يتعلق باختيار العبد ، وله اختيار في رفعه ، كما لو أوذي بفعل أو قول ، أو جني عليه في نفسه وماله . والصبر على ذلك بترك المكافأة .

القسم الثالث : مالا يدخل تحت الاختيار أوله وآخره ، كالمصائب ، مثل موت الأعزة والمرض ، والصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر .

وقد قال النبي ﷺ : « من يرد الله به خيرا يصب منه » .

وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : «مامن مصيبة تصيب المسلم ، إلا كفر الله عز وجل بها عنه ،حتى الشوكة يشاكها » أخرجاه في « الصحيحين » .

وفيها من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : « ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لايزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده وماله وفي ولده ، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة » .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت : يارسول الله ، أي الناس أَشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة ، زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة ، خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة » .

وأما المصائب في البدن ،ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك ، فقلت : يارسول الله ، إنك لتوعك وعكاً شديداً ، فقال : أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم ، قلت : إن لك أجرين ? قال: نعم والذي نفسي بيده ، ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه ، إلا حط الله بها خطاياه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها » .

وأما الحمى ، ففي أفراد مسلم من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال في الحمى : « إنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد » .

وقال الحسن رحمه الله : إنه ليكفر عن العبد خطاياه بحمى ليلة .

وأما الصداع ، ففي حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من مريض يصيبه صداع في رأسه ، أو شوكة تؤذيه ، أو ما سوى ذلك من الأذى ، إلا رفعه الله عز وجل بها درجة يوم القيامة ، وكفر عنه بها خطيئة » .

وأما ذهاب البصر ، ففي أفراد البخاري من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر ، عوضته منهما الجنة » . يريد عينيه .

وأما الطاعون ففي « الصحيحين » من حديث أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « الطاعون شهادة لكل مسلم » .

وأما ذهاب الولد ، ففي أفراد مسلم ، من حديث أبي حسان قال : توفي ابنان لي فقلت لأبي هريرة رضي الله عنه : سمعتَ من رسول الله ﷺ حديثاً تحدثناه ، تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ فقال : نعم . « صغارهم دعاميص الجنة ، يلقى أحدهم أباه أو قال أبويه ، فيأخذ بناحية ثوبه كما آخذ بصنفة ثوبك هذا ، فلا يفارقه حتى يدخله الجنة » .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال للنساء « مامنكن امرأة يموت لها ثلاثة من الولد ، إلا كانوا لها حجاباً من النار . فقالت امرأة : أو اثنين فإنه مات لي اثنان ؟ فقال رسول الله ﷺ : واثنين » .

ومن آداب الصبر ، استعماله في أول صدمة . ففي « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » . ومن آدابه : سكون الجوارح ، وسكون اللسان . ففي « الصحيحين » : من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال : « ليس منا من شق الجيوب ، ولطم الخدود ، ودعا بدعوى الجاهلية » .

ومن حسن الصبر ، أن لايظهر أثر المصائب على المصاب .

سئل ربيعة : مامنتهى الصبر ؟ قال : أن يكون يوم تصيبه المصيبة ، مثله قبل أن تصيبه . وإذا كانت المصيبة مما يكتم ، فكتمانها من معاملة الله عز وجل .

قال الأحنف : لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ، فما ذكرتها لأحد . وقال ابراهيم الحربي : ماشكوت الحمى قط إلى أمي ولا أختي ولا امرأتي ، الرجل الذي يدخل غمه على نفسه ، ولا يغم عياله ، كان بي شقيقة خمساً واربعين سنة ، ما أخبرت بها أحداً ، ولي عشرين سنة أبصر بعين واحدة ، فما أخبرت بذلك أحداً .

وقد كان السلف يفرحون بالمصائب نظراً إلى ثوابها . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ثلاث يكرههن الناس وأحبهن : الفقر والمرض والموت . وكان في القوم من تلذذ بالبلاء نظراً إلى ثوابه ، وإلى رضى الله تعالى به .

فروي أن بنتاً لفتح الموصلي عريت ، فقيل له : ألا تطلب من يكسوها ؟ فقال : لا ، دعها حتى يرى الله عز وجل عراها ، وصبري عليها .

واعلم أن من علم عاقبة الصبر ، هان عليه ، ومن لم يعلم ، اشتد جزعه ، فالعامل يستعمل الصبر إما لطلب أجره ، وإما لأن الجزع لا يرد الفائت ، ولكن يسر الشامت .

يامن إذا مرض بكى ، وإذا ابتُلي شكى ، الثواب يحبط بشكواك ، والشكوى لا تزيل ذاك ، إن صبرت ، جرى القدر وأنت مأجور ، وإن جزعت ، جرى وأنت مأزور ، ذكر نفسك قبل شرب الدواء حلاوة العافية ، تهن عليك المرارة .

يانفس ماهي إلا صبر أيام	كأن مدتها أضغاث أحلام
يانفس جوزي عن الدنيا مبادرة	وخل عنها فإن العيش قدامي

يامن كتابه للقبائح قد حوى ، وهو لا شك عن قليل قتيل الهوى ، يامن عمله لا يصلح للرضى ، متى تستدرك ما مضى .

البدار البدار يامن فسح له في الأجل ، الحذار الحذار يامغروراً بالأمل ، كم مستلب لما تم وكمل ، بقي في القبور مرتهناً بالعمل .

ركنوا إلى الدنيا الدنية	وتبوؤا الرتب العلية
حتى إذا غروا بها	صرعتهم أيدي المنية

لقد فرقش الحمام في خبطه ، فما رعى نسيباً لشرف رهطه ، ولا كاتباً لحسن خطه ، ولا ضابطاً لشكله ونقطه ، ولا حاسباً لإحكام ضبطه ، كم أعنق إلى عنق لاستلاب سمطه ، كم مزق شعراً ثبتاً عقيب سبطه ، فسلمه إلى البلى واستلبه من مشطه ، كم أبدل جسداً كفناً بعد حسن مرطه ، كم صوب إلى مرمى فرماه ولم يخطه .

إخواني : شرط البقاء للفناء لابد من وفاء شرطه .

آه للموت زائرا قد أباد المعاشرا
كم محى من محاسن قد طواهن ساترا
للناعم النضير طوى منه ناظرا
آه لغصن إذ سمى جاءه الموت كاسرا
فازمن كان خائفاً جد في الأمر حازرا

فصل

في قوله تعالى : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) محمد : ٣١ .
معنى الآية : ولنعاملنكم معاملة المختبر ، حتى نعلم العلم الذي هو علم وجود . وهو الذي يقع به الجزاء (ونبلو أخباركم) نظهرها ونكشفها .

إخواني : الدنيا دار ابتلاء فصابروها ، وقنطرة محنة فاعبروها ، واعلموا أن البلاء يختص بالأخيار ، والمحن تلاصق الأبرار ، لئلا يساكنوا هذه الدار .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن صبر ، فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع » . وفي حديث أبي سعيد ، أنه شكى إلى رسول الله ﷺ حاجة فقال : « إصبر أبا سعيد ، فإن الفقر إلى من يحبني ، أسرع من السير من أعلى هذا الوادي ، أو من أعلا الجبل إلى أسفله » . وكانت رمال الحصير تؤثر في جنب النبي ﷺ . وكان حشو وسادته من ليف ، وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع .

وكان أيوب عليه السلام ملقى على كناسة ، وما في الأرض يومئذ عبد أكرم على الله عز وجل منه

واشتد جوع علي رضي الله عنه ، فاستقى ليهودي كل دلو بتمرة .

وقتل مصعب بن عمير ، فما وجد له كفن يكفنه .

وعري أويس حتى جلس في قوصرة .

وقدم بشر من عبّادان وليس له ثوب ، فاتشح بحصير .

وقال أبو مسلم الخولاني : ماطلبت شيئاً من الدنيا قط ، فوفي لي ، حتى لقد ركبت مرة حماراً فلم يمش ، فركبه غيري فعدا ، فأريت في منامي قائلاً يقول لي : لايحزنك مازوي عنك من الدنيا ، فإنما يفعل الله ذلك بأوليائه . ما مضى من تنعم القوم يوم الا وانقضى من صبر الصابرين يوم ، إلى أن يجمعهما يوم ، ويقع فرق مابين القوم ، كما بين اليقظة والنوم ، صبر القوم قليلا ، واستراحوا طويلا .

طوبى لعبد بحبل الله معتصمه ... على صراط سوي ثابت قدمه

رث اللباس جديد القلب مستتر ... في الأرض مشتهر فوق السماء سمه

إذا العيون اجتلته في بذاذته ... تعلو نواظرها عنه وتقتحمه

مازال يستحقر الأولى بهمته ... حتى ترقت إلى الأخرى به هممه

فذاك أعظم من ذي التاج متكئاً ... على النمارق محتفاً به حشمه

يامن إذا ابتلي شكى ، وإذا فقد عرضه بكى ، وإذا صح أكل واتكا ، أين أنت من أقوام يتلقون البلايا بأكف الرضى ؟ هيهات ، قاموا وقعدت ، ووصلوا وتباعدت ، زاحم القوم مهما استطعت ، واستغث بساقة الركب فقد انقطعت ، واجتهد في خلاصك فقد وقعت ، واجمع شتات همك فقد فرقه ما جمعت .

يا من إصراره على المعاصي أوثق من السد ، وإفساده في أرض قلبه أشد من يأجوج ، لك على المعاصي جراءة الأسد ، وفي الخيانة وثوب النمر ، وفي العهود غدر الذئب ، وفي الأمانة اختطاف الحدأة ، تروغ عن الحق روغان الثعلب ، وتشره في الأدناس شره الخنزير ، وتنام عن الواجبات نوم الفهد ، وتدب بالشر دبيب العقرب ، ويحك احذر أن تكون من قوم (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) الحشر : ١٩ : من أصبح لا همّ له إلا ما يأكل ، ثم لا يبالي من أين حصل له ، فإن كسب ، لم يبال حراماً كان أو حلالاً ، همه ما يجمع و لا يفهم ما يسمع ، فكيف يخاطب ؟.

ويحك ؛ اعطف على ما يعينك عنانك ، واعتبر قبل الحساب عليك ميزانك ، إنما المتيقظ الذي إن تحرك فلله ، وإن سكت فله ، وإن نطق فعنه ، وإن اشتاق فإليه ، يا هذا ؛ إن كان حظك مما أقوله السماع ، وحظي النطق، فقد هلكنا جميعاً .

يا أسير الشهوات ورهين التبعات

عد إلى القصد فقد فا رقت أعلام النجاة

وتعشقت ضلالاً في فلاة الغفلات

ويح نفسي كيف ولى عمري في النزهات

يا مستورين على الزلل ، ستظهر أسراركم ، يا مغمورين بالحلم عنهم ، ستكشف أستاركم ، لا بد أن تميز خياركم وشراركم (حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) محمد : ٣١.

كم أقبل إليكم لطفنا وزاركم ، وما تركتم أوزاركم ، منحكم بالهدى وأعاركم ، ثم اخترتم في الضلال عاركم (ونبلو أخباركم) .

كم أنعم عليكم مولاكم وأماركم ، كم عمّر بالنعم داركم ، كم كثر أولياءكم وأنصاركم ، لو شاء لأخذ أسماعكم وأبصاركم (ونبلو أخباركم) .

إلى متى مع الذنوب ، إلى كم في الزلل والعيوب ؟ أما تخافون علام الغيوب ؟ ألا تطلبون جنة ذات كواعب و كوب ، ألا تتقون ناركم ، أما تحذرون من خوف وشدد، أما أوعدكم على الذنوب وتهدد؟ ، أما النذر إليكم كل يوم تتردد ، ولا نرى إلا نفاركم ، صبركم على بلايانا معدوم ، وعزمكم على طاعاتنا مهدوم، ومُعاملكم لنا مايدوم، وقد جمعتم ذنوب مدين وسدوم ، فابتدروا استغفاركم .

اللهم وصفت نفسك باللطف والرحمة قبل وجود ضعفنا ، أفتمنعنا منها بعد وجود ضعفنا ؟.

اللهم هذا ذلنا ظاهر بين يديك ، وهذا حالنا لا يخفى عليك ، فاهدنا بنورك إليك ، وأقمنا بصدق العبودية بين يديك .

اللهم اغننا بتدبيرك عن تدبيرنا ، وباختيارك لنا عن اختيارنا ، وأوقفنا على مراكز اضطرارنا .

اللهم أخرجنا من ذل نفوسنا ؛ وطهرنا من شكنا وشركنا ، قبل حلول رمسنا .

اللهم بك ننتصر فانصرنا ؛ وعليك نتوكل فلا تكلنا ، وإياك نسأل فلا تخيبنا ؛ وفي فضلك نرغب فلا تحرمنا ، ولجنابك ننتسب فلا تبعدنا ، وببابك نقف فلا تطردنا . وامنن علينا يا مولانا ، بفضلك ومغفرتك ، وعاملنا بإحسانك ورحمتك ، ووفقنا لطاعتك وخدمتك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين ، آمين آمين يا رب العالمين .



المجلس الثاني والخمسون

في ذكر الشكر

الحمد لله الذي تابع الإنعام وواصل، وحلم عن الأنام وما عاجل، وعفا عن الإجرام فما قابل، تقدس عن مماثلة الخلق فما شابه ولا شاكل، لا تلمح في صفاته، فالسعيد من ساحل، جل عن قول المبتدعة، فالمشبه تحامق، والمعطل تجاهل، بل هو موصوف بمذهب أهل السنة ومن شاء باهل.

أحمده إذ لطف وساهل، وأقر له بالتوحيد إقرار مخلص عامل، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله فما وني ولا تغافل، صلى الله عليه، وعلى أفضل (من أنفق من قبل الفتح وقاتل) الحديد: ١٠. أبي بكر الصديق الذي لا يبغضه إلا من تحامل، وعلى عمر الذي عدله مشهور مداول، وعلى عثمان الذي تقاضته الشهادة دينها فما ماطل، وعلى علي الذي دفع الكفر واستأصل، وعلى سائر آله وأصحابه الذين اجتهد كل منهم في طاعة الله وما تكاسل، وسلم تسليماً.

اللهم يا من أظهر الجميل وبالكرم عامل، انفعني والحاضرين بما نشرع فيه ونتشاغل.

عباد الله، قد توفرت النعم عليكم، فاشكروا وقد أُعطيتم مالم تسألوا، فاذكروا واعرفوا المنعم، واطلبوا في الشكر المزيد.

قال الله عز وجل: (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) إبراهيم: ٧.

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أنعم الله عز وجل على عبد نعمة، فعلم أنها من عند الله، إلا كتب الله له شكرها، وما علم الله من عبد ندامة على ذنب، إلا غفر له قبل أن يستغفر، وإن العبد ليشتري الثوب بالدينار، فيلبسه فيحمد

الله عز وجل ، فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له » .

وقال معاذ رضي الله عنه : قال لي رسول الله ﷺ : « إني أحبك ، فقل : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

واعلم أن النعم كثيرة ، أولها : توفيق الله وإرشاده إلى الهدى ، ثم يتبعه طهارة الباطن من الأدناس ، وتزيينه بالعلم وما يوجب فضيلة النفس ، ثم يتبعه صحة البدن وقوته ، وجمال خلقته وما هو سبب في بقائه من مال وغيره ، ومن تفكر في أقل نعمة، علم أن شكرها لا يستوعبها .

ولو ذكرنا نعمة واحدة ، لما أحطنا بحواشيها ، ولكن انظر إلى أن الله عز وجل ، جعل سبب بقاء الآدمي القوت ،فمن النعمة تهيئة المتناوَل والمتناوِل ،فأما المتناوَل : فالحب مثلاً ، فلو أنك تناولت الموجود فني ، ولكن جعله ناشئاً بالزرع ، فإذا بذره الحراث افتقروا إلى الميرة ، وتنقية الأرض من الحشيش ، وجعل في الزرع قوة يجتذب بها الغذاء إلى نفسه ، من جهة أصله وعروقه التي في الأرض ، ثم يجتذب ذلك إلى العروق الدقيقة التي تظهر غليظة الأصول في الورق ، ثم يستدق إلى عروق شعرية تنبسط في جميع الورقة ، وكما أنك تتغذى بطعام مخصوص إذ الخشب لا يغذيك ، فكذلك النبات ، فيفتقر إلى الماء والهواء ، والتراب والحرارة ، فانظر كيف سخر له الغيوم وبعث الرياح في وقت الحاجة ، وسخر حرارة الشمس ، فلما افتقرت الأغذية إلى رطوبة ، خلق القمر ، فهو ينضج الفواكه ويصبغها ،فإذا تكامل البذر ، افتقر إلى الحصاد ،والفرك والتنقية والطحن والعجن والخبز .

ولو تأملت ما يفتقر إليه كل شيء من ذلك ، طال ، لأنك إذا نظرت في آلة الحراث ، رأيتها محتاجة إلى نجار وحداد وغير ذلك .

فما يستدير رغيف ، حتى يعمل فيه عالم كثير ، من الملك الذي يسوق السحاب ، إلى أن تأكله .

ثم جعل لك ميلاً إليه ،وشوقاً بالطبع ، لانك لو رأيته ، ولم يكن لك إليه شوق،

لم تطلبه . فجعلت شهوتك إليه كالمتقاضي . فإذا أخذت مقدار الحاجة ، سكنت تلك الشهوة .

وكذلك شهوة الوقاع ، ليبقى النسل . وقد لا يكون ما تحتاج إليه في بلدك ، فيلقي الحرص في قلوب التجار فينقلونه إليك . فإذا تناولت الطعام ، ألقيته في دهليز الفم ، وبذلك لا يتهيأ ابتلاعه ، فخلق الأسنان تقطعه ، والأضراس تطحنه ، وجعل الرحى الأسفل يدور دون الأعلى ، لئلا يخاطر بالاعضاء الشريفة .

ولست ترى رحى قط يدور أسفلها .

ولما كان المطحون يفتقر الى تقليب ليطحن به مالم يطحن ، خلق اللسان ايقلبه ،ثم لا سبيل إلى بلعه إلا أن يزلق بنوع رطوبة ، فانظر كيف خلق تحت اللسان عيناً يفيض اللعاب منها بقدر الحاجة ، فيعجن بها الطعام .

ألا تراها إذا دنا منك الطعام ، تنهض للخدمة ، فتنحلب . ثم هيأ المريء والحنجرة لبلعه ، فيهوي في دهليز المريء إلى المعدة ، فيطحن هناك ويصير مائعاً ، ثم تصبغه الكبد بلون الدم وتنضجه ، فينبعث إلى الاعضاء في العروق ما يحتاج اليه .

ولو ذكرنا الظواهر من النعم ، لمضت أيام ولم نحط بمعشارها .

فيا غافلاً عن النعم ، زاحمت بالغفلة النعم ، ما تعرف من الطعام إلا الأكل ؛ ولا من الماء إلا الشرب ، وتتكاسل عن لفظ الحمد ، ثم تنفق النعم على معاصي المنعم .

يا عديم العقل وليس بمجنون ، يا راقداً في غفلتة وليس بنائم ، يا ميتاً في حياته وليس بمقبور ، افتح بصر البصيرة ترى العجائب ، وإن ترقيت بفهمك ، علمت أن مابين يديك أعجب ، وإنما هذه الدار كالمكتب ، يخرج منه الصبيان من حاذق ومن غافل لم يتعلم .

الموت في كل حين ينشر الكفنا	ونحن في غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وزخرفها	ولو توشحت من أثوابها الحسنا
أين الأحبة والجيران ما فعلوا	أين الذين هم كانوا لنا سكنا

سقاهم الدهر كأساً غير صافية فصيرتهم لأطباق الثرى رهنا

يا هذا ، كم أناديك فلا تسمع ، كم أحركك فلا تتبع ، كم أهددك ولا تخشع ، يا عبد السوء ما تجيء حتى تسحب ، ولا تبكي حتى تضرب .

وإذا احتضر العاصي ، تشبثت الروح بالجسد ، تقول : أنت أوقعتني . فإذا احتضر المطيع ، تشبث الجسد بالروح ، يقول : خلصني كما تخلصت .

مواد الخلق مختلفة ، هذا المبكر في جمع الحطام ، والهوان يناديه .

أذل الحرص أعناق الرجال .

وهذا يحمل السلاح في طلب الدنيا ، والتوبيخ يصيح به .

تفانى الرجال على حبها وما يحصلون على طائل

وآخر ليس له همة إلا آخرته « كأنه علم في رأسه نار » إذا عارضته الشهوات العاجلة صاح عليها :

ما الحب إلا للحبيب الأول .

وإذا رأى من قلبه ميلاً الى الفاني ، وضع الهوى مواضع التعب ، فهو قائم بالنهار على قدم المراقبة .

كأن رقيباً منك ، يرعى خواطري .

فإذا جن الليل ، طرب إلى مواطن المناجاة .

لك يا منازل في القلوب منازل .

فإذا أحس بركب هل من سائل ؟ رماه سهم الشوق على الجادة .

سهم أصاب ورامية بذي سلم .

فإذا رقى إلى مقام المحبة ، ألقاه الحب حرضاً على فراش التلف .

يا ويح قلبي من تقلبه أبداً يحن إلى معذبه

قف مع الأحباب ولو لحظة ، صاحب قوم الدجى ولو ساعة ، لو خرجت إلى صحراء الجد ، رأيت ركائب المجتهدين يحدي بهم حاديهم ، ينادي في ظلام الدجى .

وإنا لنرضى أن يصدوا ويقربوا فردوا لنا ذاك الوصال كما كنا

وواجدهم يصيح :

أيعلم خال كيف بات المتيم .

والعارف يترنم :

« ساكن في القلب يعمره » .

قال سري : بقيت ثلاثين سنة أدور وأجول ، لعلي أرى ولياً من الأولياء . كان المريد يخرج من دار الحسن ، فيدخل بيت ابن سيرين ، فلما رحلا ، صار يدخل إلى بيت مالك بن دينار ، ويخرج إلى بيت ثابت البناني ، فلما رحلا ، تسلى بزيارة ضيغم ، وتعلل بدار شعوانة . فلما ذهبا ، صار يقتدي بحزن سفيان ، ويتلمح أطلال رابعة .

أحقاً رأيت بوادي الغضا من الحي أو من رآهم خبر

أمالي سبيـــل إلى نظرة تعاد إلينا كلمح البصر

كانوا يجتهدون في إخفاء أعمالهم ، كما يجتهد المرائي في إظهارها .

كان ابن سيرين إذا مشى في السوق ، هلل الناس وكبروا ، وإذا قوي انزعـــاج الواجد ، أزعج من لا وجد عنده (ياجبال أوبي معه ، والطير) سبأ : ١٠ . حن الجذع إلى رسول الله ﷺ وبركت ناقته لثقل الوحي .

يابعيداً عن الصالحين ، تسأل عن حالهم ، وتجانب جميع أفعالهم ، ويحك مابباب القرب بواب ، ولادون كعبة الوصال حجاب ، ولا على عروس المحبة نقاب ، من عاملنا ربح ، ومن شرب من كأس حبنا روي ، ومن أصغى باليقظة دعي .

أحن إلى العقيق وساكنيه حنين الحائمات إلى الورود

سقى ذاك الزمان وإن تولى مدامع كن من بحر الرعود

كفى حزناً مدى الأيام أني عن الأحباب بالمرمى البعيد

فصل

في قوله تعالى : (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنهـا) الأعراف : ٣٦ . الآيات : الحجج والأعلام التي تدل على وحدانية الخالق سبحانه ، ونبوة أنبياءه (واستكبروا عنها) أي : تكبروا عن الإيمان بها (لاتفتح لهم) أي : لأرواحهم (أبواب السماء) والأحاديث تشهد به .

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الميت تحضره الملائكة ، فإن كان الرجل صالحاً ، قالوا : اخرجي أيتهـا النفس المطمئنة ، كانت في الجسد الطيب ، أخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غيرَ غضبان . قال : فلا تزال يقال لها ذلك ، حتى تخرج . ثم يعرج بها الى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا؟ فيقال : فلان ، فيقولون : مرحباً بالنفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، أدخلي حميدة ، أبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان .

وإذا كان الرجل السوء ، قال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا تزال يقال لها ذلك ، حتى تخرج ، ثم يعرج بها الى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنه لا تفتح لها أبواب السماء ، فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر » .

قوله تعالى : (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) الاعراف : ٤٠ . الجمل : الحيوان المعروف . والخياط : الإبرة . وسمها : ثقبها . والمعنى : لايدخلون الجنة أبداً .

وهذا كما تقول العرب : لا أكلمك حتى يشيب الغراب . (وكذلك نجزي المجرمين) يعنى : الكافرين ، والمعنى : أنهم لايدخلون الجنة . (لهم من جهنم مهاد) وهو الفراش (ومن فوقهم غواش) وهو اللحف . والمراد : ما يغشاهم من النار .

فياأيها العاصي ، مثل نفسك في زاوية من زوايا جهنم ، وأنت تبكي الليل والنهار ، وأبوابها مغلقة ، وسقوفها مطبقة ، وهي سوداء مظلمة ، لارفيق تأنس به ، ولا صديق تشكو إليه ، ولا نوم فيريح ، ولا نفس به تستريح .

قال أبو موسى رضي الله عنه : يبكي أهل النار الدموع حتى تنقطع ، ثم يبكون الدماء ، حتى لو أرسلت فيها السفن لجرت .

سبحان من قضى عليهم بهذا المعاش ، يبكون ولا ينفع البكاء والإجهاش ، أكثر حسراتهم الماء ، والكل عطاش (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) .

غضب عليهم ذو القدرة ، فأنفذ فيهم أمره ، مايقدرون على قطرة ولا على رشاش (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) .

يتلقون بوجوههم النار ، قد غلت اليمين واليسار ، وافتقروا بعد الغنى واليسار ، وذهبت حيلة الجبار البطاش (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) .

عذابهم ملازم مشابك ، والهم متصل متدارك ، الحي من أولئك كأنه ماعاش (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) .

لا من الأحياء هم ولا من الأموات ، يتقلبون في أنواع من البليات ، تخرج عليهم العقارب والحيات ، خروج الطير من الأعشاش (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) .

لاتسأل عن صفاتهم ، ولا تستخبر عن حالاتهم ، استخرج العذاب جميع لذاتهم في الدنيا بمنقاش (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) .

سدت في وجوههم الابواب ، ونسيهم الأهل والاصحاب ، وكلما جاءهم نوع من العذاب ، حار العقل وطاش (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) .

ياضيق تلك الحبوس ، ياحسرة ذلك المحبوس ، يتقلبون في أقبح بؤس ، منكسين الرؤوس ، بعد طول الهشاش . (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش)

يقطعون أنفسهم بالملام ، ولا يسمع لهم عذر ولا كلام ، وهم في ليل شديدالظلام لاضوء للأغباش (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) .

قد علم كل منهم أنه مقيم قاطن ، ورجاؤهم للخلاص مأيوس شاطن ، وقد توغل لهم العذاب في البواطن في دواخل المشاش . (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) .

فتهيأ أيها العاصي للظى ، فمالك من عمل يصلح للرضى ، يامن عمره كله قد مضى في لاش . (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) الأعراف : ٤١ .

فتب ياهذا واستدرك مافات، واسأل مولاك أن ينقذك من الهفوات ، فهو المرجو لدفع الشدائد وكشف الكربات ، فمن أنقذه بتوبة فقد عاش .

اللهم سلمنا من عذاب النار ، واغفر لنا جميع الأوزار ، واصرف عنا شر الأشرار وتوفنا مع الأبرار ، واكفنا همّ المعاد وهمّ المعاش .

اللهم وفقنا توفيقا يقيناعن معاصيك ، وارشدنا برشدك حتى ترشدنا الى مايرضيك ، واجعلنا ممن توكل عليك فكفيته ، واستهداك فهديته ، واستنصرك فنصرته ، وتضرع إليك فرحمته ، إنك جواد كريم ، رؤوف رحيم ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، آمين .



المجلس الثالث والخمسون

في ذكر الخوف

الحمد لله الذي عن قضائه تصدر الحوادث، ومن سطوته تنزعج البواعث، ومن خيفته تسكن العوابث، وإلى بابه يرجع المخالف الناكث، أحمده على كل حال حادث، وأقر بأنه الأول وأنه الوارث، وأصلي على رسوله محمد الذي جد في التبليغ غير رائث، (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) الأعراف: ١٥٧. صلى الله عليه وعلى أصحابه أبي بكر المقيم معه في حياته وفي مماته الماكث، وعلى عمر الذي زعزع كسرى وهو في المدينة لابث، وعلى عثمان الذي كان طول الليل للقرآن يحادث، وعلى علي الذي إذا بارز نسي أبو الحارث، وعلى سائر آله وأصحابه الذين لا يبغضهم إلا كل مارق عابث، وسلم تسليماً.

قال الله تعالى (وخافون إن كنتم مؤمنين) آل عمران: ١٧٥. فالخوف واجب على كل مؤمن وهو واقع بأسباب.

فمنها الخوف بسابق الذنوب، ومنها حذر التقصير في الواجبات، ومنها الخوف من السابقة أن يكون على مايكره، ومنها خوف الإجلال والتعظيم، ومن تفكر فيمن قضي عليه في السابق، لم يزل منزعجاً خائفاً خوفاً لايملك رده.

وروي عن عبد الله بن عمر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: هل تدرون ماهذان الكتابان؟ قلنا: لا، فقال للذي في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين تبارك وتعالى، بأسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، لايزاد فيهم ولاينقص منهم أبداً، ثم قال للذي في يساره: هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً».

وفي « الصحيحين » من حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الرجل ليعمل بعمل الجنة ، وإنه لمن أهل النار » . وأما خوف الإجلال ، فكخوف الملائكة .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته ، مامنهم ملك تقطر دمعة من عينه إلا وقعت ملكاً يسبح الله ، فإذا كان يوم القيامة ، قالوا : سبحانك ماعبدناك حق عبادتك » .

وقال يزيد الرقاشي : إن لله ملائكة حول العرش تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة يميدون كأنها تنفضهم الريح من خشية الله ، يقول لهم الرب عز وجل : ما الذي يخيفكم ؟ فيقولون : لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه ، ما أساغوا طعاماً ولا شراباً .

وبكى آدم عليه السلام لما أخرج من الجنة ثلاثمائة عام ، وكذلك بكى نوح لما عوقب في ابنه .

وكان الخليل عليه السلام إذا قام في الصلاة ، يسمع لصدره أزيز من شدة الخوف ، وكذلك كان نبينا ﷺ ، وكذلك خوف الصحابة رضي الله عنهم ، فكان أبو بكر رضي الله عنه يقول : ليتني شجرة تعضد .

وكان عمر رضي الله عنه يسمع الآية فيمرض أياماً .

وقال عثمان رضي الله عنه : وددت أني إذا مت لا أبعث .

وكان أبو عبيدة رضي الله عنه يقول : وددت أني كنت كبشاً يأكلني أهلي .

وقال عمران بن الحصين رضي الله عنه : ياليتني كنت رماداً تذروه الرياح .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : ليتني كنت تبنة .

وقالت عائشة رضى الله عنها : ليتني كنت نسياً منسياً .

وكذلك خوف التابعين ومن بعدهم .

قال هرم بن حيان : وددت أني شجرة أكلتني ناقة ولم أكابد الحساب ، إني أخاف الداهية الكبرى .

وكان علي بن الحسين رضي الله عنهما : إذا توضأ اصفر وتغير لونه ، ويقول أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم ؟

وكان الحسن رحمه الله ، كأنه أسير قدم لتضرب عنقه . وكان يقول : مايؤمنني أن يكون اطلع على بعض ذنوبي ، فقال ، إذهب لاغفرت لك .

وكان طاوس يفرش فراشه ثم يضطجع عليه ، ثم يثب فيدرجه ويقول : طير ذكر جهنم نوم العابدين .

وصلى زرارة بن أوفى بأصحابه صلاة الغداة ، فلما قرأ (فإذا نقر في الناقور) خر ميتاً .

وقال يزيد بن حوشب : ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز ، كأن النار لم تخلق إلا لهما .

وقال ابن السماك : دخلت على عابد فقال : إن للناس موقفاً لابد أن يقفوه ، فقلت : بين يدي من ؟ فشهق فمات .

فهذا خوف القوم ونحن أحق بالخوف منهم غير أن الخوف يكون بمقدار صفاء القلوب ، وقوة المعرفة ، وإنما أمنا لغلبة الجهل ، لكن إذا اشتد خوف المؤمن لذنب تقدم منه ، فليرج العفو ، ليحذر القنوط ، وليعلم أن مراد الحق منه التوبة والاستغفار .

روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن إبليس قال لربه عز وجل : وعزتك وجلالك ، لاأبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم . فقال الله عز وجل : وعزتي وجلالي ، لاأبرح أغفر لهم ما استغفروني » .

كفى مؤذنا باقتراب الأجل ... شباب تولى وشيب نزل

وموت الاقران وهل بعده ... بقاء يؤمله من عقل

إذا ارتحلت قرناء الفتى ... على حكم ريب المنون ارتحل

فياويح نفسي أما ترعوي ... فقد ذهب العمر إلا الأقل

إخواني : حزن التائب طويل المدد ، قلق المذنب متصل المدد . قال عطاء السلمي رحمه الله تعالى : خرجنا مع عتبة الغلام ، وفينا كهول وشباب ، يصلون الفجر بوضوء

العشاء ، فتورمت أقدامهم من طول القيام ، وغارت أعينهم في رؤوسهم ، ولصقت جلودهم على عظامهم ، وكأنهم خرجوا من القبور ، فبينما هم يمشون ، إذ مر بمكان ، فخر مغشياً عليه ، فجلس أصحابه حوله يبكون في يوم شديد البرد ، وجبينه يرشح عرقاً ، فلما أفاق سألوه عن حاله ، فقال : إني عصيت الله في هذا المكان .

يامعاشر المذنبين ، ألا تستحيون من قلة الحياء ، فالحر تكفيه الملامة ، إلى متى تمشون على وجوهكم ، إلى ما يسقط جاهكم .

ياهذا ، كنت في الشباب على راحلة ، هي القوة وأنت في الكهولة ماش ، فبادر المجاهدة قبل زحوف الهرم .

من لم يقم للمجد قبل مشيبه   وخمود شرته فليس بقائم

قف على الباب باكياً ، وارفع قصة الندم شاكياً ، ونادي في نادي الأسى بصوت من قد أسا .

أنا السيء المذنب الخاطيء

مابقي في يديك إلا البكاء ، ولا لقلبك إلا التحسر ، ولا لفؤادك إلا القلق .

البدار البدار ، فقد ضاق الوقت .

من عرف جزيل مافات ، وقليل ماحصل ، يبكي على قبيح الغين ، أمر الفراق ما كان بعد الوصال ، كما أن أشد الظلمة ما كان بعد الضوء ، لو لم ير آدم الجنة ، لهان عليه العيش الخشن ، لكنه أذيق حلاوة الرضاع ثم بغته الفطام ، كان كلما تذكر ما كان فيه ، ترقى القلب بريح الزفرات إلى فيه ، ألف وطن النعيم ، فاغترب ولقي في سفره من الغربة العجب .

وكان يكتب إلى وطنه بمداد الدمع ، ويبعث المكتوب مع الصعداء .

أيا فنن الأرطاة حييت من فنن   ووقيت صرف الحادثات من الزمن

تذكرت طيب العيش إذ نحن جيرة   بقربك والذكرى تهيج ماسكن

ليالي من طيب الرقاد سهادها   أحب إلى الوسنان من لذة الوسن

كان جبريل عليه السلام يرثي لبكائه ، وإذا رآه يقلق يسأله عن حاله ، ولسان حاله يقول :

إني وحقك منذ ارتحلت	نهاري حنين وليلي أنين
وإني وحبك مذ بنت عنك	فؤادي حزين ودمعي هتون
فلله أيامنا الخاليات	لوردو سالف دهر حنين
اذا قلت أسلوك قال الغرام	هيهات ذلك ما لا يكون
وهل لي الى سلوة مطمع	وصبري خؤون ودمعي أمين

فصل

في قوله تعالى : (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل)الاسراء:١٠٥. الهاء كناية عن القرآن ، والمعنى : أنزلنا القرآن بالأمر الثابت ، والأمر المستقيم ، فهو حق ونزوله حق ، وما تضمنه حق .

وقال أبو سليمان الدمشقي : وبالحق أنزلناه : أي بالتوحيد . وبالحق نزل : يعني : الوعد والوعيد ، والأمر والنهي .

هذا هو الكلام القديم ، هذا كلام السميع العليم ، هذا الذي منه (ألم) تكلم به في الأزل (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) .

هذا كلام الرحمن ، هذا المسموع بالآذان ، هذا الدليل والبرهان ، هذا الذي إذا سمعه الشيطان ، ولى واعتزل (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) .

هذا كلام ذي العزة والعلى ، هذا الذي أعجز جميع الفصحاء ، هذا الذي تكلم به في الأزل ، من يزال ولم يزل (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) .

هذا الذي حيّر الألباب ، فلما قصد مسيلمة الكذاب ، معارضته ومناقضته خاب ، أتراه لعب أو هزل ؟ (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) .

يدفع غواة الناس والجنة، ويصل بتاليه الى الجنة ، ولقد ولي أهل السنة وأهل البدعة عزل .

قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) المراد : أنك تبشر المؤمنين بالجنة ، وتنذر الكافرين بالنار (وقرآناً فرقناه) .

قال ابن عباس رضي عنهما : بيّنا حلاله وحرامه .

وقال الحسن : فرقنا فيه بين الحق والباطل (لتقرأه على الناس على مكث) أي : على تؤدة وترسل (ليدبروا معناه ونزلناه تنزيلاً قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) هذا تهديد لكفار مكة (إن الذين أوتوا العلم من قبله) وهم ناس من أهل الكتاب (إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجّداً) اللام بمعنى : على . والذقن : مجتمع اللحيين (ويقولون سبحان ربنا) نزهوا الله عز وجل عن تكذيب المكذبين بالقرآن (وقالوا إن كان وعد ربنا) بإنزال القرآن ، وبعث محمد ﷺ (لمفعولاً) وهؤلاء قوم كانوا يسمعون أن الله تعالى باعث نبياً من العرب , ومنزل عليه كتاباً ، فلما عاينوا ذلك حمدوا الله تعالى على إنجاز الوعد (ويخرّون للأذقان) يبكون . كرر القول ، ليدل على تكرار الفعل منهم (ويزيدهم) القرآن (خشوعاً) الاسراء :١٠٩. أي : تواضعاً .

قال عبد الأعلى التيمي : إن من أوتي من العلم مالا يبكيه لخليق أن لا يكون أوتي علماً لان الله تعالى نعت العلماء وقال : (إن الذين أوتوا العلم) الى قوله : (يبكون) .

واعلم أن البكاء دليل الخوف والخشية ، وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » منهم رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله ، حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ، ودخان جهنم » .

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : « كلُّ عين باكية يوم القيامة إلا عينٌ غضت عن محارم الله ، وعين سهرت في سبيل الله ، وعين يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله » .

وقال الحسن رحمه الله تعالى : لو بكى عبدٌ من خشية الله ، لرحم من حوله ، ولو كانوا عشرين ألفاً .

وقال مالك بن دينار : البكاء على الخطيئة يحط الذنوب كما تحط الريح الورق اليابس .

وكان مجرى الدموع من خد ابن عباس رضي الله عنهما كالشراك البالي .

وكان سعيد بن جبير يبكي بالليل حتى فسدت عيناه .

وبكى عمر بن عبد العزيز حتى بكى الدم . وكذلك فتح الموصلي .

وكان عطاء السلمي يبكي بالليل والنهار ، فعوتب على كثرة بكائه ، فقال : إني إذا ذكرت أهل النار وما ينزل بهم من العذاب ، مثلت نفسي بينهم ، فكيف بنفس تغل يدها إلى عنقها ، وتسحب إلى النار ، لا تصيح ولا تبكي .

وكان أمية الشامي ينتحب في المسجد ، فأرسل إليه الأمير : إنك لتفسد على المصلين صلواتهم ، فبكى وقال : إن حزن القيامة أورثني دموعاً غزاراً ، فأنا أستريح إلى ذرفها أحياناً .

كلما عنَّفوك عني ولاموا ... عصف الوجد بي ولجَّ الغرام
يتجافى الرقاد عن جفن عيني ... فكأن الكرى عليها حرام
وإذا مدة الوصال تقضَّت ... فعلى لذة الحياة السلام

قلقهم ليس فيه سكون ، وهكذا الخائف يكون ، وهم الوجد إلى الحبيب سكون (ويخرون للأذقان يبكون) حملوا بالنهار عطشاً وجوعاً ، وسهروا بالليل سجوداً وركوعا ، وأسكبوا على تقصيرهم وما قصروا دموعاً (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) الإسراء : ١٠٨-١٠٩

قطعوا النهار صائمين ، وأظلم الدجى لا على نائمين ، فتراهم بالليل قائمين قد رفضوا هجوعا (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) .

صبروا عن عاداتهم في طلب سعاداتهم ، فلو سمعتهم في خلواتهم يشكون من صباباتهم ولوعاً (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) جدوا في الطاعة واجتهدوا ، وقاموا بالأوامر فما قصدوا ، وهم يؤثرون بما وجدوا لا ترى فيهم منوعا (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) سلوا في حرب الهوى نصولا ، ونالوا إلى الهدى وصولاً ، وصفت نياتهم فطابت أصولا ، وطابوا فروعاً (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً)

وقعوا على الحقيقة بالمطلب ، ورووا بعد العطش من ألذ مشرب ، فأخبارهم أشرف ما يذكر ويكتب ، وأحسن ما يوعى (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) .

اللهم اسلك بنا سبيل التوفيق ، وأجرنا من الخذلان والتعويق ، وأيقظنا من نوم الغفلة ، ونبهنا لاغتنام أوقات المهلة ، واستعمل في طاعتك جميع جوارحنا ، واعصمنا من ذنوبنا وقبائحنا ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين آمين .



المجلس الرابع والخمسون

في ذكر النية والاخلاص

الحمد لله المطلع على ظاهر الأمر ومكنونه ، العالم بسر العبد وجهره وظنونه ، المتفرد بإبداع العالم وانشاء فنونه ، ويقول للشيء كن فيكون ، بين كافه ونونه .

فطر الخلائق على ارادته ، ودبر الكل بمقتضى حكمته ، وأجراهم في التصريف على مشيئته ، وقدر حال كل منهم في حركته وسكونه ، أحسن انشاء ماخلق ، وفتق الأسماع وشقّ الحدق ، وأحصى عدد مافي الشجر من الورق في أعواده وغصونه .

مدّ الأرض ووضعها ، وأوسع السماء ورفعها ، وسيّر النجوم وأطلعها في حندس الظلام ودجونه .

أنزل القطر وبلا ورذاذاً ، فأنقذ به البذر من اليبس انقاذا (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) لقمان : ١١ .

أحمده على وجوده واحسانه ، وأقر أنه لا شريك له في سلطانه ، وأن محمداً عبده ورسوله المبعوث ببرهانه ، الى جاحد الحق وخؤونه ، صلى الله عليه وعلى أبي بكر صاحبه في جميع شأنه ، وعلى عمر مقلق كسرى في سلطانه ، وعلى عثمان ساهر ليله بقرآنه ، وعلى علي قالع باب خيبر ومزلزل حصونه ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين اجتهد كل منهم في الطاعة في حركاته وسكونه ، وسلم تسليماً .

قال الله تعالى : (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) البينة : ٥ .

الإخلاص : قصد القلب وجه الرب عزّ وجل . والأعمال انما تصير معتداً بها اذا كانت بنيّة ، والنية ليست أن يقول الإنسان : نويت أن أفعل كذا لله ، وانما النية قصد القلب لا قول اللسان .

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، أرأيت الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، فأي ذلك في سبيل الله عز وجل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الله لاينظر إلى صوركم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

انفرد باخراجه مسلم . واتفقا على الذي قبله .

وفي « الصحيحين » من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « من هم بحسنة فلم يعملها ، كتبت له حسنة » .

وعن أبي كبشة الأنماري قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل هذه الأمة ، مثل أربعة نفر ، رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل به في ماله ينفقه في حقه ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً ، فهو يقول : لو كان لي مثل مال هذا ، عملت فيه مثل الذي يعمل . قال رسول الله ﷺ : فهما في الأجر سواء . ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً ، فهو يخبط فيه ينفقه في غير حقه ، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل ، قال رسول الله ﷺ : فهما في الوزر سواء » .

وقال اسماعيل بن أبي خالد : أصابت بني اسرائيل مجاعة ، فمر رجل على رمل ، فقال : وددت أن هذا الرمل دقيق ، فأطعمه بني اسرائيل ، فأعطي على نيته » .

وقال الثوري : كانوا يتعلمون النية للعمل ، كما يتعلمون العمل ، فكان بعضهم يقول : دلوني على عمل لا أزال به عاملا لله تعالى ، فقيل له : إنو الخير ، فإنك لاتزال عاملا ، وإن لم تعمل ، فالنية تعمل ، وإن عدم العمل ، فإنه من نوى قيام الليل فنام ، كتب له ثواب مانوى .

قال النبي ﷺ : « مامن رجل تكون له ساعة من الليل يقومها فينام عنها ، إلا كتب الله له أجر صلاته ، وكان نومه عليه صدقة تصدق به عليه ، وكذلك إذا نوى المعاصي عازماً عليها عليه وزرها » .

واعلم أن الناس في النيات على ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : أن ينوى بالعمل وجه الله عز وجل ، فهذا هو المخلص ، وعلامته أن لا يحب أن يعرف ، لأنه عمل لله تعالى فلا فائدة في إظهار العمل إلا أن يكون في الاظهار نية . قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : لم تجهر ؟ فقال : أطرد الشيطان ، وأوقظ الوسنان .

الطبقة الثانية : من ينوي العمل لله ويشوب ذلك قصد الخلق تباعاً لا أصلا .

فالطبقة الأولى ، ناجون قطعاً ، وأهل هذه الطبقة في مقام خطر ، وظاهر الأحاديث تدل على فساد العمل المشوب .

فقد روى مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى ، فأنا منه بريء ، وهو للذي أشرك » خرج إبراهيم ابن أدهم يزور أخاً له ، فرأى ثوباً يباع ، فقال : إنه لمن حاجتي ، ولكن أكره أن أخلط زيارتي بغيرها .

وكان سهل بن عبد الله يقول : أشد شيء على النفس الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب .

وقال بشر الحافي : سمعت خالداً الطحان يقول : اتقوا سرائر الشرك ، قلت : ماهي ؟ قال : أن يسجد أحدكم فتلحظه العيون ، فيطيل السجود .

والطبقة الثالثة : هم أهل الرياء وهم الهالكون قطعاً .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد ، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ماعملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى قتلت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال هو جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال ماعملت فيها ؟ قال : تعلمت فيك العلم وعلمته ، وقرأت القرآن ، فقال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال : هو عالم وقرأت القرآن

ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها: فقال: ماعملت فيها؟ فقال: ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها، إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار».

وقد يرائي الإنسان بإظهار النحول، ليريهم بذلك أنه مجتهد في العبادة، ويرائي بتشعث الرأس وإطراقه، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب وتشميرها وتوسخها ولبس الصوف والمرقع.

وقد يقع الرياء للعلماء بإظهار الحفظ، لبيان غزارة العلم، وللعبّاد بتحريك الشفتين بين الجمع، إظهاراً للذكر، وبخفض الصوت ليدل على الخوف والحزن.

ولما علم السلف شر الرياء والعمل المشوب، اجتهدوا في إسرار العمل ليصفوا.

قال عيسى عليه السلام: إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن لحيته، وليمسح شفتيه، حتى يخرج إلى الناس فيقولوا ليس بصائم.

وكان أبو وائل إذا صلى في بيته، ينشج نشيجاً ولو جعلت له الدنيا على أن يفعل وأحد يراه لم يفعل. وقالت سرية الربيع بن خيثم: كان عمل الربيع كله سراً، إن كان يجيىء الرجل. وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه، وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يصلي، فإذا دخل الداخل نام على فراشه.

وقال محمد بن واسع: لقد أدركت رجالاً كان أحدهم يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، قد بل ما تحت خده من دموعه لاتشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف، فتسيل دموعه على حده ولا يشعر الذي إلى جنبه. وإن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لاتعلم.

فخلصوا إخواني أعمالكم من الشوائب، وصححوا قبل السلوك المقاصد، واحذروا العمل للخلق، إنهم لن يغنوا عنكم من الله شيئاً.

أرأيت ما صنعت يد الأحداث　　　في الشيب والشبان والأحداث

أوذي المعافى منهم والمبتــلى　　　وأخو الصلاح وذو الفساد العاثي

وإذا الذي جمعوه طول حياتهم　　　نهب العدى أو قسمة الوراث

خلطتهم بعضاً ببعض أرضهم　　　ما بين ذكران وبين إناث

لكنهم عند الحساب يميزوا　　　من طيبين وآخرين خباث

يا من يسر بماله لك في الثرى　　　بيت ستسكنه بغير أثاث

عجباً للطرف كيف اغتمض ، وللمكلف ما حقق المفترض ، كلما بنى على أن يلوذ بنا ، نقض ، يا من إذا لاح له صيد الفاني ركض ، يا من إذا قدر على جيفة الدنيا ربض ، يامشغولاً عن الجوهر بما عرض من عرض ، أتؤثر ما يفنى على ما يبقى؟ هذا هو المرض ، تالله ما الدنيا إلا كسوق ، سرعة انقضائها تحكي البروق ، إنها طريق للموت فيها طروق ، لا تعجبنك فإنها للجاهل تروق ، كم عذبت من محب وقتلت من مشوق ، حلاوتها ممزوجة بالمر ، أما تذوق؟ جيفة مستورة بالطيب والخلوق .

فكم طالب أمراً وفيه حمامه　　　وسارية تسعى إلى ما يضرها

أما ينهك هذا الزجر ، أما يؤلمك طول الهجر ، أما ثمّ نية في طلب الأجر ، إلى متى أنت في ثياب الغدر ؟ أما تحث العقل على الصبر ، مالي أراك تلعب بالجمر ، ياسكران الهوى لا بالخمر ، رحل ليل الشباب وهذا الفجر ، وفني الموسم وما ربح التجر ، يا عجيب الحال ياطريف الأمر ، كيف يحصد من لا له بذر ، ويحك من عليه عين تراقب عينه ، وحفيظ يحصي أعماله ، كيف لا يحذر ؟ .

كان سفيان الثوري يقول لنفسه : يا سفيان ؛ أين تكون إذا قيل يوم القيامة : أين القراء الفسقة ؟ ثم يبكي .

دخل رجل على داود الطائي فقال له : ما حاجتك ؟ قال : زيارتك ، فقال : أمّا أنت فقد فعلت خيراً حين زرت ، ولكن انظر ما ينزل بي أنا ، إذا قيل لي : من أنت

لتزار ؟ أنت من الزهاد لا والله ! أم من العبـاد لا والله ؛ أم من الصالحين لا والله ، ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول : كنت في الشبيبة فاسقاً ، فلما شبت صرت مرائياً ، والمرائي شر من الفاسق .

يا هذا ؛ انتبه لنفسك قبل حبسك ، واقلع عن ذنبك راجعاً إلى ربـك ، تزود لسفرتك قبـل نزول حفرتك .

أمط عنك ذكر اللهو فالعيش بلغة وكل بقـاء لا يدوم فنـاء

فصل

في قوله تعالى : (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) فاطر: ٣٧.

في مقدار هذا التعمير أربعة أقوال .

أحدها : سبعون سنة . الثاني : ستون سنة . الثالث : أربعون سنة .

قال مسروق : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من الله عز وجل .

وقال وهب بن منبه : قرأت في بعض الكتب : أن منادياً ينادي من السماء الرابعة كل صباح : أبناء الأربعين ؛ زرع قددنا حصاده ، أبناء الخمسين ؛ ماذا قدمـتم وماذا أخرتم ؟ أبناء الستين ؛ لاعذر لكم ، ليت الخلق لم يخلقوا ، وإذا خلقوا علموا لماذا خلقوا .

القول الرابع : ثماني عشرة سنة .

وفي النذير أربعة أقوال .

أحدها : أنه الشيب . والثاني : أنه النبي ﷺ. والثالث : موت الأهل والأقارب : والرابع : الحمى .

يا هذا ؛ انتظر صيحة الإزعاج ، فما أسرع ما تأتي . تالله مـا للعمر ثمن ، وأنت تفرط فيه .

لهفي على عمـــر ضيعت أوله ... وغال آخره الإسقام والهرم

كم أقرع السن بعد الفوت من ندم ... وأين يبلغ قرع السن والندم

قال الحسن رحمه الله لجلسائه : يا معشر الشيوخ ؛ ما ينتظر بالزوع إذا بلغ . قالوا : الحصاد . قال : يا معشر الشباب ؛ فإن الزرع تدركه الآفة قبل أن يبلغ .

وكان سمرة بن جندب رحمه الله تعالى يقول : اتقوا شرة الشباب ، فإنما الشباب جنون .

ولما رأى إبراهيم الخليل عليه السلام الشيب قال : الحمد لله الذي أخرجـني من الشباب سالماً .

قد شاب رأسك وانقضى زمن الصبا ... وأراك غراً في البطالة تلعب

قال الشباب لعلنا في شيبنـا ... ندع الذنوب فما يقول الأشيب

قال الحسن رحمـه الله : أدركت أقواماً كان أحـدهم أشح على عمره منـه على درهمه وديناره .

يا ماشياً في ظلام الشباب إحذر العثار ، كأنك بصبح الشيب قد خلفه إذا دار ، وتلمح حال من أنت في طريقه أين صار ، هيهات فنيت المراحل ولاحت الدار .

الشيب عنوان المنيّـ ... ـة وهو تاريخ الكبر

وبياض شعرك موت شعـ ... ـرك ثم أنت على الأثر

وإذا رأيت الشيب حـ ... ـل الرأس فالحذر الحذر

أيها الشيخ مثل صرعة الموت قبل نزولها ، وتخايل ساعات الفراق قبل حـلولها ، فبادر لها بما يصلح قبل أن تلقاك بما يقبح ، ما لمياه العيون قد جمـدت ، ما لرياح العزائم قد ركدت ، ما لنيران الهمم قد خمدت .

يا من بقيت فيه بقية أدركها ، يا من قد ملكته نفسه املكها ، يا من أهلكته خطاياه اتركها ، فرق همك جمع الأموال فلا تجمعها ، تركتك شهوات الدنيا مع المقصرين فدعها ، ناطقتك العبر بسلب الغير فاستمعها .

جمع الحريص وماله ميراث غرراً بدار حبلها أنكاث
أصغي إلى ما حدثته وإنما تأتي بعيدحديثها الأحداث
أنظر الى خرّابها عمارها هذي القبور وهذه الأجداث
رؤيا المنام ورأي عينك مثله فإذا انتبهت كلاهما أضغاث

يا هذا ، تيقظ لنفسك ، واذكر زوالك ، ودع الأمل وإن طوى الدنيا وزوى لك ، فكأنك بالموت حيرك ، وأبدى كلالك ، ونسيك الحبيب لأنه أرادك لا لك ، وخلوت أسير ندمك تبكي خلا لك ، وأسفت على ضياع زمن خلا لك ،وشاهدت أمراً أفظعك وهالك ، تود أن تفديه بالدنيا لو أنها لك ، فتيقظ لنفسك ، وجانب آمالك ، واحذر أن تكون أعمالك أعمى لك ، وأن تصير أفعالك في القيامة أفعى لك ، واقنع بحلالك ، وإن قل وقد حلى لك ، واجعل الندم شعارك ، والتدارك سر بالك ، واطرق في الدجى باب الرجاء وقد أصلح المرتجى بالك .

لا تأمن الدهر الخؤو ن وخف بوادر آفته
فالموت سهم مرسل والعمر قدر مسافته

يا من يفرح بمر الأيام عليه ، والذي يمضي له عليه ، ان الساعات تقرض العمر قرضاً ، وتقبض مبسوط الآمال قبضا ، فيجف كل عود قد كان غضا ، وانما هي حواد يحدو بعضها بعضاً .

أفرح بالبرد إذا ما انقضى وفي زمان الحر بالحر
وفي انقضاء البرد والحر لو عقلت أمري ينقضي عمري

يا عجباً تعرفون المصير ، وما تعرفون التقصير ، تبهرجون على ناقد بصير ، وقد حذرتم غاية التحذير (وجاءكم النذير) أوما فيكم من يتفكر ؟فيرى أن الهوى قد عكر ، كلكم قد راح في الخطايا وبكر ، على التفريط والتبذير (وجاءكم النذير) أقبلت الآفات وسرت ،فقيدت الحركات وأسرت ،وقالت البلايا لما عرت ، بهذا جرت المقادير (وجاءكم النذير) كأنك بعين العين تجري ، وبسهام المنون تفري ، وأنت تقول ضيعت عمري ،

والطامة أنك ما تدري ، الى أين تسير ؟ (وجاء كم النذير) ألم نقل لكم قبل هذا ألم ألم نحذر كم من هذا الألم ؟ ألم نخوفكم من أسباب الندم ؟ ألم تعرفوا كيفيات التدبير؟ (وجاء كم النذير) ستعلمون من يقرع غداً سنه ، اذا وخزته من اللوم أسنه ، وظهرت الأهوال فشابت الأجنة (فريق في الجنة وفريق في السعير) (وجاءكم النذير).

اللهم يا من نعمه لا تحصى ، وأمره لا يعصى ؛ ونوره لا يطفى ؛ ولطفه لا يخفى ، نسأل منك الجود والإحسان ؛ والعفو والغفران ؛ والصفح والأمان يا عظيم يا منان ، يا أرحم الراحمين .



المجلس الخامس والخمسون

في ذكر اليقين

الحمد لله الذي ظهر لأبصار البصائر عياناً ، فامتلأت قلوب عارفيه به إيماناً ، ووهت أفئدة محبيه هياماً ، فعادت تطلب وصله من هجره أماناً ، الحي الباقي فلا يزول ولا يتفانى ، السميع البصير فهو يسمعنا ويرانا ، نحمده على مامنحنا وأولانا ، ونشكره وكيف لا نشكر مولانا ، ونشهد له بالوحدانية سراً وإعلاناً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله وشجرة الكفر قد فرعت أغصاناً ، فقطعها بمنجل مجاهدته ، وزرع من الحقائق بستاناً ، صلى الله عليه وعلى أصحابه الذين كانوا أنصاراً له على الحق وأعواناً (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً) الحجر: ٤٧. (أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً) الفتح: ٢٩. رزقنا الله محبتهم على الوصف الذي وصانا ، فمنهم أبو بكر الذي يوقد في قلوب مبغضيه نيراناً ، وعمر الذي جعل لعطاء المسلمين ديوانا ، وعثمان الذي كان يقطع الليل صلاة وقرآنا ، وعلي الذي نهواه معاشر السنة ويهوانا ، ماعلت الورق منابر الورق ورجعت ألحانا .

اللهم يامن عم البرايا جوداً وإحسانا ، لا تنسنا من الغفران ، فإنك في الرزق لا تنسانا ، وهب لنا رحمة منك تلقانا يوم تلقانا ، وارزقنا عز التقى ، فقد أكسبنا هوانا هواناً ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « نجى أول هذه الأمة باليقين والزهد ، ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل » .

وعن الحسن رحمه الله تعالى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الناس لم يؤتوا في الدنيا خيراً من اليقين والعافية ، فاسألوهما الله عز وجل » .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : ذرة بر من صاحب تقوى ويقين ، أفضل من أمثال الجبال من عبادة المغترين .

وقال رحمه الله : يا ابن آدم ، إن من ضعف يقينك أن تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عز وجل .

وقال أيضاً : إنا نوقن بالموت والحساب والجزاء ، ولا نعمل عمل موقن ، وكأننا في شك .

وكان شميط بن عجلان إذا وصف الموقنين يقول: أتاهم من الله تعالى أمرؤ ذادهم عن الباطل ، فأسهروا العيون ، وأجاعوا البطون ،وأظمؤوا الأكباد ،ونصبوا الأبدان، واهتضموا الطارف والتالد .

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقال لي : ياعبد الواحد ، إن أحببت أن تعلم علم اليقين ، فاجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد . وإذ قد بان فضل اليقين ، فاليقين في باب العلوم مالا يحتمل الشك ، وقد يقال : فلان ضعيف اليقين بالموت مع علمنا أنه لايشك فيه ، ولكن يراد بذلك ، العمل بمقتضى ما أيقن به .

والصالحون أيقنوا بالآخرة من حيث الدليل ، فلا يتداخلهم ريب ، واستعملوا الجوارح بمقتضى ما أيقنوا به ، على أن علوم الموقنين تزيد وتنقص على قدر قوة الدليل عندهم وضعفه ، وليس وضوح ماثبت بدليل ، كوضوح ماثبت بأدلة .

واعلم أن جميع الموقنين يوقنون بأن الله تعالى يراهم في جميع أحوالهم ، غير أن قوة اليقين والعمل بمقتضاه أظهر على الأولياء المراقبة ،والتأدب في القول والفعل ، كما يتأدب محاضر الملك. فاليقين شجرة ، وخصال الخير فروعها، فالعجب لموقن لايعمل بمقتضى يقينه.

وما أحسن ماقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن كنتم توقنون ، فأنتم حمقى ، وإن كنتم لاتوقنون فأنتم هلكى . وهذا لأن من أيقن بقصد السبع إياه ، وعلم أنه لانجاة له إلا بأن يفر ، فلم يبرح من مكانه ، فهذا في غاية الحمق ، فكذلك من أيقن بندمه على

تفريطه ، ثم دام عليه ، ميلاً إلى التسويف الذي هو فيه على خطر ، فإنه مغتر . فإن استدرك أمره بالعلاج ، وإلا نازله الندم في حال الفوت ، (ولات حين مناص) .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله ، إن رزق الله لايجره حرص حريص ، ولايرده كره كاره ، إن الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضى واليقين ، وجعل الغم والحزن في الشك والسخط » .

قصر بدنياك الأمل — من قبل إدراك الأجل
فلترحلن كمثل من — قد كان قبلك وارتحل
فاحذر وقوفك في غد — عند الحساب من الخجل
وقد اعترفت بما اقترفت — من الخطايا والزلل
فإلى متى هذا الفتور — وذا التواني والكسل ؟

كأنك بك ياذا الفعل المقيت ، وقد أخذك المهيمن المقيت ، فرماك في مرض لاتدري أطعمت أو سقيت ، ثم أنزلك قبراً لاتعلم أنزلت أم رقيت ، وقضى عليك بالبلى ، فلا حرست ولا وقيت ، وغيبك الثرى فأمسيت قد انتعيت ، ثم لايقدر أحد أن يصف مالقيت ، والطامة أنك لاتدري أسعدت أم شقيت ، يادرن القلب لو غسلت الذنب بالدمع نقيت ، يامخلطاً على نفسه لو حميتها ، يارامياً نبل الهوى إنما رميتها أصمتك مراميك وما أصميتها ، لقد عاينت من سبق وتأملت ، فالعجب بعده كيف أملت ، ويحك إنما أنت سار في خسار ما أبعد أملك ، وما أقرب أجلك .

أيا ملكاً نافذاً حكمه — لحكم الليالي توقع نفاذا
فكم من جماهير صيد الملو — ك صاروا اقصاصاً وصاروا اجذاذا
وهبك استويت على الخافقين — واحرزت هذا وهذا فماذا ؟

يابعيداً عن الأخيار ، يامصاحباً للأشرار ، ياسيء الاختيار ، لعلك خلقت للنار ، ويحك اذكر حبسك ، ويحك ارحم نفسك ، ذنوبك تحملك إلى جهنم ، والعقاب فيها

مايعلم ، فانتبه قبل أن تتقدم ، وتبكي على الفوات وتندم ، قال رجـاء بن ميسور المجاشعي : كنا في مجلس صالح المري فقال : إنك لو رأيت أهل المعاصي يساقون إلى الجحيم حفاة عراة ، ينادون ياويلنا ، أين يذهب بنا ؟ ثم صاح : ياسوء منظراه ، ياسوء منقلباه ، فقام فتى من الأزد فقال : أكل هذا في القيامة؟ فقال صالح : إي والله يا ابن أخي وما هو أكثر من ذلك ، لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع أصواتهم ، فلا يبقى منهم إلا كهيئة الأنين من المدنف ، فصاح الفتى : إنا لله ، واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة ، ويا أسفى على تفريطي في طاعتك ياسيداه . ثم بكى واستقبل القبلة وقال :

اللهم إني استقبلك في يومي هذا بتوبة لايخالطها رياء ،فاقبلني على ما كان مني ،واغفر لي ماتقدم من فعلي ، وأقلني عثرتي ، ثم سقط مغشياً ، فحمل صريعاً ، فمكث صالح وإخوانه يعودونه أياماً ، ثم مات . فرآه رجل في منامه فقال : ماصنعت ؟ فقال : عمتني بركة مجلس صالح ، فدخلت في سعة رحمة الله التي وسعت كل شيء .

ياهذا ، إنما يعظم قدر الدنيا عند من لاقدر له ، فأما من سمت همته ، فإنه لايرضى بدون . أما شر الدنيا فقد اتصل ، وأما خيرها فما وصل ، انظر طالبها علام حصل ؟ كل مفصل منه في القبر انفصل ، ويحك ان الباقي الذي ينتظر له الفناء كالماضي الذي قد أتى عليه القضاء .

أين أنت من أقوام أحبوا الخالق وحده ؟ فآثروا على الجمع الوحدة ، همتهم في تحصيل الزاد ، وغايتهم حصول الفوز في المعاد .

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : اذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ، ويهرب من الناس ، فاقربوا منه ، فإنه يلقّن الحكمة .

قيل لمحمد بن النصر : كأنك تكره أن تزار ؟ فقال : نعم ، فقيل له : ألا تستوحش ؟ قال : كيف أستوحش وهو يقول : أنا جليس من ذكرني ؟

وقيل لمالك بن مغول : أما تستوحش وحدك ؟ فقال : ما كنت أرى أن أحداً يستوحش مع الله عز وجل .

وقال مسلمة العابد : ماوجد المطيعون لذة في الدنيا أحلى من الخلوة بمناجاة موجدهم ، ولا أحسب لهم في الآخرة من الثواب أكبر في صدورهم ، وألذ في قلوبهم من النظر إليه ، ولولا الجماعة ، ماخرجت من بيتي حتى أموت .

أوحشتني خلواتي بك من كل أنيس — وتفردت فعاينتك بالغيب جليسي

ودعاني الوجد والحب إلى المعنى النفيس — فبدا لي أن مهر الحب أنفاس النفوس

فصل

في قوله تعالى : (والصافات صفاً) الصافات : هم الملائكة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الملائكة صفوف في السماء لا يعرف كل ملك منهم من إلى جنبه ، لم يلتفت منذ خلقه الله عز وجل .

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني أرى مالا ترون ، وإني أسمع مالا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً » .

وقوله تعالى : (فالزاجرات زجراً) فيه قولان .

أحدهما : أنها الملائكة تزجر السحاب . والثاني : أنها زواجر القرآن ، وكل ماينهى عن القبيح .

وفي (التاليات ذكراً) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الملائكة تقرأ كتب الله . والثاني : أنها الرسل . والثالث : ما يتلى من القرآن من أخبار الأمم . وهذه أقسام جوابها : (إن إلهكم لواحد) سبحانه من علي ماجد ، وجل من غني واحد ، تنزه عن ولد وعن والد ، فوحقه على المقر والجاحد (إن إلهكم لواحد) أطلع النجوم كأنها جنود تطارد ، والقمر كالعريف والشمس كالقائد ،

فوعزّة من جعلها نجوماً تضيء في المقاصد ، ورجوماً للعدو والمعاند (وحفظاً من كل شيطان مارد) (إن إلهكم لواحد) ألّف بقهره وقدرته بين الضدين ، وجمع بين العذب والملح في ملتقى البحرين ، وقضى سبع سماوات في يومين ، وقال الله : (لا تتخذوا الهين اثنين إنما هو إله واحد) النحل : ٥١ . أنشأ وابتدع ، وفرق وجمع ، وأتقن ما صنع ، وله ركع وخضع وخشع الساجد (ان الهكم لواحد) هدى من شاء وأضل ، وعقد كما شاء وحل ، واستوى على العرش وما حل ، وقدرة من له ذل واضمحل المعاند (ان الهكم لواحد) أنعم بإنزال كتابه بين جليّ ومتشابه ، واستدعى جميع أحبابه ، فإلى بابه يسعى كل قاصد (ان الهكم لواحد) .

قوله تعالى : (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) :

المشارق : ثلاثمائة وستون مشرقا ، تطلع الشمس كل يوم في مشرق لا تعود اليه الى سنة ، وتغرب في مثله ، فلما كانت المشارق تدل على المغارب ، اكتفى بذكرها عنها (انا زيّنا السماء الدنيا) يعني : التي تلي الارض (بزينة الكواكب) أي : بحسنها وضوئها (وحفظا) أي : وحفظناها حفظاً (من كل شيطان مارد) أي : عات (لا يسمعون الى الملأ الاعلى) وهم الملائكة (ويقذفون من كل جانب) بالشهب (دحورا ولهم عذاب واصب) أي : دائم (الا من خطف الخطفة) أي : اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة (فأتبعه) أي : لحقه (شهاب ثاقب) أي : كوكب مضيء .

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : « ان الملائكة تنزل في العنان ، وهو السحاب ، فتذكر الامر قضي في السماء ، فتسترق الشياطين السمع ، فتوحيه الى الكهان ، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم » .

واعلم أن تصديقهم ؛ أي : الكهان حرام في شرعنا .

فقد روى أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد برىء مما أُنزل على محمد » .

قوله تعالى : (فاستفتهم) أي : فاسألهم سؤال تقرير (أهم أشد خلقاً) أي : أحكم صنعة (أم من خلقنا) قبلهم من الامم السابقة والمعنى : أنهم ليسوا بأقوى من أولئك ، وقد أهلكتهم بالتكذيب ، فما الذي يؤمن هؤلاء ، فإنه من قدر على إهلاك الأقوياء ، قوي على إهلاك الضعفاء . ثم بين الأصل بقوله(إنا خلقناهم من طين لازب) أي : لازم.

قال ابن عباس : هو الطين الحر الجيد اللزق .

سبحان من لا وزير له ولا حاجب ، سبحان من قهر الخلائق فهو الغالب ، سبحان من يسمع صريف القلم بيد الكاتب ، ويل للجاحدين فما أعماهم عن المطالب (إنا خلقناهم من طين لازب) .

أنشا الآدمي في قرار مكين غائب ، وأخرجه إلى الضوء من تلك الغياهب ، وسهل له مشارب المشارب ، ودفع عن مشروبه شوائب الشوائب ، (إنا خلقناهم من طين لازب) .

سبحان من جمع بين تراب جامد ، وماء ذائب ، فصور منه صورة سليمة من المعايب ، أظهر مالا يحصى من العجائب . وقد حد ثناهم بذلك وفهمناهم (إنا خلقناهم من طين لازب) .

أحكم بصنعته الفطرة ، وعلم قطرات المطرة ، وخلق الإنسان من قطرة ، تخرج من بين الصلب والترائب أحسن بالقدرة بناءه ، ورتب بالحكمة أجزاءه ، وقدر في التساوي أعضاءه ، فلم يفضل جانب على جانب ، عرفه طريق الوسائل ثم أجابه في المسائل ويناديه في الليل : هل من سائل ؟ هل من تائب؟ واعجبا للمتكبرين ، واأسفا للمتجبرين ، لو تأملوا أصلهم تأمل الناظرين (من طين لازب) وماء ذائب ، يامقيمين تأهبوا للنقلة ، ياغافلين تذكروا قرب الرحلة ، تالله إن مصيبة الغفلة لاتشبه المصائب .

اللهم إن نواصينا بيديك ،وأمورنا ترجع إليك ، وأحوالنا لاتخفى عليك ،وآلامنا وأحزاننا وهمومنا كلها معلومة لديك.

اللهم قد عجزت قدرتنا ، وقلت حيلتنا ، وضعفت قوتنا ، وتاهت فكرتنا ، واجتمعت علينا همومنا واوصابنا ، وأنت ملجؤنا ووسيلتنا ، وإليك نرفع بثنا وحزننا ، وشكايتنا يامن يعلم سرنا وعلانيتنا .

اللهم اجعلنا ممن توكل عليك ، وآمن خوفنا إذا أوصلنا إليك ، ولا تخيب رجاءنا إذا صرنا بين يديك ، واجعلنا ممن تسوقه الضرورات إليك ، وهب لنا من فضلك العظيم ، وجد علينا بإحسانك العميم ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، آمين .



المجلس السادس والخمسون

في الزهد

الحمد لله ذي النعم الظاهرة ، والحكم الباهرة ، والدلالات الزاهرة ، والعقوبات القاهرة ، خلق الخلائق من أصول متنافرة ، وعم خلقه بالأيادي المتكاثرة ، ثم عادبالفناء على المستحكمات الناضرة ، فإذا هي بالبلاء متناثرة ، ثم يجمعهم بنفخة الصور في الدار الآخرة (فإنما هي زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة) .

أحمده على النعم الغامرة ، حمداً يعيد قفار القلوب عامرة ، وأُقر له بالتوحيد عن عقيدة ظاهرة ، وأُصلي على رسوله محمد صلاة تجلب لنا صلاة إلى صلاة إلى العاشرة ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الناهض يوم الردة نهضة ظافرة ، وعلى عمر الذي قلقل الأكاسرة ، وعلى عثمان ذي المقلة الساهرة ، وعلى علي قامع النفوس الكافرة ، وعلى سائر آله وأصحابه المتصفين بالزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة وسلم تسليماً .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أَخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل » وكان ابن عمر رضي الله عنه يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك .

وعن سهل بن سعد قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، مرني بعمل إذا أنا عملته أحبني الله ، وأَحبني الناس ، فقال النبي ﷺ : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس ، يحبك الناس » .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : أنتم أطول صلاة ، وأكثر اجتهاداً

من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم كانوا أفضل منكم ، فقيل له : بأي شيء ؟ قال : إنهم كانوا أزهد في الدنيا ، وأرغب في الآخرة منكم .

وقال أبو واقد الليثي : تابعنا الأعمال فلم نجد عملاً أبلـغ في طلب الآخرة من الزهادة في الدنيا

واعلم أن معنى الزهد انصراف الرغبة عن الشيء . وأحوال الزهاد تختلف ، فمنهم من ترك الدنيا لذم الشرع لها ، ومنهم من خاف طوال الحساب عليها ، ومنهم من رآها قاطعة له عن الآخرة ، ومنهم من رأى الالتفات إليها يوجب الاشتغال عن الحبيب فلم يعرها الطرف .

وقيل لعيسى عليه السلام : لو اتخذت بيتا ، فقال : يكفينا خلقان من كان قبلنا .

وقال الحسن رحمه الله تعالى : إن أقواماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب ، فأهينوها فاهنأ ما تكون إذا اهنتموها ، ولقد أدركت أقواماً كانوا لا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ، ولقد كانت في أعينهم أهون من التراب ، كان أحدهم يعيش خمسين سنة وستين سنة لم يطوله ثوب ، ولم يأمر أهله بصنعة طعام ، وقال أيضاً : يحشر الناس عراة ماخلا أهل الزهد ، وقال الفضيل رحمه الله : جعل الشر كله في بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد .

وقال بعض السلف : الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن ، واعلم أن الزهد الممدوح هو ترك الفضول التي لا تدعو إليها الحاجة . والمهمات الضرورية سبعة . أحدها : المطعم ، فهمة الزاهد مايدفع به الجوع ، مما يوافق بدنه ، ويقويه على الطاعات ، فإن قصد الالتذاذ بشيء من المتناولات ليعطي النفس حظاً يتقوى به ، لم يخرج من الزهد .

وقد كان سفيان الثوري حسن المطعم ، وربما سافر وفي سفرته اللحم المشوي والفالوذج .

وقد يدخر الزاهد شيئاً يتقوته ، فلا يخرجه من الزهد ، فقد كان لسفيان بضاعة ، وورث داود الطائي عشرين ديناراً ، فأنفقها في عشرين سنة .

والثاني : الملبس والزاهد يقتصر على مايدفع به الحر والبرد ، ويستر العورة ، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل لئلا يخرجه التقشف إلى الشهرة .

وقد كان أكثر لباس السلف خشناً ، فصار الخشن اليوم شهرة .

وخطب عمر رضي الله عنه بالناس وهو خليفة ، وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة .

وكان أبو معاوية الأسود يلتقط الخرق من المزابل ، ويلفقها ويقول : ماضرهم ما أصابهم في الدنيا ، جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة .

والثالث : المسكن ، وقد كان بعضهم يقنع بزوايا المساجد ، كأهل الصُّفة ، وبعضهم يبني كوخاً متى قصد مايخرجه عن حد الضرورة خرج عن الزهد. وقد توفي رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة .

والرابع : أثاث المنزل، وينبغي للزاهد أن يقتصر فيه على الخزف . وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان ضجاع رسول الله ﷺ الذي ينام عليه من أدم محشواً ليفاً .

وقال علي رضي الله عنه : تزوجت فاطمة ومالي ولها فراش غير جلد كبش كنا ننام بالليل عليه ، ونعلف عليه الناضح بالنهار ، ومالي خادم غيرها .

والخامس : المنكح وليس من الزهد تركه ، فإن التشاغل به للعفاف لازم ، ولطلب النسل فضيلة ، ومن لايجتمع همه إلا بطلب المستحسن ، فذلك في حقه فضيلة .

فأما إذا خاف عدم النفقة ، وشتات القلب ، وأمكن الاقتصار على الدون ، فحسن . والنكاح من سنن المرسلين ، وشعار الصالحين .

والسادس : المال ؛ والزاهد يقتصر منه على ما يدفع الوقت ، ويقطع عنه منن الخلق .

والسابع : الجاه ؛ ومعناه ملك القلوب ، ليتوصل به الى الاستعانة على ما يريده من الأغراض ، ودفع ما يؤذيه .

والزهد يمهد له الجاه ، فليحذر من شر ذلك ، وقد يتزهد الإنسان في المطعم والمشرب ، ويلبس الخشن ، ويقصد المدح بالزهد ، فذاك الخاسر ، فلا بد من عدم هذا القصد الرديء ، ودفعه بستر الحال ، وأن لا يلتفت بالقلب اليه ، والعمل كله على النيات والبواطن ، فنسأل الله عز وجل سلامة تعم بواطننا وظواهرنا ، بمنه وكرمه .

يا من يصاح بغيره فيروعه ذل المصاح به وعز الصائح
ذي الدار ماخلقت ليبقى أهلها فعلام يشمت قاطن بالنازح
كل يصير الى مصير واحد ويبيت بين جنادل وصفائح
عجبي لقوم أيقنوا بغبينة نصحوا فلم يعبوا بنصح الناصح
علقوا من الدنيا بشر علاقة فهوت بهم في لج بحر طافح
ورأوا مصارع أهلها فكأنهم لم يسمعوا فيها نياحة نائح

يا من زاده قليل ، وطريقه بعيد ، يا مقبلاً على ما يضره ، تاركاً ما يفيد ، أنسيت هجوم الموت العظيم الشديد ؟ أغفلت عن نزول اللحد المهلك المبيد ؟ أما تخاف الحساب إذا نشر الكتاب رقيب عتيد .

مَن لك إذا تلهف القادم ، وتأسف النادم ، وأقلقت المظالم ، وتعلق المظلوم بالظالم ، كم متجبر هان بالامتهان ، وود عند شهادة الأركان أنه ما كان ، ياله من يوم يخرس فيه لسان الإنسان ، ويقلق عند بروز النيران الجيران ، فابك على ذنوبك وتأسف للعصيان ، فما يوضع في الميزان مثل الأحزان .

يا قليل الإخلاص والتقى ، ستندم على التفريط يوم اللقا ، يا مطمئنا إلى دار قليلة البقاء ، وإيثار ما يفنى على ما يبقى من الشقاء ، كم معصية فعلتها وما اتقيت ؟ كم خطيئة بارزت بها وما استحييت ، كم موعظة سمعتها وما ارعويت ، كم دعيت إلى ما ينفعك

فابيت ، كم أقبل عليك مولاك بعظته فوليت . يا من زمانه ينقضي بعسى وسوف وأرجو وليت ، يا من جسده حي وقلبه ميت ، متى تتقي من براك ؟ متى تراقب من يراك؟ متى تعرف شكر من والاك ؟ متى تخجل من ذل زلل قد علاك ؟ يا بعيد الأمل أجلك قريب ، يا أيها الغافل ستدعى فتجيب ، يا مغتراً بالسلامة سهم التلف مصيب ، يا راحلاً عن قليل ساكن القبر غريب ، يا ناسياً ما بين يديه من الأمر العجيب .

كم تناديك الخطايا رائد الموت المشيب

سوف تدعوك المنايا وعلى رغم تجيب

فصل

في قوله تعالى : (يا أيها النـــاس اتقوا ربكم) الحج : ١ . التقى : اعتماد المتقي ما يحصل به الحيلولة بينه وبين ما اتقاه ، ولكل جارحة حظ في التقوى .

قال عمر لكعب رضي الله عنهما : حدثني عن التقوى ؛ فقال : هل أخذت طريقاً ذا شوك ؟ قال : نعم . قال : فما عملت فيها ؟ قال : حذرت وشمرت . قال : كذلك التقوى .

سبحان من شرفكم بخطابه ، وذكركم في كتابه ، ودعاكم بطاعته إلى بابه ، وشوّقكم إلى جزيل ثوابه ، وحذركم من أليم عقابه ، وناداكم نداء من لطف بكم وأحبكم (يا أيها الناس اتقوا ربكم) .

يا أيها الناس أطيعوا مولاكم ، واسمعوا خطابه ، فقد ناداكم ، واشكروه فقد لطف بكم وهداكم ، فإنه إن غضب عليكم ألقاكم في النار وكبكم (يا أيهـــا الناس اتقوا ربكم) .

تمسكوا بالتقوى فهي العروة الوثقى ، واتركوا ما يفـــنى واطلبوا ما يبقى ،

وتزودوا لسفركم يقيناً وصدقاً ، واغسلوا قلوبكم بمياه الأحزان لعلها من آثار العصيان تنقى ، وأكثروا على ذنوبكم السالفة ندبكم (يا أيها الناس اتقوا ربكم).

قوله تعالى : (إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم) في هذه الزلزلة قولان .

أحدهما : أنها يوم القيامة بعد النشور .

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل يوم القيامة لآدم : قم فابعث بعث النار ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، يا رب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ يشيب المولود ؟ (وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) قال : فيقولون : وأيُّنا ذلك الواحد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تسعمائة وتسعة وتسعون من يأجوج ومأجوج ، ومنكم واحد » فقال الناس : الله أكبر ، فقال رسول الله ﷺ : «والله إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، والله إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ، قال : فكبَّر الناس ، فقال رسول الله ﷺ : ما أنتم يومئذ في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض ».

والقول الثاني : أنها ؛ أي الزلزلة : تكون في الدنيا قبل يوم القيامة ، وهي من أشراط الساعة.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينما الناس في أسواقهم ، ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك ، تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك ، إذ وقعت الجبال على وجه الأرض ،فتحركت واضطربت، ففزع الجن إلى الانس ،والانس الى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحش ، فماج بعضهم في بعض ، وقالت الجن للإنس : نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا الى البحور ، فإذا هي نار تأجج ،فبينما هم كذلك، إذ تصدعت الارض إلى الارض السابعة ، والى السماء السابعة ، فبينما هم كذلك ، إذ جاءتهم الريح ، فماتوا .

وقال مقاتل بن سليمان : هذه الزلزلة قبل النفخة الأولى ، وذلك أن منادياً ينادي من السماء أيها الناس (أتى أمر الله) النحل : ١ . فيفزعون فزعاً شديداً ، فيشيب الصغير ، وتضع الحوامل .

وقوله : (شيءٌ عظيم) أي لا يوصف لعظمه .

زلزلة توجل لها القلوب ، زلزلة تظهر عندها العيوب ، زلزلة تشتد فيها الكروب ، زلزلة فيها أفئدة العصاة تذوب ، فالعذاب شديد والعقاب أليم (إن زلزلة الساعة شيء عظيم)

زلزلة يشيب فيها المولود ، زلزلة تشهد فيها الجلود ، زلزلة تخد فيها الدموع الخدود ، زلزلة يظهر فيها التقاطع والصدود ، يفر الولد من الوالد والحميم من الحميم (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) .

انظر لنفسك قبل أن لا يمكن النظر ، وتفكر في أمرك قبل أن لا تنفع الفكر ، ومثل يوم الحشر إذا بدا الهول وظهر ، وتزود للرحيل وتأهب للسفر ، وخذ عدتك لنقلتك فلست بمقيم (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) .

قوله تعالى : (يوم ترونها) يعني : الزلزلة (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) أي : تشتغل عن ولدها .

قال الحسن رحمه الله تعالى : تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام ، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام ، وهذا يدل على أن الزلزلة تكون في الدنيا ، لأن بعد البعث لا تكون حبلى ، وعلى القول الأول : يكون المعنى أنه لو كان ثم رضاع وحمل لجرى هذا .

روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ؛ أنه كان إذا ذكر الساعة احمر وجهه ، واشتد صوته .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : الأرض كلها نار يوم القيامة والجنة من ورائها ، يرون أكوابها و كواعبها . قال : ويعرق الرجل حتى يرشح عرقه في الأرض قامة ، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسه الحساب . قالوا : وممّ ذاك ؟ قال : مما يرى الناس يصنع بهم ، أما الأرض فتصدعت ، وأما الجبال فتزعزعت ، وأما السماء فتضعضعت ، وأما

الأفئدة فتقطعت ، علماً بما في الصحف أودعت (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت) .

تكسّرت النخيل وقد أطلعت ، ووقعت الثمار وقد أينعت ، ويبست الرياض وقد أنزعت ، وهلكت العشار وقد أُطمعت (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) .

خسَف القمر وأظلمت الشمس ، وخلت الديار وامتلأ الرمس ، فأصبحت المغاني (كأن لم تغن بالأمس) يونس : ٢٤ . وجاءت القيامة فأسرعت (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) .

بينما الناس في أسواقهم ، في عدوهم وإشراقهم ، صيح بهم من آفاقهم ، يالها صيحة جعجعت (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) .

فتظهر حينئذ الأهوال ، وتسير من الهيبة الجبال ، وتنشر صحائف الأعمال ، وتبين قبائح الخصال ، وتحصد النفوس ما كانت زرعت (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) .

يا ناسياً حلول الردى ، يا غافلاً عما سيجري غدا ، يا أعمى البصيرة عن الهدى ، وأنواره قد تشعشعت (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) .

انتبهوا يا قوم لهذا اليوم ، وتيقظوا من رقدات النوم ، فما أكثر سياط اللوم ، وما أوجعت (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) .

كم بالغ الواعظ وتناهى ، وأعاد المواعظ وثناها ، وكرر التذكرة وما أراها أنجعت (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) .

إذا عمّت الزلزلة حزن الأرض وسهلها ، ندبت النفوس خطأها وجهلها وندمت ، إذ لم تسمع عذلها فتردد باللهايا ، ويلها من لها (وتضع كل ذات حمل حملها) .

جاء الفرق فبدد شملها ، ووقع الفراق فبت وصلها ، وأتى أمر الله فزلزل الأرض كلها ، واخترط الغضب سيوف العقاب واستلها (وتضع كل ذات حمل حملها) .

ويح العصاة ما أذلها ، ويل العتاة ما أقلها ، أمرضها الإزعاج وأعلها ، وأنهلها كأس الخوف وأعلها ، فقوي القلق عليها يقصد قتلها (وتضع كل ذات حمل حملها) .

تلِفت بحب الدنيا وألفت ظلها ، فأغواها هواها للدنيا وأضلها ، ونزلت ديار جهالة ما سلم من حلها ، وعقد القلب عقد الإصرار وما حلها ، فحينئذ تندم إذ لم تسمع عذلها ، (وتضع كل ذات حمل حملها) .

غرّها الشيطان واستزلها ، فتركت أفعال الخير كلها ، من ينقذها من خزي من لها ومن لها ؟ لقد ضجر الواعظ منها وقد ملها ، يا حسرة النفوس العاصية ، إنها لبعيدة عن النجاة قاصية ، لو رأيتها تسحب بالناصية ، يا تعثيرها يا ذلها .

اللهم يا من عمّ العباد فضله ونعماؤه ، ووسع البرية جوده وعطاؤه ، نسأل منك الجود والإحسان ، والعفو والغفران ، والصفح والأمان ، والعتق من النيران ، وتوبة تجلو أنوارها ظلمات الإساءة والعصيان ، يا عظيم يا منان ، يا رحيم يارحمان ياأرحم الراحمين .



المجلس السابع والخمسون

في ذكر الفقر

الحمد لله الذي أنشأ الخلائق بقدرته ، وأظهر فيهم عجائب حكمته ، ودل بإرشاده على وحدانيته ، قضى على العاصي بمخالفته ، ثم منّ عليه بقبول توبته ، واختص المخلص بصدق معاملته ، ثم شغله عن الدارين بمحبته ، فأقبلوا على من ينصحكم وأقبلوا على خدمته ، (يؤتكم كفلين من رحمته) الحديد : ٢٨ .

أحمده على سبوغ نعمته ، وأشكره على توفيقه وهدايته ، وأشهد أنه لا شريك له في صنعته ، وأن محمداً عبده ورسوله إلى جميع بريته ، بشيراً بجنته ، ونذيراً بنقمته ، صلى الله عليه وعلى خليفته بعده في أمته ، أبي بكر السابق بمرافقته ونفقته ، وعلى عمر العادل في أقضيته ، وعلى عثمان المتزوج بابنة الرسول بعد ابنته ، وعلى علي المخصوص دونهم بأُخوته وعلى سائر أصحابه وقرابته ، وسلم تسليماً .

عن أُسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « قمت على باب الجنة ، فإذا عامة من دخلها المساكين ، وإذا أصحاب الجدّ محبوسون ، إلا أن أصحاب النار قد أمر بهم الى النار ، ووقفت على باب النار ، فإذا عامة من دخلها النساء » أخرجاه في « الصحيحين » .

وفيهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال : « إطلعت في الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء » .

وفيهما من حديث أَبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » .

وفيهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام » .

وقال ﷺ : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله عز وجل إليه ، كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا ، فيقول : وعزتي وجلالي ، مازويت الدنيا عنك لهوانك عليّ ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة ، أخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف ، فمن أطعمك أو كساك يريد بذلك وجهي ، فخذ بيده فهو لك » .

وقيل لموسى عليه السلام : إذا رأيت الفقر مقبلاً ، فقل مرحباً بشعار الصالحين .

واعلم أن الفقر إنما يريده من يختار القناعة .

عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً ، وقنع بما آتاه الله عز وجل » .

ثم إن أحوال الفقراء تختلف ، فمنهم من يهرب من المال ويكره وجوده ، كما روي أن رجلاً جاء إلى ابراهيم بعشرة آلاف فلم يقبلها ، وقال : تريد أن أمحوَ اسمي من ديوان الفقراء بهذا ؟ لا أفعل .

ومنهم من يستوي عنده وجود المال وفقده ، فإن وجده ، فرقه ، وإن لم يجده ، لم يطلبه .

وقد قدم على عائشة رضي الله عنها بمال عظيم ، ففرقته ، فقالت جاريتها : لو تركت درهماً نشتري به لحماً نفطر عليه . فقالت : لو ذكرتيني لفعلت .

وقد كان نبينا ﷺ بعيد الشبع ، كثير الجوع ، يشد الحجر على بطنه ، وتوفي ودرعه مرهونة .

وقال حذيفة رضي الله عنه : أسرّ يوم لقيني يوم آتي أهلي فلا أجد عندهم طعاماً ، لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أشد حمية للمؤمن من الدنيا من المريض أهله للطعام » .

وقد أُريح الفقراء من طول الحساب ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « التقى مؤمنان على باب الجنة ، مؤمن غني ، ومؤمن فقير كان في الدنيا ، فأدخل الفقير الجنة ، وحبس الغني ماشاء الله أن يجلس ، ثم أدخل الجنة ، فلقيه الفقير ، فقال : أي أخي ، ماذا حبسك؟ والله لقد احتبست حتى خفت عليك ، فقال : أي أخي ، إني حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً . ما وصلت إليك حتى سال مني من العرق مالو ورده ألف بعير كلها أكلت حمضاً ، تصدرت عنه رواء » .

واعلم أن الفقير الصادق له آداب : منها أن لا يكره ماابتلاه الله به من الفقر ، وهذا واجب عليه .

وأرفع من هذا أن يكون راضياً بالفقر ، وأرفع منه ، أن يكون طالباً له وفرحاً به ، ومنها إظهار التعفف ، وإذا جاء مال ، فينبغي أن يلاحظ ثلاثة أشياء .

أحدها : حل ذلك المال وسلامته من الشبهات .

والثاني : غرض المعطي ، فإن كان سليماً ، لايقصد به الرياء ولا المنة قبل منه .

والثالث : حال نفسه ، هل هو مستحق للزكاة والصدقة أم لا ؟.

وفي « الصحيحين » من حديث ابن عمر رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال له : ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ، وما لا فلا تتبعه نفسك .

وأما السؤال ، فلا يجوز إلا لضرورة . ومتى قدر على الكسب لم يجزله .

أين الفرار و كف الموت قابضة ... وسهمه واصل والبغية الناس

وكل حي يرى في دهره نضراً ... فغاية الأمر أحداث وأرماس

هيهات أظهرت الدنيا مواعظها ... وزال عن سامع التذكار إلباس

يامفرطاً في الواجب والفرض ، ياناسياً يوم الحساب والعرض ، أفدت نفسك الأرباح ، بإمساكك عن القرض ، وآثرت ضيق العيش على جنة عرضها السموات والأرض ، فبادر أيام شبابك قبل فراق أحبابك ، واحفظ أوقات عمرك قبل حلول قبرك ، واغتنم أحيان حياتك قبل موافات مماتك ، فإنما العمر بالليالي يذهب ، والأجل بمرور الساعات

ينهب ، إعمل ماشئت فالجزاء واقع ، وكن كيف شئت فالحق ناظر وسامع ، قولوا لمن غفل ولهى : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) الاسراء : ٧ . أين عاد وإرم ؟ أين من مضى من الأمم ؟ .

وهل يمنعني ارتياد البلا　　　د من حذر الموت أن يأتين

أباد الملوك وأفناهم　　　ونحن بإثر الذي قد ظعن

يامن لم يكن له في ملكه مشابه ، اخرج عن الفضاء كأنه مامشى به ، نقل إلى لحد وعر فثوى به ، وجوزي فيه بعقابه أو ثوابه ، ولم يجد لنفسه أنيساً غير اكتسابه ، وعري في ترابه عن كفنه فاكتسى به ، وتلهف عن موجبات إثمه وأسباب عقابه ، وتأسف على قلة زاده وطول عقابه ، وجاءه منكر ونكير فاشتد الجوى به ، فناقشاه في سؤاله ، وحاققاه في جوابه ، لقد أفات نفسه بإطالة البطالة أجرا ، إذ سار بها في سرب هواها وأجرى ، ورضي من شأنها ما شانها وأزرى ، إذ حمل على أوزاره بالخطايا وزرا ، هيهات صرفت أولئك فواجع الآفات صرفا ، ولم تقبل من راشيهم عدلاً وصرفا ، وأدارت بين ديارهم للبين كاسات مرة ، وأصبحوا كأنهم ما كانوا فيها مرة .

أين من شاد وابتنى فوق مايكفي　　　وأعلا فوق ما يحتاج

أين سكانه ومن رفع التا　　　ج على رأسه وأين التاج

طحنتهم طحن الرحى حادثات　　　وخطوب أفرادها أزواج

يامن عمله محفوظ وهو بعين الرقيب ملحوظ ، من رأيت من آفات دنياه سلم ؟ من شاهدت صحيحاً وما سقم ؟ وأي حياة بالموت لم تختتم ؟ وأي عمر بالساعات لم ينصرم ؟

إن الدنيا لغرور حائل ، وسرور إلى الشرور آيل ، تردي مستزيدها وتؤذي مستفيدها ، بينما طالبها يضحك أنبتّه ، ويفرح بسلامته أهلكته ، فندم إذ قدم على عمله ، وبقي رهين خوفه ووجله ، وود لو أن زيد ساعة في أجله ، فيامن سيصير عن قليل إلى المقابر ، إلى متى تحرص على الدنيا وتثابر ؟ .

كأنك بالنفس قد أزعجت ... وأخرجت من قصرك العامر
فدبر لنفسك قبل المما ... ت فإن اللبيب يرى الآخر (١)

فصل

في قوله تعالى : (والنازعات غرقاً) النازعات : الملائكة أتنزع رواح بني آدم . ومعنى غرقاً : إغراقاً ، كما يغرق النازع في القوس ، أي : أنه يبلغ بها غاية المد . (والناشطات نشطاً) الملائكة تنشط أرواح الكفار ، حتى تخرجها بالكرب والغم ، وتنشط أرواح المؤمنين بسرعة ، كما ينشط العقال من البعير . (والسابحات سبحاً) الملائكة يسلون أرواح المؤمنين سلا رفيقاً ، ثم يتركونها تستريح ، كالذي يسبح في الماء (فالسابقات سبقاً) الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة . (فالمدبرات أمراً) الملائكة أيضاً .

قال عبد الرحمن بن سابط : يدبر أمر الدنيا أربعة . جبريل : وهو موكل بالرياح والجنود ، وميكائيل : وهو موكل بالقطر والنبات ، وعزرائيل : وهو موكل بقبض الأرواح ، وإسرافيل وهو ينزل بالأمر عليهم . قوله تعالى : (يوم ترجف الراجفة) ترجف : تتحرك ، والراجفة : صيحة عظيمة فيها تردد واضطراب كالرعد ، وهي النفخة الأولى ، التي يموت فيها جميع الخلائق (تتبعها الرادفة) وهي النفخة الثانية ، ردفت الاولى أي : جاءت بعدها (قلوب يومئذ واجفة) أي : شديدة الاضطراب لما عاينت من أهوال القيامة (أبصارها خاشعة) أي : ذليلة ، لمعاينة النار .

قال عطاء : وهذه أبصار من لم يمت على الإسلام ، يدل على هذا أنه ذكر منكري البعث فقال : (يقولون أئنا لمردودون في الحافرة) المعنى : أنرجع أحياء بعد موتنا (أئذا كنا عظاماً نخرة) قال الزجاج : فارغة (قالوا : تلك إذاً كرّة خاسرة) أي : ان رددنا بعد الموت ، لنخسرن بما يصيبنا مما يعدنا به .

فأعلمهم الله عز وجل سهولة البعث عليه ، فقال : (فإنما هي زجرة واحدة) أي :

---

(١) كذا الأصل .

صيحة في الصور يسمعونها ، وهم في بطون الأرض فيخرجون (فــإذا هم بالساهرة) النازعات : ١-١٤ . وهي وجه الأرض .

ما أغفلكم عن ذلك اليوم ؟ أسكر بكم أم نوم ؟ انتبهوا لأنفسكم ياقوم ، إسمعوا مايجري من عتاب ولوم .

لما قويت معارف العلماء ، اشتدت مخافتهم ، فضج لسان الكرب يتمنى العدم .

جاز أبو بكر رضي الله عنه على طائر فقال : طوبى لك ياطائر ، تقع على الشجر ، وتأكل من الثمر ، ولا حساب عليك ولا عذاب ، ليتني كنت مثلك .

وقرأ عمر رضي الله عنه : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) الدهر : ١ . فرفع بها صوته وقال : ياليتها تمت ، ثم أخذ بتبنة من الأرض وقال : ياليتني هذه التبنة ، ياليت أمي لم تلدني .

وقال أبو عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه : ياليتني كنت كبشاً وذبحني أهلي ، فأكلوا لحمي ، وحسوا مرقي .

وقال عمر بن حصين رضي الله عنه : ليتني كنت رماداً تذروه الرياح .

لنار المخافة في قلوب القوم وهج ، ولجيوش مجاهدتهم للنفوس رهج ، ولألسنتهم بذكر تقصيرهم لهج ، هذا وقد بذلوا النفوس وباعوا المهج ، يحق للعيون أن تجري دماً ، وتبكي حتى تبلغ العمى ، بين يديها يوم شديد الظما ، تنتثر فيه النجوم وتطوى السما ، أما تذكر ذلك اليوم أما ؟ أما تفتح بالتوبة فما ؟ لاملجأ يومئذ ولا حمى ، مثل نفسك وقد قمت كئيباً ، وعرض عملك فرأوه معيباً ، ونظرت إلى الأطفال وقدصاروا شيباً ، وإلى النار وقد أبرزت لهيباً ، من لك إذا حرمت من الجنة نصيباً ؟ يوم ما أشده وأصعبه ، يوم ما أهوله وأتعبه ، تراه بعيداً وما أقربه ، يقوى فيه القلق ويتضاعف الفرق ، ويجري من الأبدان العرق ، وتسيرمن الحسرات الحدق ، ويخرس اللسان وطالما نطق ، ويتقلقل الفؤاد وتكثر الحرق ، وتعلم حينئذ أن النصيح قد صدق ، ويحك خذ عدة لذلك ، وهيء طريقاً قبل ضيق المسالك ، وأجلُ حالِك حالِك ، واشتر نفسك اليوم بمــالك ،

لعلك تفكها من يدي مالك ، يامن إذا حرض سوف ، يامن أنذر وماتخوّف ، ما هذا الفتوروالحسام مرهف؟ سار المتيقظون فإلام تتخلف ؟ نجا من أسرع وهلك من توقف ، بين يديك هول لايستطاع أن يوصف ،إن شككت في قولنا فاقرأ في المصحف ،إن كنت لاتعرف الطريق فانهض وتعرف ، هذا قدر النصائح ثم أنت بنفسك أعرف .

بكى الحسن البصري رحمه الله يوماً حتى رعد منكباه ثم قال : لو أن بالقلوب حياة لو أن بالقلوب صلاحاً ، لأبكيتكم من ليلةٍ صبيحتها يوم القيامة ،إن ليلة تمحض عن صبيحة يوم القيامة ، ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر فيه عورة بادية ، وعيناً باكية ، من يوم القيامة .

وقال أيضاً رحمه الله : تتعلق الأم بولدها فتقول : يابني ، ألم يكن ثديي لك سقاء؟ ألم يكن حجري لك وطاء ؟فاحمل عني بعض ذوبي ، فيقول : يا أماه ، لي في نفسي شغل .

تجنب بجهدك ما كان عارا	وما في معادك يصليك نارا
ولا تحقرن صغار الذنوب	فيوم الحساب تراها كبارا
وخف يوم يطلب كل امرىء	لما قد يرى من أخيه الفرارا
فذلك يوم ترى الناس فيه	حيارى سكارى وماهم سكارا
فمالي أرى الناس في غفلة	إذا ذكروا أغفلوا الإدكارا
أطاعوا أوامر دنيـاهم	فزادتهم بالحياة اغترارا
أناس تناسوا منـاياهم	فحين أتت أخذتهم أسارا
فدونك فانظر إلى من مضى	وفارق جيرانه والديارا
ففيهـم لغيرهم عـبرة	وموعظة إن أردت اعتبارا

يا أهل القصور العامرة ، عن قليل تعود غامرة ، يا معجبين بالنضارة الظاهرة ،عن قريب ترجع العظام ناخرة (فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة) .

أترى هذه القلوت المستأخرة ؟ مؤمنة بالبعث أم ساخرة ، أتراها ماتوقن بالآخرة؟ سيقوم الخلائق بسطوة قاهرة (فإذاهم بالساهرة) .

أكل التراب تلك العظام ، وصيّرها كالرُّفات الرمام ، فلما نفخ في الصور يوم القيام ، نهضت الأقدام إلى القيام مبادرة (فإذاهم بالساهرة) .

سالت في القبور الحدق ، وجال البلى فيهم واخترق ، فلما أمر بالإعادة من خلق ، عادت الأبدان ناضرة (فإذاهم بالساهرة) .

ضمّت أجسادهم اللحود ، وخلا بهم الدود فمزق الجلود ، وتفرقوا كما يتفرق الودود ، فإذا أراد إعادتهم المعبود ، صاح إسرافيل صيحة نافرة (فإذاهم بالساهرة) .

حُفرت قبورهم لغيرهم مرات ، ونقل تراب أبدانهم تارات ، فإذا جاء الفصل والميقات ، جمع المتفرق بعد الشتات المؤمنة والكافرة (فإذاهم بالساهرة) .

عظم عندهم القلق ، واشتد عليهم الفرق ، وسال منهم كالسيل العرق ، لقوة الهاجرة (فإذاهم بالساهرة) .

يذهبون ولا يدرون إلى أين ، ويهربون وهيهات عليهم دين ، ولا ينجو إلا قائل الكلمتين ، فطوبى للعين التي كانت ساهرة (فإذاهم بالساهرة) .

تبرز النار باللهب والجمر ، فيبكي آكل الربا وشارب الخمر ، ويشتغل زيد بنفسه عن عمر ، وقد عرّفتك أول الأمر وآخره .

اللهم سق إلينا من رحمتك ما يغنينا ، وأنزل علينا من بركاتك ما يكفينا ، وادفع عنا من نقمتك ما يؤذينا ، وهب لنا من العمل الصالح ما ينجينا ، وجنبنا من العمل السيء ما يردينا ، واقذف في قلوبنا من روح معرفتك ما يحيينا ، وأفض علينا من نور هدايتك ما يقربنا من محبتك ويدنينا ، وارزقنا من اليقين ما تثبّت به أفئدتنا ويشفينا ، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الثامن والخمسون

في التقوى والورع

الحمد لله الذي لا مانع لما وهب ، ولا واهب لما سلب ، طاعته أوصل مكتسب ، وتقواه للمتقي أعلى نسب ، والمعاصي من خوفه تجتنب ، والمصائب في جنب أجره تحتسب ، والعطايا من فضله ترتقب ، وهو المرجو لكشف الكرب ، هيأ قلوب أحبابه للإيمان وكتب ، فتقربوا إليه بالتقوى والورع والأدب ، فحلا لهم في طاعته النصب ، ولم يجدوا لحبه مسّ التعب ، وقدر الشقاء للأشقياء فغلب ، وأعرض عنهم فوقعوا في العطب ، لا يعرفون المسبب فهم أبداً مع السبب (فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب)الحج : ١١.

أحمده إذ وهب خيراً من الذهب ، وأشهد بوحدانيته شهادة تقتضي ما وجب ، وأن محمداً عبده ورسوله ، الذي اختاره وانتخب ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر العالي على أعلى الرُّتب ، كان ليلة الغار بين يديه خوف الرصد ، وخلفه خوف الطلب . وعلى عمر الفاروق الذي لا يعلق منه الشيطان بسبب ، وعلى عثمان الصابر في الشهادة على لقاء العطب ، وعلى علي الراغب في الآخرة ، فماله في الدنيا من أَرب ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين سادوا على جميع العجم والعرب ، وسلم تسليما .

قال الله عز وجل : (واتقون يا أُولي الألباب) البقرة : ١٩٧ . قد أمر الله سبحانه وتعالى بالتقوى في غير موضع من كتابه .

عن أَنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « الإسلام علانية ، والإيمان في القلب » قال : ثم يشير إلى صدره ثلاث مرات . ثم يقول : «التقوى هاهنا التقوى هاهنا» .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « من سرّه أن يكون أكرم الناس ، فليتق الله » .

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم ؛ أن رسول الله ﷺ أَخذ بيده ، فقال : « لا تدع شيئاً اتقاءً لله ، إلا أعطاك الله خيراً منه » .

وقال وهب بن مُنبه : الإيمان عريان ، ولباسه التقوى .

وقال لقمان لابنه : يا بُني ؛ إتخذ تقوى الله تجارة ، يأتك الربح من غير بضاعة .

واعلم أن التقوى تكون في الظاهر والباطن ، فأما في الظاهر ،فتقوى العين؛ غضها عن الحرام ، وحفظها عما لا تؤمن عاقبته ، فرب ناظر إلى مباح الدنيا دعته نفسه إلى تحصيل مثله ، فانحرف الأمر عليه ،وتقوى اللسان ، حبسه عن فضول الكلام ، والمتقي إذا أراد أَن يتكلم ، نظر في الكلام قبل النطق ، وترك مالا فائدة فيه ، ولا يكاد يذكر مالا حاجة به إليه .

قال الحسن رحمه الله : ما زالت التقوى للمتقين ، حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام .

ثم إن التقوى الظاهرة تخرج بصاحبها إلى التقوى الباطنة ، وهي مراقبة الله عز وجل .

وقد سئل النبي ﷺ عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : علم القلب بقرب الرب عز وجل .

واعلم أن أقواماً يتعبّدون ويصومون ويسهرون ، ولكنهم يخلطون فعلهم بما ينافي التقوى من طعم شبهته غيبة ، فهؤلاء عن التقوى بمعزل .

يا من يبيت على اللذات معتكفاً	الموت يأتيك والآفات تنتظر
لا تحقرنّ يسير الخير تفعله	فرب نفع لشيء وهو يحتقر
وجانب الشر لاتسلك طريقته	ولايكن لك في أصحابه أثر
فكل نفس ستجزى بالذي فعلت	وليس للخلق من ديّانهم وزر

تأتي الجلود وأيدينا وأرجلنا فيشهدون معاً والسمع والبصر

فليت شعريَ من كانت جوارحه هي الشهود عليه كيف يعتذر؟

أم أين يهرب أم ماذا يقول وهل يطيق دفعاً لها أم كيف ينتصر؟

أيها المشغول طول الليل بالمنام ، وطول النهار بالحطام ، أترضى بمشاركة الأنعام ؟ هذّب النفس ، فهي المقصود لا الأجسام .

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته أتطلب الربح فيما فيه خسران؟

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

كيف يسوغ لك المطعم ، وقد فعلت ما تعلم ؟ يا معوجاً بالشقاق لا يتقوّم ، يا مرتضعا ثدي الأمل ، عن قليل تفطم ، أما يؤثر فيك عذل اللوم؟إن كان لك عذر فقل وتكلم ، سيظهر قبيحك غداً ، فإلى كم يكتم . أين غضك طرفك عن كل محرم ؟ أين إمساكك لسانك ، فالتقي ملجم ؟ تأخذ أعراض الناس وتلدغها لدغ أرقم ،لسانك معسول بالخداع وقلبك علقم ، اللذة تفنى والعذاب يبقى ، هل تفهم ؟ يا مصراً على الذنوب ، مثلك لا يسلم .

إن كنت قد انتبهت ، فاعزم على هجر النوم ، إن كنت رجلاً فزاحم أويساً وابن أدهم . القلب غائب ، والسر ذاهل ، فمن ذا يكلم ؟ لما علم المتقون أنهم محاسبون على أعمالهم ، مجازون على أفعالهم ، حاسبوا أنفسهم قبل الحساب .

عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » .

وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ،وزنوها قبل أن توزنوا، وتهيؤوا للعرض الأكبر .

وكتب إلى أبي موسى رضي الله عنه : حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة.

وقال ميمون بن مهران : لا يكون الرجل تقياً حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك لشريكه .

وقال ابراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، ثم قلت لنفسي : ما تريدين ؟ فقالت : أُردّ إلى الدنيا فأعمل صالحاً ، فقلت : فأنت في الأمنية فاعملي .

وكان الأحنف بن قيس يجيء بالليل إلى المصباح فيضع إصبعه فيه ثم يقول : حنيف ، ماحملك على ماصنعت يوم كذا ؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟

ومما ينبغي أن يقال للنفس : ويحك من لايدري متى يختطف كيف يغفل ؟ ومن لايعلم الى أي الدارين يصل كيف يسكن ؟ ويحك ، إن جميع العمر بالإضافة الى عمر الدنيا كلحظة ، والكل بالإضافة الى البقاء الأبدي يكون كطرفة عين ، ويحك ، من الجهالة اعتمادك على العفو ، ونسيانك العقوبة . ويحك ، أتعمرين قصرك والقبر الى جانبك ؟ وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ؟ فهذه أحوال المؤمن مع النفس ، فتارة يحثها ، وتارة يراقب عملها ، وتارة يحملها الى مكارهها .

وقد كان كثير من السلف يستوفي على النفس الأعمال ويكرهها عليها اغتناماً للعمر .

وقال له رجل : قف أُكلمك ، قال : امسك الشمس . فهؤلاء فرسان الميدان ، فاسمع يامضيع الزمان .

قال الحسن بن الحسن البصري رحمه الله : حق على من علم أَن الموت مورده ، والقبر مرقده ، والقيامة مشهده ، وبين يدي الله عز وجل موقفه ، أَن يطول في الدنيا حزنه .

يامن تملك ملكاً لابقاء له ... حملت نفسك آثاماً وأَوزارا

هل الحياة بذي الدنيا وإن عذبت ... الا كطيف خيال في الكرى زارا

أَين الأولون ومن مضى من الآخرين ؟ أَين آدم صفوة رب العالمين ؟ أَين نوح أَول

المرسلين ؟ أين ادريس رفيع رب العالمين؟ أين ابراهيم خليل الرحمن في النبيين ؟ أين موسى الكليم من أولى العزم من المرسلين ؟ أين عيسى روح الله وكلمته حجة الله على الزاهدين ؟ أين محمد حبيب الله من بين سائر المسلمين ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين .

أين أصحابه الأبرار ؟ والتابعون الأخيار ، أين الامم الماضية ؟ أين القرون الخالية؟ أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان ؟ أين الذين قهروا الأبطال والشجعان ؟ أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب؟ أين الذين تمتعوا باللذات من المطاعم والمشارب ؟ أين الذين اعتزوا بالأجناد والسلطان ؟ أين أصحاب السطوة والأعوان ؟ أين أصحاب الأسرة والولايات ؟ أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات ؟ أين الذين قادوا الجيوش والعساكر ؟ أين الذين عمروا القصور والدساكر ؟ أين الذين ملؤوا ما بين الخافقين فخراً وعزاً ؟ أين الذين فرشوا القصور خزّا وقزّا ؟ أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبة وهزّا ؟ (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) مريم : ٩٨ . أفناهم والله مفني الأمم ، وأبادهم مبيد الرمم ، وأخرجهم من سعة المساكن والقصور ، وأسكنهم في ضيق اللحود والقبور ، تحت الجنادل والصخور ، قد خلت من كثرتهم أماكنهم (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) الأحقاف : ٢٥ . لم ينفعهم ما جمعوا من الحطام ، ولا أغنى عنهم ما كسبوا من حلال وحرام ، أسلمهم الأحبة والأولياء . وهجرهم الإخوان والأصفياء ، ونسيهم الأقرباء والبعداء ، ولم يعلموا أهم أشقياء أم سعداء ؟ فنسوا وأبعدوا ، ولو نطقوا لأنشدوا :

مقيم بالحجون رهين رمس	وأهلي نازلون بكل واد
كأني لم أكن فيهم حبيباً	ولا كانوا الأحبة في السواد
فعوجوا بالسلام فإن أبيتم	فأوموا بالسلام على البعاد
فلو أنا بموقفكم وقفنا	لزدنا في المحبة والوداد

فصل

في قوله تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) المؤمنون: ٥١.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، إن الله طيب ، لايقبل إلا طيباً ، وإن الله عز وجل أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) البقرة:١٧٢. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء ، يارب يارب، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك » ؟ .

كان الأنبياء والصالحون يجتهدون في كسب الحلال ، فكان آدم حراثاً ، وإدريس خياطاً ، ونوح وزكريا نجارين ، وداود زراداً ، وإبراهيم ولوط زراعين ، وصالح تاجراً ، وموسى وشعيب ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين ، رعاة .

وكان عيسى عليه السلام يأكل من غزل أمه ، وكان يحيى بن زكريا عليهما السلام لايأكل شيئاً مما في أيدي الناس ، مخافة أن يكون داخله ظلم ، إنما يأكل من نبات الأرض ، فلما حضرته الوفاة قال الله عز وجل لملك الموت : إذهب إلى تلك الروح التي في ذلك الجسد الذي لم يعمل خطيئة ولم يهم بها ، فاقبضه .

وفي « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات ، لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات ، فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن واقعها واقع الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، وإن حمى الله ماحرم » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « كن ورعاً ، تكن أعبد الناس » .

وفيما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ياموسى إنه ليس من عبد يلقاني يوم القيامة إلا ناقشته الحساب وفتشته عما كان في يديه ، إلا الورعين فإني أَستحييهم وأجلهم وأكرمهم ، وأدخلهم الجنة بغير حساب.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام في الزبور : قل لبني اسرائيل : إني لاأنظر إلى صلاتكم ولا صيامكم ، ولكني أنظر فيمن شك في شيء فتركه لأجلي ، ذلك الذي أؤيده بنصري ، واباهي به ملائكتي .

وقال عيسى عليه السلام : لو صمتم حتى تصيروا مثل الحنايا ، وصليتم حتى تكونوا مثال الأوتاد ، وجرى من أعينكم من الدموع أمثال الأنهار ، ما أدركتم ماعند الله عز وجل إلا بورع صادق .

وقال معاوية بن قرة : دخلت على الحسن فقلت : أي الأعمال أَحب إلى الله عز وجل ؟ قال : الصلاة في جوف الليل والناس نيام . قلت : فأي الصوم أفضل ؟ قال : في يوم صائف ، قلت : فأي الرقاب أفضل ؟ قال : أنفسها عند أهلها ، وأغلاها ثمناً . قلت : ماتقول في الورع ؟ قال : ذلك رأس الأمر كله .

وقال ابن المبارك : لأن أرد درهماً من شبهة ، أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى بلغ ستمائة ألف .

وقد ذكر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، قاء من طعام فيه شبهة .

وكان علي كرم الله وجهه يختم على طعامه مخافة أن يختلط به غيره . ويقول : لاأختم عليه بخلاً ، ولكن أكره أن أدخل بطني إلا طيبا .

وعن شعيب بن حرب قال : خرجت مع سفيان الثوري من الكوفة نريد زيارة ابراهيم بن أدهم ، فدلونا عليه وهو نائم في الشمس وسط الجامع ، فجئت إليه فحركته ، وقلت له : صديقك سفيان الثوري ، فوثب إليه وعانقه وجلسا يتذاكران ، فقال سفيان : يا أبا إسحاق ، أي شيء نعمل ؟ فقال : نخرج إلى الحصاد ، فخرجنا فأكرينا أنفسنا بدرهمين ، وحصدنا ، فلما فرغنا ، فرح بنا صاحب الزرع وقال : تعالوا كل يوم .

قال شعيب : فقال لي سفيان : امض واشتر ما يصلح ، وقعدوا في المسجد ، فاشتريت لهم طعاماً وجئت به ووضعته بين أيديهم ، فقال سفيان لإبراهيم : كل ، فقال إبراهيم لسفيان : أنت أكبر وأعلم ، كل أنت ، فما زالا يتماريان حتى قال سفيان لإبراهيم : دعني من هذا ، تضمن لي أنا نصحناه في العمل وأن هذا الطعام لا تشوبه شبهة ؟ حتى آكل . فقال : لا . فقال سفيان : فليس لي إليه حاجة ، قال إبراهيم : ولا لي رغبة فيما زهدت فيه ، فانصرفنا وتركنا الطعام بحاله .

وقال أصحاب سليمان الخواص له : ألا تغزو معنا ؟ فقال : إني لفي جمع ثلاثة دراهم من حلها منذ كذا وكذا ، فما أقدر على ذلك . فقالوا له : لو كان المسلمون هكذا ما غزا الروم أحد ، فقال : لو كان المسلمون هكذا ، لكبروا تكبيرة ينهدم لها سور القسطنطينية .

وسجن ذو النون المصري ، فبعثت إليه امرأة من المتعبدات طعاماً وقالت : هذا من مغزلي ، فلم يأكل ، فسألته عن سبب امتناعه فقال : الطعام حلال ، إلا أنه جاءني في ظرف حرام ، وهو يد السجان ، والسجان ظالم ، فلم آكل .

وقال بشر الحافي : إني لأشتهي شواء منذ أربعين سنة ما صفا لي درهمه .

وقال ابن أخته : سمعت بشراً يقول لأمي : جوفي وجع ، وخواصري تضرب ، فقالت له : ائذن لي حتى أصلح لك قليل حسىً بكفٍّ دقيق تتحساه ، فقال : ويحك ؛ أخاف أن يقول لي : من أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدري أي شيء أقول له . فبكت أمي وبكى معها وبكيت معهم ، ورأت أمي ليلة ما به من شدة الجوع ، وجعل يتنفس نفساً ضعيفاً . فقالت له أمي : يا أخي ليت أمك لم تلدني ، فقد والله انقطعت كبدي مما أرى بك ، فقال : وأنا فليت أمكِ لم تلدني ، وإذ قد ولدتني ، لم يدرّ لها ثدي علي .

وكان بشر رحمه الله تعالى ينشد :

قطع الليالي مع الأيام في خلق   والنوم تحت رواق الهم والقلق
أحرى وأجدر بي من أن يقال غداً   إني التمست الغنى من كف مختلق
قالوا رضيت بذا قلت القنوع غنىً   ليس الغنى كثرة الأموال والورق

رضيت بالله في عسري وفي يسري   فلست أسلك إلا واضح الطرق

إخواني : بينكم وبين القوم كما بين اليقظة والنوم ، رحل أهل الورع ، وبقي أهل الطمع ، سبحان من أعطاهم ، ومنّ عليهم وأولاهم ، أعرضوا عن دنياهم ورفضوا هواهم ، فبلغوا من سيدهم مناهم ، إذا توانى المفرط حققوا ، وإذا أمن المضيّع أشفقوا ، شغلهم ذكره عن الأذكار ، وألهاهم حبه عن الجنة والنار .

يا مشغولاً عن طريقهم بالمال الذي جمع ، يا من لاحت له محجّة الهدى فلما رأى رجع ، يا من ناطقته العِبَر وحادثته الفِكر وما انتفع ، يا زارع التفريط سيحصد الزارع ما زرع ، يا طويل الأمل تأمّل رفيقك ماذا صنع ؟ اغتنم حياتك فإنما الحياة كبرق لمع .

إنما الدنيا متاع زائل   فاقتصد فيه وخذ منه ودع

اشهد الجامع ان لو قد أتى   يومه لم يُغنِ عنه ما جمع

أيها الآمل في دار الأذى   أي يوم مر فيه لم تُرع

عجباً في مطمئن آمن   إنما يغذى بألوان الفزع

أسفاً للخلق ما أغفلهم   من وقوع الموت عما سيقع

ربّ قوم لو توهمتهمُ   قلت فيء زال أو برق لمع

وكذاك الدهر في تصريفه   طالما أودى وأردى وفجع

يا أخا الميت الذي شيعه   وحثا الترب عليه ورجع

ليت شعري ما تزودت له   فادخر زاداً لهول المطّلع

يوم يهديك محبّوك إلى   ظلمة القبر وضيق المضّجطع

عِباد الله اطلبوا الحلال واحذروا الشبهات ، واقنعوا باليسير فما يحتمل الصافي الشهوات ، وليس الطيب ما طاب طعمه بل ما صفا من آفات ، وبذلك أمر الأنبياء ، لا باتباع اللذات (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) المؤمنون : ٥١ .

الدنيا دار تكليف لا منزل راحات ، احذروا لذيذ مطاعمها فعمومها مسمومات ، كانوا يقنعون من الدنيا بلقيمات ، ويتناولون بين الليل والنهار تمرات ، غرسوا أشجار الصبر

يرجون الثمرات ، فما مضت الأيام إلا وسنبل النبات ، ما ضرهم مـا مضى من الملمات ؛ لقد عاشوا بالذكر بعد الممات ، وصلوا بعد الرحيل الى الجنات ، فتلقتهم براحات الراحات (حور مقصورات) الرحمن : ٧٢ . كان أويس يلتقط من المزابل خريقات ، وربما أعد لإفطاره حشيشات أو حشيفات ، فيأكلها ثم يرد الفرات ، ما أطيبها إذا سلمت من الزلات .

ويحك إن اللذات سبب هلاك الذات ، ويحك لا تحتقر الذرات ، فإن لجند الحساب كرات ، كم تعزم على أفعال الطاعات ، ثم تتغير في ساعة لا في ساعات ، كم لك إلى التوبة وثبات ، ولكن كلها بلا ثبات .

يا مغتراً بالمهلة ، يا ناسياً قرب النقلة ، يا راقداً في الغفلة ، إلى كم شتات .

طول نهارك في كسب الحطام ، وطول ليلك في الجهل تنام ، وتريـــد أن تلحق الأبرار الكرام ، وأنت تأكل الحرام ، هيهات لا مطعمك يطيب ولا مطعمك ينيب ، وقد فعلت من الخطأ كل عجيب ، لقد حيّر مرضك كل طبيب ، يا مغتراً من كل الجهات تأتي بقلب قد أظلم ، فتحدث بالصبح ولا تفهم ، وتقول : دلوني على طريق ابن أدهم ، ألا إن العمى مانع والظلم ظلمات .

اللهم ارزقنا الاعتماد عليك والانقياد إليك ، والحب فيك والأدب بين يديك .

اللهم إنا نتوسل إليك باسمك العظيم وبوجهك الكريم ، وبدينك القويم ، وبصراطك المستقيم ، وبالسبع المثاني والقرآن العظيم ، أن تكفينا ما أهمّنا من أمر الدنيا والدين ، وأن تداركنا بلطفك ورحمتك وتنجينا من الغم يا منجي المؤمنين ، برحمتـــك يا أرحم الراحمين .



المجلس التاسع والخمسون

في ذكر القلب والتفكر

الحمد لله الواحد المجيد ، الخالق الرازق ومن عنده المزيد ، الفعال في عبيده لما يريد ، يسبحه الحب النضيد ، والأبّ الحصيد ، والدماء في الوريد ، والقريب والبعيد ، والرقيب والعتيد ، اقتضت نعمة الخالق شكراً ، فوجدت النفوس بالجهل سكرى ، (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) ق: ٣٧. أوجد ما شاء كما شاء وأعدم ، وأمات وأحيا ، وعافى وأسقم ، وأغنى وأفقر ، وأهان وأكرم ، وأطلع على أسرار الخلق ، وفاوت بينهم وقسم (فمنهم شقي وسعيد) هود: ١٠٥. أحمده على ما ينعم ويفيد ، وأقر بوحدانيته عن برهان لا عن تقليد ، واصلي على رسوله وعبده معدن الرسالة وأفضل العبيد ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الثابت على وقعة يوم الردة ثبات الحديد ، وعلى عمر القوي في دين الله الشديد ، وعلى عثمان التقي النقي الرشيد ، وعلى علي مقدم الأهل وبيت القصيد ، وعلى سائر آله وأصحابه ذوي الرأي السديد ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل : (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) اعلم أن القلب إذا أطلق أريد به الجسماني الذي في الصدور ، وليس المراد به هذا ههنا ، لأن الحيوان البهيمي يشارك الآدمي فى ذلك ، وإنما اللطيفة التي هي الآدمي حقيقة ، تارة تسمى بالقلب ، وتارة بالروح ، وتارة بالنفس ، وتارة بالعقل.

قال الزجاجي : ومعنى الآية : ان في ذلك لذكرى لمن صرف قلبه إلى التفهم . أو ألقى السمع : أي : استمع ولم يشغل قلبه بغير ما استمع . (وهو شهيد) أي : وقلبه حاضر غير غائب .

ثم اعلم أن القلب أمير البدن، والجوارح خدمه، وقد ركب في الآدمي ماركب في الملك من العلم والعمل بمقتضاه.

وركب فيه ماركب في البهيمة من الحرص والحسد، والشره والشهوات، فالعلوم تحركه إلى الأخلاق الرفيعة، والشيطان يدعوه إلى الأخلاق البهيمية، فإن مال إلى التقى فر الشيطان من ظله، وإن مال إلى الشهوات البهيمية تمكن الشيطان منه، وربما قبض عليه فقتله.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت الجسد كله، ألا وهي القلب». أخرجاه في «الصحيحين».

ولما اكتنف القلب صفات الخير وصفات الشر، كان كلما تشبثت به صفة أثرت فيه. وهذا معنى تقلب القلوب.

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

واعلم أن القلب يمرض من الخطايا كما يمرض البدن من التخليط. فالمتقون يستعملون الحمية بالتقوى قبل الوقوع في المرض، ومنهم من تزل قدمه بزلة فينتبه لها، فيرقع الخلل بالاستغفار، ومنهم من يتوانى في الإصلاح، فيعظم فساد القلب، فيقسو ويظلم ويصدأ.

ياصاحب الدار المعد لها	ماذا ادخرت لدارك الأخرى
وممهد الفرش الوطية لا	تغفل فراش الرقدة الكبرى
ولقد مررت على القبور فما	ميزت بين العبد والمولى
ولقد نظرت فلم أجد شرفاً	أعلى لصاحبه من التقوى

يامن أصبح بحب الدنيا متيماً، متى تكون لنفسك ميمماً، متى ترى بعد الزيغ متقوماً، إلى متى تصبح عاصياً وتمسي مجرماً، أما تخشى عاراً، أما تحذر مأثماً؟ متى تسمع من عاذليك، متى تعرف معاديك من مواليك؟ إلى متى تبارز العظيم المليك، إن هذا لهوى الرأي الركيك،

أما النذر كل يوم تراوحك وتغاديك، يامن شاب وما تاب اعتبر بذويك ، ستفعل الدنيا بك مافعلت بأبيك ، وسترحل عنك كما رحلت عن أخيك ، وكأنك بالتراب أدنى مايليك فقام على قبرك الحبيب القريب يبكيك ، وأنت مشغول بجالك عمن يمدحك ويرثيك ، أما في سلب الرفقاء مايكفيك . لقد جمعت خصال الأشقياء لولا حسن الرجاء فيك .

هب الدنيا تواتيك ... أليس الموت يأتيك

ألا يا طالب الدنيا ... دع الدنيا لشانيك

فما تصنع بالدنيا ... وظل الميل يكفيك

يامن قد حل التلف بفنائه ، وناصبه الحتف بإزائه ، وأحاط به الهلاك بين يديه ومن ورائه ، وجدّ به الرحيل عن الدنيا وحبها في سويدائه ، يا أسير مرضه وقد رضي بدائه ، ياجائراً حائراً بعد رشده واهتدائه ، يا من نفسه على الحقيقة من أكبر أعدائه ، ياطامعاً في البقاء قد رأى مصير آبائه ، يامبارزاً بالذنوب مهلاً أيها التائه ، أين الذين قبلك في دارك مكثوا ؟ وأوغلوا في طلب الدنيا وبحثوا ؟ ومالوا إلى الهدى فلعبوا وعبثوا ، نقضوا والله بعد قواهم ونكثوا ، وأقاموا في القبور بعد العصور ولبثوا ، وعن قليل فكأن قد بعثوا ،لقد أسكت الردى ألسنتهم الفصيحة ، وهشم البلاء أجسادهم الصحيحة ، وشان البلى وجوههم الصبيحة ، وأحل العصيان بهم كل فضيحة .

لما مات الاسكندر قال أرسطا طاليس : أيها الملك لقد حركتنا بسكونك .

وقال آخر : لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم . وهو اليوم أوعظ منه أمس .

كفى حزناً بنقلك ثم إني ... نفضت تراب قبرك من يديا

وكانت في حياتك لي عظاة ... وكنت اليوم أوعظ منك حيا

عباد الله إن القناعة كنز لاينفد ، وعز كل يوم يتجدد ، وإن وجه الحريص بالحرص أسود ،أمايستحي الحريص إلى كم يتردد .

أين المغرور بالدنيا هلك ؟ أين محبها وأين سلك ؟ رحل بالأوزار وترك ماترك ، كم قتل حبها حبيباً وفتك ، كم مستور بعقله مالت به فانهتك ، كم غرت من عبد وخدعت من نسك ؟ دركها وقوع في الدرك ، طريقها كله حسك .

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

ألا متيقظ من سنة غفلته، الا مستعد زاداً يصلح لنقلته، ألا متأهب لطول سفرته، ألا مقدم عملاً يصلح لحفرته، أيها المفرط في أمره وقد مضى أكثر عمره، ماذا بقي لمن شاب من لذات دهره ؟ كيف يحمل بعد الضعف وزراً على ظهره ؟

وقد أشرقت لمته بشيبه اشراق النهار بفجره، يا غافلاً عدم توفيقه، يامسافراً خانه رفيقه، ياجاهلا ضاقت طريقه، ياحاملاً وزراً لايطيقه ـ كم لك في المعاصي عصراً عصراً، وكم حملت على الأزرمن الوزر وزراً، كم ستوناك على الخطايا دهراً، تعاهد ولا تفي إلى كم غدراً، طال عليك الأمل فصار القلب صخراً، أما هواتف الرحيل بك قد نادت، أما قواصم الآفات لأقرانك أبادت.

كان سري السقطي يقول : الدهر ثلاثة أيام : يوم مضى بسيء بؤسه وشدته وهمه لم يبق منه شيء، واليوم الذي أنت فيه صديق مودع لك سريع الرحلة، طويل الغيبة، وغداً في يدك تأميله ولعلك من غير أهله، ولقد عجبت لمن غدا وراح، في طلب الأرباح وهو لايربح نفسه، ولو أشفقت النفوس على أديانها، شفقتها على أولادها، للاقت السرور في معادها.

وجاء حسن الفلاس إلى بشر الحافي مراراً ليسأله عن مسألة، وبشر لايلتفت إليه، فتبعه يوماً فخرج إلى المقابر، فلما صار فيها وقف فقال له : ياحسن ؟ أيود هؤلاء أن يردوا فيصلحوا ما أفسدوا ؟ يا حسن من جعل شهوات الدنيا تحت قدميه، فرق الشيطان من ظله، ومن غلب هواه فهو الغالب.

واعلم أن البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك اياه، فإذا لقيته فقل : قال لي بشر : فرجع الحسن وعزم على الزهد، فكان يلبس الخرق من المزابل، فلما احتضر قال : لقد أعطاني ما يتنافس فيه المتنافسون.

ياهذا أين أنت من المتقين ؟ وقد عملوا على اليقين، وحاربوا الدنيا فلبسوا دروعاً يقين، فيا بشرى تلك النفوس، وياشرف مالقين.

ذنوبي قطعت عني جوابي | فما عذري غداً يوم الحساب
فكم شاب ينادي واشبابي | وكم شيخ ينوح على الشباب
وكم من منطق أضحى فصيحاً | فلم يقدر على رد الجواب
وكم وجه صبيح صار فحماً | يلقاه بأنواع الحساب
فيا منان يا منان عفواً | فجد بالعتق من سوء العقاب

فصل

في قوله تعالى : (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) آل عمران : ١٩١ . قدمدح الله عز وجل المتفكرين في هذه الآية .

واعلم أن التفكر معناه : أن يحضر الإنسان في قلبه معرفتين ، ليتثمر منهما معرفة ثالثة ، فإذا تفكر في السموات والأرض علم أنها مخلوقة ، وعلم أنه لابد لها من خالق ، فأثمرت المعرفتان معرفة ثالثة ، وهي طاعته ولزوم أمره ، وكذلك إذا علم أن الباقي أولى من الفاني ، ثم علم أن الآخرة أبقى ، حصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة ، وهي أن الآخرة أولى بالإيثار ، وثمرة الفكر العلوم والأحوال ، ومتى حصل العلم في القلب ، تغير حال القلب ، فتغيرت أعمال الجوارح ، فالفكر هو المبدأ ، والمفتاح للخيرات كلها ، فإنه إذا تفكرنا فعلمنا أن الآخرة خير من الدنيا ، تغيّرت القلوب عن الرغبة في الدنيا ، فرغبت في الآخرة .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

وقال الحسن رحمه الله : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .

وأفضل العبادة التفكر والورع ، ومن لم يكن كلامه حكماً فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو .

وقال سعيد بن المسيب : العبادة التفكر في أمر الله والكف عن محارم الله .

وقال عامر بن عبد قيس لرجل : عليك بالصمت والحزن والفكر ، فإنك إذا نلت ذلك لم تدع للعابدين مقاماً .

وقيل لإبراهيم بن أدهم : إنك لتطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ العمل .

وقال بشر الحافي : لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوه .

وكان سفيان رحمه الله من تفكره يبول الدم .

وقالت امرأة من المتعبدات : لو طالعت قلوب المتقين بفكرها ماقد ادخر لها في حجب الغيوب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ، ولم تقر لهم في الدنيا عين .

واعلم أن الفكر في مثل هذه الأشياء ينفع ، وكذلك الفكر في مخلوقات الله عز وجل ، وأما التفكر في ذات الله تعالى فقد منع منه .

قال ﷺ : « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » . وإنما منع من هذا ، لأن العقل يتحير فيه ، فينبغي التشاغل بالفكر في المخلوقات ، ومن تفكر في خلق نفسه دهش ، وإنما يسقط التعجب من الأشياء لكثرة المشاهدة ، ومن تفكر في السموات علم أنها كقطرة في بحر ، ومن علم عظمة شمسها وقمرها وكواكبها ، رآها تجري بحسبان لايزيد ولا ينقص .

وانظر إلى الشمس كيف تنخفض في الشتاء فيبرد الهواء ، فإذا استوت في وسط السماء ، كان الحر وما من شيء إلا وللفكرة فيه مجال ، ولكن أين القلوب المتفكرة ، فإن أقل قليل أدل دليل على عظمة الله الجليل .

ما مرّ يوم على حيٍّ ولا ابتكر إلا رأى عبرة فيه إن اعتبرا

ولا مضت ساعة في الدهر وانصرمت حتى تؤثر في قوم لها أثرا

إن الليالي والأيام لو سئلت عن غير أنفسها لم تكتم الخبرا

عجباً لنفس تنكر الجزاء ما أعماها ،أما أظهر الأدلة لها وجلاها ، من الذي مدّ

الأرض ودحاها ؟ وابتعث الغمام فسقاها ؟ (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) يس: ٣٣.

أما في هذا دليل لها فما أشقاها (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها) النازعات: ٢٧. إله عظيم لم يزل إلها ، وملك كبير ملكه لا يتناهى ، يسمع صريف الأقلام ومجراها ، ولا يخفى عليه خافية ممن أخفاها ، يقسّم الأرزاق فما يترك ذرّة ولا ينساها ، أحكم الأمور كلها وقضاها ، وعلى ما سبق علمه بها أمضاها ، سواء أسخط النفوس أو أرضاها ، وكما قدّر مبدأها قدّر منتهاها ، أحاط الأجسام بمصالحها ورعاها ، ولطف بالنفوس في التكليف وراعاها ، وفتح باب الكرم ثم استدعاها (لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) الطلاق: ٧. من جاء بالشمس وضحاها ؟ (والنهار إذا جلاّها والليل إذا يغشاها) الشمس: ٣. من أهلك (ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها) .

من رتّب الطلع في الجفّ ؟ من صف حب الرمان إذ صُف ؟ من أنشأ ذوات الظلف والخف ؟ من الذي تعلقت بفضله الأكف ؟ فكفها بالغرض وكفاها ، من أخرج الأصول لا من أصول ؟

من بقدرته يبطش ويصول ، ويقول للشيء (كن فيكون) يس: ٨٣. كما يقول ، لا يمتنع عن الإرادة ولا يأباها ، يقول للأشياء عودي فتعود ، وترجع مخضرة بعد يبس العود ، ويقضي لأقوام بالشقاء ولأقوام بالسعود ، واهاً لذلك اليوم واها ، خلق آدم من طين جامد ، وحواء من ضلع واحد ، وعيسى من أم بلا والد ، ذاك القادر على إعادة البائد ، فما أجهل النفوس المنكرة وما أجفاها .

من نقل المنيّ إلى علقة ؟ من خلق الأنف وشق الحدقة ؟ من أخرج من يابس الغصن الورقة ؟ وقد كان عرياناً فاكتساها ، تخلو الأبدان من أرواحها وتفرغ ، ثم تطلع شمس الحياة عليها وتبزغ ، فتصعد قلوب الكافرين إلى الحناجر وتبلغ ، وتبلغ نفوس المؤمنين مناها ، يوم الحشر يوم عظيم ، كم فيه من عذاب أليم (إلا من أتى الله بقلب سليم) الشعراء: ٨٩. يجثو فيه الخليل والكليم ، ويشفع صاحب طه .

كان عمرو بن عقبة يخرج ليلاً ويقف على القبور ويقول : يا أَهل القبور قد طويت الصحف ، وقد رفعت الأعمال ، ثم يبكي ، ثم يصف قدميه حتى يصبح .

وكان بعض السلف يقول : زوروا القبور كل يوم بفكركم . وشاهدوا الموقف كل يوم بقلوبكم ، وانظروا إلى منصرف الفريقين بتوهمكم ، وأَشعروا أبدانكم ذكر النار ومقامعها ، فمختار لنفسه أيام مكانها ، رحمه الله تعالى .

خليليّ إن طال الوقوف عليكما　　فحثا المطايا واتركاني بها وحدي

ألا إنها الآثار ممن احبه　　ومثل حبيب النفس آثاره عندي

يا هذا تفكر في أمرك وانقضاء عمرك ، وإخراجك من قصرك ، والوزر على ظهرك ، ومحاسبتك على سرك وجهرك ، تفكر في إثبات أعمالك وخيبة آمالك ، ووقوفك وسؤالك ، وربما كنت الهالك .

لذة المؤمن الفكر　　لذة المؤمن العِبر

رُب لاهٍ وعمره　　قد تقضّى وما شعر

صاحب المنزل الذي　　أنت فيه على سفر

إن في ذا لعبرة　　للبيب إذا اعتبر

يا هذا تفكر إذا قام من القبور جميع الورى ، ينفضون عن رؤوسهم الثرى ، إلى حكم من أنشأ وبرا (وبرّزت الجحيم لمن يرى) النازعات : ٣٦. إذا ذكرت النفوس ذنوبها وجلت ، وإذا عوتبت على زللها خجلت (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) آل عمران : ٣٠.

أهوال لا توصف ، وشدائد لا تعرف ، يتحيّر فيها من أسرف ، وتحمل من الأوزار وتكاف أثقل من جبل حرا .

حضروا خاشعين من الذل ، ونكّسوا الرؤوس كأنهم عليهم غُل ، فلقد قام في ذلك الموقف الكل ، قيام الأسرا تقوم من القبور الرمم ، وتجثو للهول الأمم ، ويبكي

من أساء وظلم ، آهٍ ثم آهٍ من ندمٍ قد عنّ واعترى ، فحينئذ يتنبه النائم ، وينكّس رأسه النادم ، وينتصر المظلوم من الظالم ، والحاكم رب الورى .

إخواني : دعوا الذنوب القباح ، واجتهدوا اليوم في الصلاح ، واحملوا الصعب وإن شق على الأرواح ، فعند الصباح يحمد القوم السُّرى .

اللهم نجّنا من تلك الأهوال ، ووفقنا للاستعداد بصالح الاعمال ، وآمنا يوم الرجف والزلزال ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الستون

في ذكر التوكل

الحمد لله القديم الخالق ، العظيم الحليم الصادق ، الرحيم الكريم الرازق ، رافع السبع الطرائق ، بغير عمد ولا علائق ، ومثبت الأرض بالشم الشواهق ، مزيّنة بالأشجار والحدائق ، المتعرّف إلى خلقه بالبراهين والحقائق ، المتكفل بأرزاق جميع الخلائق ، خالق الحيوان الناطق من ماء دافق (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق)الصافات :٣٧.

أحمده ما سكت ساكت ، ونطق ناطق ، وأقر بوحدانيته إقرار مخلص لا منافق ، وأصلي على رسوله محمد الذي عمّت دعوته الخفيض والشاهق ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر القائم يوم الردة بالحزم اللائق ، وعلى عمر مدوخ الكفار وفاتح المغالق ، وعلى عثمان الذي ما استحلّ حرمته إلا مارق ، وعلى علي الذي كان يدخل بالشجاعة في المضائق ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين كل منهم على من سواهم فائق ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل : (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)المائدة:٢٣.

وقال تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) الطلاق:٣.

وقال جل ذكره : (إن الله يحب المتوكلين) آل عمران :١٥٩.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطاناً » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » .

واعلم أن التوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى وحده ، ومن اعتمد على السبب فليس بمتوكل ، ثم إن التوكل فعل القلب ، ولا ينافيه الكسب بالبدن ، والادخار وجلب المنافع ودفع المضار والتداوي .

ففي « الصحيحين » من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يحبس لأهله قوت سنتهم ، ولا يلتفت إلى قول من قال : إن المتوكل لا يدخر ، ولا يتعرض بالسبب ، فإن أولئك قوم جهلوا معنى التوكل ، وآثروا الراحة والبطالة ، وقدقال الله عز وجل :(خذوا حذركم)النساء :٧١. وقال: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)الأنفال:٦٠.

فإن قال قائل: إذا أخذ المتوكل سلاحه ،وأغلق بابه ، فبأي معني يكون متوكلاً ؟.

فالجواب : يكون متوكلاً بالعلم والحال أما العلم ،فهو أن يعلم بالعدو إن اندفع ،فبدفع الله تعالى لا بأخذالسلاح ،وإن سلم من اللص ، فبمنع الله تعالى لا بغلق الباب ،فيتوكل على المسبب لا على السبب ، وأما الحال فيكون راضياً بما يقضي الله تعالى عليه ، ومتى عرض له أنه لو احترز لم يسرق متاعه فهو بعيد عن التوكل ، وإذا علم أن الخيرة فيما يقضي الله تعالى لم يحزن فيما جرى ،وليعلم أن القدر كالطبيب ، فإن قدم إليه الطعام فرح ، وقال : لولا أنه علم أن الغذاء ينفعني ، ما قدمه ، وإن منعه فرح وقال : لولا أنه علم أن الغذاء يؤذيني ما منعني .

روي عن الفيض بن إسحاق أنه قال : قلت للفضيل :حد لي التوكل. فقال : كيف تتوكل عليه وأنت مختار لك، فتسخط قضاءه ؟ أرأيت لو دخلت بيتك فوجدت امرأتك قد عميت ، وبنتك قد أقعدت ، وأنت قد أصابك الفالج ، كيف كان رضاك بقضائه ؟ قلت : أخاف أن لا أصبر .فقال : لا ، حتى يكون عندك واحداً ، ترضى بكل ما صنع في العافية والبلاء ، فبان أن التوكل عمل القلب واعتماده على الخالق ، ورؤيته أن لا نفع ولا ضر إلا منه ، ورضاه بما يدبره لأنه حكيم .

تمنيت الإقامة ياخليلي وما دنياك دار للاقامة

سعيت لدار ظعنك أي سعي | وقد أعرضت عن دار المقامة
شغلت لزاد يومك شغل من لم | يرد إذاً إلى يوم القيامة

لقد أبانت لك الدنيا عبرها ، وأوضحت عندك أمرها وخبرها ، فالسعيد من خبرها وعبرها ؛ والشقي من آثرها وقد سبرها ، كم قتلت شديداً ؟ وكم فرقت عديداً ؟ وكم أبلت جديداً ؟ وكم بتت عمراً مديداً ؟ كم أسمعت حين قالت ؟ وكم سئلت فما أقالت ؟ وكم غيرت وكم أحالت ، وكم حجبت عن مقصود وحالت ، وكم وعظت وعلى مصارع الأقران أحالت ، وكم أزالت إذ زالت ، من خيرات توالت ، كم أخربت ربعا ، وكم أسالت دمعا ، وكم أعرضت عن محبها قطعا ،أين من كان فيها بالملك يدعى ، أين من أضحى في تحصيلها يسعى ، هيهات صاروا في بطون الإلحاد صرعى ، وسلكوا من المهات سرعا ، (ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً) الكهف : ٩٩ .

لله در أقوام رفضوا الدنيا لعلمهم أنها لاتبقى ، ومالوا بالنفوس عنها حذراً أن تشقى ، وبادروا الفوت فاخذوا بالجد سبقا (اولئك هم المؤمنون حقا) الأنفال : ٤ . منعوا أنفسهم فيها ما اشتهت ، وزجروا هممهم عليها فانتهت ، وأزلوا أنفسهم بالرياضة فما تكبرت ولازهت ، وثنوا عنانها الى ما يصلح شأنها فتوجهت .

بأبي والله ظمؤهم في الهواجر ،ونصبهم في الدياجر ، ودموعهم في المهاجر ، وخوفهم من يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر ، طاب والله موردهم ولكن ماوردت ، ووضح سبيلهم إلا أنك ماقصدت ، ودعاك الهدى إلى الفوز بالمنى فتقاعدت ، واستزدت فأعرضت وتباعدت ، أخل بنفسك في بيت العزلة ، واشتغل بالعمل فإلى كم عطلة ، وحصل زاداً يكفي للنقلة ، فكأن قد ضرب بوق الرحلة .

فيانفس إن تطلبي عافيه | فلا بد أن تلزمي زاويه
فقد صار إخوة هذا الزمان | ذئاباً إذا فتشوا ضاريه
أكف عن الخير مكفوفه | وألسنة بالخطا جاريه
فطوبى لمستجلس بيته | قنوع له بلغة كافيه
فمن شره الناس في نجوة | ومن شرهم نفسه ناجيه

إلام هـــذه الحيرة والمقصود معروف ؟ وعلام تعتمد من عملك يوم الوقوف ؟ وكيف تصنع إذا عرض على الملك الرؤوف ؟ وبم احتجاجك وكتابك منضود بالسيئات محفوف ؟ وكيف حالك إذا أشهرك بين الصفوف ؟ ومن لك إن فاز الصالحون وأنت بالكدر موصوف ؟ يامقبلاً على عدوه معرضاً عني ، هل رأيت خيراً قط إلا مني ؟ أنا الذي لطفت وعطفت ، وجمعت بين المتضادات وألفت ، وعرفتك نفسي ، فقدمتك وشرفت ، متى تشكر إنعامي ورفقي ؟ أرضيت أن تكون من شراد خلقي ؟ من لك ان رميتك بهجري ؟ من لك إن حرمتك أجري ؟ من لك ان حبست عنك ما أجري ؟ من لك ان منعتك الهدى بحجري ، ياغافلاً وهـــذا العتاب يجري ، يامصنوع قدرتي ، ياموضوع حكمتي ، يامن علمته اسمي وعرفته صفتي ، احذر عصياني وخف مخـالفتي ، يا مقبلاً إلى بابي مرحباً وأهلاً ، يامبارزاً بالذنوب رويداً ومهلاً ، ياقليل الشكر من كفلك طفلاً ، يامتحيراً في أمره والقرآن عليه يتلى ، يامغتراً بالحلم كم تحت الحلم جرحى وقتلى ، يامسروراً بعيشه عيش محبتي أحلى .

لما حضرت الوفاة ابراهيم بن هانىء وكان صائماً قال لابنه : أنا عطشان ، فجاءه بماء . فقال له : أغابت الشمس ؟ قال : لا ، قال : فرده ، ثم قال : (لمثل هذا فليعمل العاملون) الصافات : ٦١ . ومات .

ياهذا ، ما الذي أبعدك عن هؤلاء السادة ؟ حب الأكل والوسادة ، طاعتك في نقصان ومعاصيك في زياده ، يامن أرضه سبخ ، وعمله وسخ ، والجهل فيه قد رسخ ، كلما عقـــد التوبة فسخ ، يامن يسرع الى ما يضره ويبادره ، ويعرض عما ينفعه ويحاذره ، ويبارز الخالق بالخطايا ويجاهره ، أما رأيت قصراً حلت بالموت مقاصره ؟ أمـا عـاينت ملكاً تفرقت عشائره ؟ أما أبصرت ذخراً لم ينتفع به ذاخره ؟ أما الموت جسر وكل حي عابره ؟ أما هذا المقول كل يوم تسمعه وتبصره ؟

ياساكن القبر قلب حين تسكنه ... عينيك وانظر الى مايصنع الحاثي

ياداخل القبر واسمع حين تدخله ... ماذا يرثـيك فيه بعدك الراثي

فصل

في قوله تعالى : (إنها تذكرة) في المكني عنها قولان . أحدهما : آيات القرآن ، والثاني : هي السورة . والتذكرة بمعنى التذكير .

(فمن شاء ذكره) أي : من شاء أن يذكر القرآن ويتعظ به ويفهم ذكره ، ثم أخبر بجلالة القرآن عنده فقال : (في صحف مكرمة . مرفوعة) أي : عالية القدر ، مطهرة من الشرك والكفر (بأيدي سفرة) وهم الملائكة (كرام) أي : على ربهم (بررة) أي : مطيعين (قتل الإنسان) أي : لعن ، وهو الكافر (ما أكفره) أي : ما أشد كفره . إله ما أعظمه وما أقدره ، يسمع صريف القلم في الخط إذ أسطره ، ولا يحجب شيء من الحواجب بصره ، يرى اللبن يسري في الثدي ، والماء يجري في الشجرة ، أفيحسن أن يخالف صاحب هذه المقدرة (قتل الإنسان ما أكفره) أما صوره وصيره؟ ! أما وهب له العقل وبصره؟ ! أما لطف به إذ نهاه وأمره؟ ! أما بارزه بالقبائح فستره ، (قتل الإنسان ما أكفره) . أما فسح في الآجال والأعمار ، أما حلم عن الجهال والأغمار ، أما منّ بإجراء الأنهار ، وخلق القمر لترطيب الثمار ، (وجعلنا آية النهار مبصرة) (قتل الإنسان ما أكفره) كم أعطى من نائل ، وكم أقام من مائل ، وبعث رسائل : هل من سائل؟ وقد بثّ الدجى عسكره ، (قتل الإنسان ما أكفره) حط الأوزار والأثقال ، وأقال الخطأ من استقال ، ونصب ميزان العدل وقال : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) الزلزلة : ٧ .

قوله تعالى : (من أي شيء خلقه) ثم فسره فقال : (من نطفة خلقه فقدره) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : قدر أعضاء رأسه وعينه ويديه ورجليه .

والثاني : قدره أطواراً ، نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، إلى آخر خلقه .

والثالث : فقدره على الاستواء .

(ثم السبيل يسره) فيه قولان .

أحدهما : يسر له خروجه من بطن أمه .

والثاني : سهل له العلم بطريق الحق والباطل ، (ثم أماته فأقبره) أي : جعله مقبورا ، ولم يجعله مما يلقى للسباع والطير (ثم إذا شاء أنشره) أي : بعثه (كلا) أي : حقا (لما يقض ما أمره) أي : لم يقض ما أمره به ولم يؤد مافرض عليه .

قوله : (فلينظر الإنسان الى طعامه ،أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حبا) عبس: ١-٢٧. الآيات .

نزل القطر على الأرض فدهشت وعجبت ،وتحركت بعد تقصيرها برقصها وطربت ، وخلع على الربيع جلبابها لما شربت ،فما أبقت في خزائنها شيئاً إلا وهبت (فإذا أنزلناعليها الماء اهتزت وربت) الحج: ٥ بكت السحب على جدب الأرض وندبت ،ورهبت الجدوب صوت الرعد فهربت ، وأجابت داعيها شاءت أم أبت ، فظهرت أنوار النور فادهشت وأعجبت ، وخطت أكف الخضرة في الحضرة فياحسن ما كتبت ، ثم عاد كأس القطر يسقيها فالتهبت ، فانعقد بعقد الحب عقد النكاح ونبت ، وعمرت ديار الروض وطالما خربت ، عجباً لمن غفل عن هذا ولها ، وأسفاً لمن لم يفده الدهر ولهاً ، ومقصود كل هذا، (لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت) البقرة :٢٨٦.

إخواني : كم أنعم عليكم وحبيتم ، كم أرشدتم الى الصواب وهديتم ، كم وقعت لكم حاجة فكفيتم ،يامبارزين بالذنوب كم أخذ غيركم وبقيتم ، كم دفع عنكم أذىً ووقيتم ، كم أنعم عليكم وأعطيتم ، كم عبرة قد أريتم ، كأني بكم في الالحاد قد بليتم ، ولها عنكم أهلوكم وجفيتم ، ونسيت أذكاركم وطويتم ، ولا تسألوا عما لقيتم ، متى تنتهون من هذا النوم ، الى كم تضييع العمر باليوم بعد اليوم ، أما يؤثر فيكم هذا اللوم ، ترحلوا ياقوم فقد حديتم .قوله تعالى :(لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه)عبس:٣٧.
أي :يشغله عن قرابته .

عن انس رضي الله عنه قال:- قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ : أنحشر عراة ؟

قال : نعم ، قالت : واسوأتاه ! فأنزل الله تعالى (لكل امرىءمنهم يومئذ شأن يغنيه)

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، قالت عائشة : يارسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم الى بعض ؟ قال : ياعائشة ان الأمر أشد من ان يهمهم ذلك » أخرجاه في « الصحيحين »

وفي افراد مسلم من حديث المقداد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « اذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد ، حتى تكون قدر ميل أو ميلين ، فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق كقدر اعمالهم ، منهم من يأخذه الى عقبيه ، ومنهم من يأخذه الى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه الى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً »

وعن الحسن رحمه الله تعالى قال : بينما عائشة رضي الله عنها عند رسول الله ﷺ ، اذ بكت فقال رسول الله ﷺ مايبكيك ؟ قالت : يارسول الله ، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا ، عند الميزان حين يوضع حتى يعلم أين يقع كتابه ، أفي يمينه أو في شماله أو وراء ظهره ؟ وعند الصراط حين يوضع بين ظهراني جهنم حتى يعلم أينجو أم لاينجو » .؟

ياله هول يشتغل به الولد عن ابيه ، والأخ عن أخيه ، ويتحير الانسان كأنه في التيه ، (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه)

يقلق العاصي يوم حشره ، ويبكي على ضياع عمره ، ويعتذر ولا قبول لعذره ، فكم يميته الخوف ويحييه (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

تقبل الوالدة على كمدها ، وتخاف النار على جسدها ، ولا تجد من يأخذ بيدها ، فتشتغل عن ولدها ولا تراعيه (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه)

يغضب الإله وتزفر النار ، فيقال : اين العتاة الأشرار ؟ فيبطش بهم بطشة جبار ، أسمعت يامن يعصيه (لكل امرىءمنهم يومئذ شأن يغنيه)

ويل للعاصي اذا سخط معبوده ، حسرة له إذا فاته مقصوده ، من له إذا شهدت عليه جلوده ، وختم على فيه (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

تبكي العصاة ماقدمضى ، ويضيق بهم للغضب الفضا ، عدموا العفو وفقدوا الرضى ، ومرضوا مرضاً ماله من يداويه ، (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

يتمنون بعد الوجود العدم ، ولا يقدرون على اصلاح ماانهدم ، فلو رأيت العاصي قد زلت به القدم ، ونار الندم تكويه ، (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

وقعوا في الخسران وعدموا ربحاً ، ونشرت صحائفهم وقد حوت قبحاً ، فياأيها المنصوح اسمع من النصح نصحاً (ياأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه) . الانشقاق : ٦ .

اللهم احمنا من المخالفة والعصيان ، وعافنا من دواعي التفريط والخذلان ، واسلك بنا مناهج أهل اليقين والعرفان ، ولا تؤاخذنا بجرائمنا وما وقع منا من الخطأ والنسيان ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، آمين .



المجلس الحادي والستون

في المحبة لله سبحانه وتعالى

الحمد لله الداعي الى بابه ، الهادي لأحبابه ، المنعم بإنزال كتابه ، يشتمل على محكم ومتشابه ، شغل به محبة عن مزماره وربابه ، فكلما بلاه زاد الحب وربا به ، وكساه العرفان أثواب ثوابه ، فألهاه عن الكون لذة شرابه ، وسرى به عن سرابه ، فهو دون الناس أولى به .

أحمده على الهدى وتسهيل أسبابه ، وأقر بوحدانيته إقرار مؤمن يأمن من عقابه ، وأن محمداً عبده ورسوله قدمه على أضرابه ، ورآه عيانا ليلة أسري به ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق المقدم على أصحابه ، وعلى عمر الذي عز به الدين واستقامت الدنيا به ، وعلى عثمان شهيد داره وقتيل محرابه ، وعلى علي حلال كل مشكل وكاشف نقابه ، وعلى سائر آله وجميع أصحابه ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) آل عمران : ٣١ . محبة الله عز وجل خالصة للمؤمنين .

قال تعالى : (يحبهم ويحبونه) المائدة : ٥٤ . وقال عز وجل : (والذين آمنوا أشد حباً لله) البقرة : ١٦٥ .

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه ، أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال : ما أعددت لها؟ قال : لا شيء ، إلا أني أحب الله ورسوله ، فقال : « أنت مع من أحببت » .

وفيهما من حديث أنس أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه

إلا الله ،وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ انقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار » .

ومر عيسى عليه السلام بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم ،وتغيرت ألوانهم فقال : ما الذي بلغ بكم ماأرى ؟ فقالوا : الخوف من النار . قال : حق على الله تعالى أن يؤمن الخائف ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد نحولاً وتغيراً ، فقال : ما الذي بلغ بكم ماأرى ؟ قالوا : نحب الله تعالى ، قال : أنتم المقربون .

واعلم أنه لايتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، وكل مافي إدراكه لذة وراحة فهو محبوب ، لأن في الطبع ميلًا إليه ، وقد قال ﷺ :« حبب إلي من دنياكم :النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » فجعل الصلاة أبلغ المحبوبات ، ومعلوم أنه ليس يحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مظنة القلب ، وهذه الحاسة تدرك مالا يدرك بالخمس ، وبها يتميز الآدمي من البهيمة ،فجمال المعاني المدركة بالعقل والبصيرة ،أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لذة القلوب بما تدرك من الأمور الشريفة ، التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ ، فلا ينكر حب الله تعالى إلا من لم يجاوز إدراك الحواس ، ومن المعلوم أن الإنسان يحب نفسه ، ودوام وجودها ، ويحب المال لأنه سبب بقائه ، ويحب ولده لأنه جزء منه ، ويحب أهله لأنه يتقوى بهم ، ويحب من أحسن إليه لأنه يعينه على بقائه ، فعلى هذه القاعدة لا محبوب للقلوب على الحقيقة للعقول النيرة إلا الله عز وجل ، لأن الحب ميل النفس إلى الشيء الموافق ، والكمال والإحسان الموافق ،والله سبحانه منفرد بذلك لأنه تام القدرة ، وكامل الصنعة ، ظاهر القدرة ، خالق النفس وبه قوامها ، فمن أحب نفسه وجب عليه حب من أفاده الوجود ، وأدامه له ، وهيأ له أسبابه ، وأحسن إليه ، وحب المحسن يقع اضطرارا ، قال ﷺ :« أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه » فمن لاحظ جمال العزة وكمال العظمة ، وجزيل الفضل ، أحب ضرورة » . وهذه المحبة لاتحصل إلا بعد المعرفة .

قال الحسن رحمه الله تعالى : من عرف ربه ، أحبه . وإذا تمكنت المعرفة ،أوجبت

المحبة ، وأخرجت كل محبوب سواه من القلب ،ومتى تمت المحبة ، ظهرت على الأبدان آثارها كما يظهر على الأرض أزهارها .

وللمحب علامات : منها حب لقائه ، فمنهم من استعجل الموت ، ومنهم من أحب أن يبقى ليتزين بأفعال جميلة تصلح للقاء ، ومنها أن يتنعم بالطاعة ويلتذ بها ، كما قال ثابت البناني : كابدت الصلاة عشرين سنة ، ثم تنعمت بها عشرين سنة . ومنها أن يكتم المحبة .

ودرجات المحبين تتفاوت على قدر قوة المعرفة ونقصانها ، وكثرة العوائق وقلتها ، وليس من رأى محبوبه من وراء ستر أو ظلمة أو من بعد كمن رآه قريباً في ضوء .

والحق سبحانه ظاهر للخلق كلهم ، بأفعاله الدالة عليه ، فهو أظهر الموجودات كما قيل :

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد إلا على أكمه لايبصر القمرا

فأما محبة الله عز وجل للعبد فقد قال تعالى : (يحبهم ويحبونه) وقال تعالى :(يحب التوابين ويحب المتطهرين) البقرة : ٢٢٢.

وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن الله تعالى قال: «ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ،وبصره الذي يبصر به ،ويده التي يبطش بها ،ورجله التي يمشي بها ،ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه» .

ومعنى محبة الله تعالى لعبده :أنه إذا أحب لنفسه أحب مايصدر عنها من الأفعال الرفيعة القدر وتأثير محبة الحق للعبد ، أن يقطع عنه القواطع ، ويرفع عن قلبه الحجاب حتى يراه بقلبه .

واعلم أنه لايحب حتى يحب ، ولا يريد حتى يراد ، فإذا رأيت قصورك عن مقامات الواصلين ، فاعلم أنك مطرود ، فليكن شغلك البكاء على ابعادك فربما نفع .

كان أبو علي الروذباري يقول : هيهات أن تريد حتى تراد ، وإن لم ترد فيتخطا بك طرق المهالك ، وأعظم البلاء أني أريد ولا أراد ، وأقرب فأرد إلى البعاد .

لا تخدعن فللمحب دلائل ... ولديه من نحو الحبيب رسائل

منهـا تنعمه بمر بلائـه ... وسروره في كل ماهو فاعل

فالمنـع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام وبر عاجل

ومن الدلائل أن ترى متبسماً ... والقلب فيه من المحب بلابل

يابعيداً عن المحبين ، يامطروداً عن المتقين ، أين أنت وأهل اليقين ؟ قوم هجروا الدنيا وتركوها ، وطلبوا الأخرى بالجد فأدركوها ، ولاحت لهم محجة الهدى فسلكوها، وتعلقوا بالعروة الوثقى فأمسكوها ، وراضوا أنفسهم بالصبر حتى ملكوها ، أزعجهم حب مولاهم فاشتاقوا ، وحملوا مرضاته فوق ما أطاقوا ، وسكروا من شراباته فمـا أفاقوا ، وعلوا بأعمالهم على أمثـالهم وفاقوا ، وزموا مطايا الشوق فانتقلوا وساقوا ، اذا جن الليل وانسدل الظلام ، قاموا بإقدام العزائم على الإقدام ، وترنموا بأحسن الذكر وأشرف الكلام ، وسرت أسرارهم مسطورة بدمع سجام ، على صحائف خدود إلى الملك العلام ، كم بينك وبينهم يامن رقد ونـام .

كل محبوب سوى الله سرف ... وهموم وغمـوم وأسف

كل محبوب فمنـه خلف ... ماخلا الرحمن ما منه خلف

كان يحيى بن معاذ يقول : الهي أنا مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك ، أخذتني إليك صغيراً ، فكيف أنصرف عنك كبيراً .

وقال بنان الحمال : دخلت البرية على طريق تبوك وحـــدي ، فاستوحشت ، فإذا هاتف يهتف بي : يابنان ، نقضت العهد ، لمَ تستوحش ؟ أليس حبيبك معك ؟

وكان بنان قد أمر ابن طولون بالمعروف ، فأمر أن يلقى بين يدي السبع ، فجعل السبع يشمه ولا يضره ، فلما خرج ، قيل له : ما الذي كان في قلبك حين شمك السبع ؟ قال : كنت أتفكر في سؤر السباع ولعابها .

كان الشبلي يقول : ليس للأعمى من رؤية الجوهرة إلا مسها ، وليس للجـاهل من الله إلا ذكره باللسان .

وكان يقول : يامن باع كل شيء بلا شيء ، واشترى لاشيء بكل شيء .

على بعدك لا يصبر من عادته القرب ،ولا يقوى على حجبك من تيمه الحب ،فإن لم ترك العين فقد أبصرك القلب .

فصل

في قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) المائدة : ٥٤.

قال علي رضي الله عنه والحسن وقتادة : المراد بهؤلاء القوم ، أبو بكر الصديق وأصحابه رضي الله عنهم ، الذين قاتلوا أهل الردة (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) أي : أهل غلظة على من خالف دينهم (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) لأن المنافقين يراقبون الكفار ويظاهرونهم ، ويخافون لومهم ، فأعلم الله عزوجل أن صحيح الإيمان (لايخاف لومة لائم).

نظر القوم بأعين البصائر ، فعلموا أن الأعمال قصائر ، وأن كلاً منهم إلى القبر صائر ، فهجروا الطعام في الهواجر ، وغسلوا بالدموع المحاجر ، فأزعجهم تلاوة الزواجر .

نهارهم درس القرآن وحفظه ،وشغلهم في محكمات البصائر

وإن جنّ ليل أسهروا فيه أعيناً فسقياً ورعياً للعيون السواهر

أين أنت وأين هم ؟ ليتك وقعت بينهم .

كان عثمان الباقلاني يقول : إذا غربت الشمس ، أحسست بروحي كأنها تخرج ، لاشتغاله في تلك الساعة بالإفطار عن الذكر. وقال : أحب الناس إلي من ترك السلام علي لأنه يشغلني عن الذكر .

وكان منصور بن زاذان يختم القرآن ما بين الظهر والعصر ، ويختم ما بين المغرب والعشاء ، وكان يقوم إلى عمود فيصلي فيختم القرآن ، وكان يبكي ويمسح بعمامته عينيه ،

فلا يزال حتى يبلها كلها بدموعه ، ثم يلفها ويضعها بين يديه ، وبقي يصلي الفجر بوضوء العشاء عشرين سنة ، ولو قيل له : إنك ميت اليوم أو غداً ما كان عنده مزيد .

حبذا من دعا النفو　　س إليه فأعطشا
وتجلى على قلو　　ب جلاها فأدهشا
غاب عن مقلتي وما　　غاب عن باطن الحشا

في التوراة يقول الله عز وجل : طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً .

وقال بعض إخوان معروف له : أخبرنا يا أبا محفوظ أي شي أهاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق ، فسكت ، فقال له : ذكر الموت ، فقال : وأي شيء الموت ؟ قال : ذكر القبر والبرزخ ، قال : وأي شيء القبر والبرزخ ؟ قال : خوف النار ورجاء الجنة ، قال : وأي شيء هذا ؟ إن ملكاً هذا كله بيده إن أحب أنساك جميع ذلك ، وإن كان بينك وبينه معرفة ، كفاك جميع هذا .

وقالت رابعة العدوية : ما عبدته خوفاً من ناره ، ولا حباً لجنته ، فأكون كأجير السوء ، بل عبدته حباً وشوقاً إليه .

وقال يوسف بن الحسين : كنت قاعداً بين يدي ذي النون ، وحوله ناس وهو يتكلم عليهم ، والناس يبكون ، وشاب يضحك فقال له ذو النون : مالك أيها الشاب ، الناس يبكون وأنت تضحك ؟ فأنشد يقول :

كلهم يعبدون من خوف نار　　ويرون النجاة حظاً جزيلاً
أو بأن يسكنوا الجنان فيحظوا　　برياضٍ عيونها سلسبيلاً
ليس لي في الجنان والنار رأيٌ　　أنا لا أبتغي بحبي بديلا

قيل له : فإن طردك فماذا تقول ؟ فأنشد :

فإذا لم أجد من الحب وصلاً　　رُمت في النار منزلاً ومقيلاً
ثم أزعجت أهلها ببكائي　　بكرة في عراصها وأصيلاً

معشر المشركين نوحوا لأجلي　　أنا عبد أحببت مولى جليلاً

لم أكن بالذي ادعيت محقـا　　فجزاني به العـذاب الطويـلا

وأوحى الله عز وجل إلى بعض من أوحى : إن لي عباداً يحبوني وأحبهم ، ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم ، ويذكروني وأذكرهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتُّك قال : يا رب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار ، كما يراعي الراعي الشفيق غنمه ، ويحنون الى غروب الشمس كما تحن الطير الى أوكارهـا ، فإذا جنّ عليهم الليل ، واختلط الظلام ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، نصبوا لي أقـــدامهم ، وافترشوا لي وجوههم ، وناجوني بكلامي ، وتملقوا بإنعامي ، فبين صارخٍ وباكٍ ، ومتأوه وشاك ، وبين قائمٍ وقاعدٍ ، وراكع وساجدٍ ، بعيني ما يتحملون من أجلي ، وبسمعي مايشكون من حبي ، أول ما أعطيهم أقذف في قلوبهم من نوري ، فيخبرون عني كما أخبر عنهم .

والثانية : لو كانت السموات السبع والأرض وما فيها في موازينهم لاستقلتها لهم .

والثالثة : أقبل بوجهي عليهم ، أفترى من أُقبل عليه بوجهي يعلم أحـدٌ ما أريد أن أعطيه .

كانت لقلـبي أهواء مفرقـــة　　فاستجمعت مُذ رأتك العين أهوائي

فصار يحسدني من كنت أحسده　　وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

تركت للنـاس دنياهم ودينهم　　شغلاً بذكرك يا ديني ودنيـائي

أقبل القوم على خدمة الحق إقبال عالم ، وما سلكوا قط إلا الطريق السالم ، بلغوا من الجهاد فوق ما يروم الرائم (ولا يخافون لومة لائم) .

تذكروا ذنوبهم القدائم ، فحزنهم عليها دائم ، الحزين مطرق والخائف واجم ، والمحب قلق والفؤاد هائم (ولا يخافون لومة لائم) .

أرباب اجتهاد وجهاد وعزائم ، أهل إقدام قد أَمنوا الهزائم ، الشوق حـاديهم والصدق خادم ، لا يخافون لومة لائم .

يعدّون التقصير من العظائم ، ويبذلون المهج الكرائم ، فإذا جنّ الليل : فساجد وقائم ، وإذا حاربوا ، قمعوا كل ظالم (ولا يخافون لومة لائم) .

جاعوا عن الطعام ينتظرون الولائم ، وخطبوا الراحة الكبرى بإتعاب القوائم ، فرجعوا بالمراد وما فيهم غارم (ولا يخافون لومة لائم) .

أين أنت وهم؟ ما ساهرٌ كنائم ، كلا والله ولا مفطر كصائم ، أنت وقت الغنائم نائم ، وقلبك في شهوات البهائم هائم .

أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم	وكيف يطيق النوم حيران هائم
فلو كنت يقظان الغداة لحرّقت	محاجر عينيك الدموع السواجم
نهارك يامغرور سهو وغفلة	وليلك نوم والردى لك لازم
يغرك ما يفنى وتشغل بالمنى	كما غرّ باللذات في النوم حالم
وتشغل فيما سوف يكره غِبُّه	كذلك في الدنيا تعيش البهائم

اللهم اسلك بنا مناهج السلامة ، وعافنا من موجبات الحسرة والندامة ، ووفقنا للاستعداد لما وعدتنا ، وأدم لنا إحسانك ولطفك كما عودتنا ، وأتمم علينا ما به أكرمتنا برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الثاني والستون

في الرضى

الحمد لله مستحق الحمد وأهله ، وخالق الفرع وأصله ، منشىء الكائنات بفعله ، ومبين الهدى بإيضاح سبله ، فضل نبينا بالقرآن فزاد على الرسل من قبله ، وتحدى به المكذبين فخرس كل ذي جهل عن جهله (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) البقرة :٢٣.

أحمده على صعب القدر وسهله ، وأشكره على قليل عطائه وجزله ، وأقر بوحدانيته متفيئاً في حمى الصدق وظله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الذي ختم به الأنبياء فبت كل حبل غير حبله ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق مزعج المرتدين بسيف عزمه قبل سله ، وعلى عمر الذي كان الشيطان يفرق من صوت نعله ، وعلى عثمان الصابر على جراحه وقتله ، وعلى علي المجاهد في سبيل الله ومن أجله ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين جعل كل منهم طاعة الله أعظم شغله ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل : (رضي الله عنهم ورضوا عنه) البينة :٨.

اعلم أن رضى الله عن العبد هو إنعامه عليه بإصلاح أحواله ، وتقريبه إلى حضرته ، وأما رضى العبد عن الله تعالى ، فإن أدون المقامات في ذلك ان يقع رضى العبد لجهله بالمصالح ، ورب صلاح في ضمن البلاء ، وما قضى الله تعالى للمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له ، وأعلى المقامات ان يكون العبد محباً لله تعالى ، فيرضى بما يقضى ، ومن أحب محبوباً رضي بأفعاله . ويقع ذلك في حالتين .

إحداهما : أن يحس بألم فعله ، لكنه يرضى بذلك ، وإن كان الطبع يكره .

والثانية : أن يستغرق المحب في المحبة، ولا يحس بألم المؤذي ، فيكون كالمجروح في الحرب ،يشغله ماهو فيه عن الإحساس بالجراحة ، ويدل على هذه ، قصة النسوة (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن) يوسف :٣١.

وقال سمنون : كان في جيراننا رجل له جارية يحبها، فاعتلت ، فجلس يصلح لها حساء ، فبينا هو يحرك القدر قالت : آهٍ ، فدهش ،وسقطت الملعقة من يده ، وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم .

فأما فضيلة الرضى والراضين ، فروي عن أبي العلاء بن الشخير ، رفعه إلى النبي ﷺ أنه قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له ، وبارك له فيه ، وإذا لم يرد به خيراً ،لم يرضه بما قسم له ، ولم يبارك له فيه » .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك، ولا أحط لوزرك ، من الرضى بقضائي .

وقالت أم الدرداء رضي الله عنها : إن الراضين بقضاء الله تعالى لهم في الجنة منازل يغبطهم بها الشهداء يوم القيامة .

مر نبي من الأنبياء برجل قد نبذه أهله من البلاء فقال : يارب ،عبدك هذا لو نقلته من حاله ! فأوحى الله إليه : أن سله :أيحب أن أنقله؟ فقال له : ياهذا، أما تحب أن ينقلك الله من حالك هذه إلى غيرها ؟ فقال الرجل : أتخير على الله ؟! ذاك إليه .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما أبالي على أي حال أصبحت ،على ما أكره أو على ما أحب ، فإني لا أدري الخيرة فيما أحب ،أو فيما أكره .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ما أبالي إذا رجعت إلى أهلي على أي حال أراهم ، أبسراء أم بضراء ؟ وما أصبحت على حال فتمنيت أني على سواها .

ومات لعمر بن عبد العزيز ولد اسمه عبد الملك ، وأخ يقال له : سهل ، ومولى يقال له : مزاحم ، في أيام متتابعة ، فقال : والذي قضى عليهم بالموت ، ما أحب أن شيئاً من ذلك لم يكن ، وما كنت على حالة من أحوال الدنيا فيسرني أني على غيرها .

وقال أبو سليمان الداراني : أرجو أن أكون قد رزقت طرفاً من الرضى ، حتى لو أدخلني النار كنت بذلك راضياً .

وقال أبو عثمان الجريري : منذ أربعين سنة ما أقامني الله عز وجل في حال فكرهته ، ولا نقلني إلى غيره فسخطته .

فهذه أحوال الراضين المرتفعة . فأما من رضي لجهله بالمصالح ، وعلمه أن تدبير الحق أصلح ، فهي أحوال العوام .

وروي عن مسروق قال : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالديك يوقظه للصلاة ، والحمار ينقلون عليه الماء ، ويحمل لهم خباءهم ، والكلب يحرسهم ، فجاء الثعلب فأخذ الديك ، فحزنوا ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله ، فحزنوا عليه ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً ، ثم أصيب الكلب ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً ، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي مَن حولهم من جيرانهم وبقوا هم ، وإنما أُخذوا أُولئك لما كان عندهم من الصوت والجلبة ، ولم يكن عند أُولئك شيء يجلب ، قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم .

وعن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى قال : قال لقمان لابنه : يابني ، لاينزلن بك أَمر رضيته أو كرهته ، إلا جعلت في الضمير منك أن ذلك خير لك ، قال : أما هذه : فلا أقدر أن أعطيكها دون أن أَعلم ما قلت أنه كما قلت ، قال : يابني فإن الله تعالى قد بعث نبياً ، هلم حتى نأتيه ، فعنده بيان ماقلت لك ، قال : اذهب بنا نأته ، فخرج هو على حمار وابنه على حمار فتزودا ما يصلحهما ، ثم سارا أياماً وليالي حتى تلقتهما مفازة ، فدخلاها فسارا ماشاء الله ، فاشتد الحر ، ونفد الماء والزاد ، واستبطآ حماريهما ، فنزلا ، فجعلا يشتدان على سوقهما ، فبينما هما كذلك ، إذ نظر لقمان فإذا هو بسواد ودخان ، فقال في نفسه : السواد شجر ، والدخان عمران وناس ، فبينما هما يشتدان ، إذ وطىء ابن لقمان على عظم نابت على الطريق ، فدخل في باطن القدم حتى ظهر من أعلاها ، فخر ابن لقمان مغشياً عليه ، فحانت من لقمان التفاتة ، فإذا هو بابنه صريع ، فوثب إليه فضمه إلى صدره ، واستخرج العظم بأسنانه ، وشق عمامة كانت عليه ، فلاث بها رجله ، ثم نظر

إلى وجه ابنه فذرفت عيناه ، فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام ، فانتبه بها ، فنظر إلى أبيه يبكي ، فقال : يا أبت أنت تبكي وأنت تقول : هذا خير لي ؟ كيف يكون هذا خيراً لي؟ وقد نفد الطعام والماء ، وبقيت أنا وأنت في هـذا المكان ؟! فإن ذهبت وتركتني ، ذهبت بهم وغم مابقيت ، وإن أقمت معي ، متنا جميعاً ، فكيف يكون هذا خيراً لي ؟ فقال : أما بكائي يا بني ، فوددت أني افتديتك بجميع مالي وحظي من الدنيا ، ولكني والد ، ومني رقة الوالد ، وأما ما قلت : كيف يكون هذا خيراً لي؟ فلعل ماصرف عنك يابني ، أعظم مما ابتليت به ، ولعل ما ابتليت به ، أيسر ممـا صرف عنك ، فبينا هو يحاوره إذ نظر لقمان أمامه ، فلم ير ذلك الدخان والسواد ، فقال في نفسه : قد رأيت ، ولعله أن يكون ربي عز وجل قد أحدث بما رأيته شيئاً ، فبينما هو يتفكر في هـذا ، إذ نظر أمامه ، فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس أبلق ، عليه ثياب بيض ، وعمامة بيضاء ، يمسح الهواء مسحاً ، فلم يزل يؤمه حتى كان منه قريباً ، فتوارى عنه ثم صاح به ، فقال : أنت لقمان ؟ قال : نعم ، قال : أنت الحكيم ، قال : كذلك يقال ، وكـذلك نعتني ربي ، قال : ماقال لك ابنك هذا السفيه ؟ قال : من أنت ياعبد الله ، أسمع كلامك ولا أرى وجهك ؟ قـال : أنا جبريل لا يراني إلا ملك مقرب ، أو نبي مرسل ، لولا ذلك لرأيتني ، فما قال لك ابنك هذا السفيه ؟ فقال لقمان : إن كنت جبريل ، فأنت أعلم بما قال ابني ، فقال جبريل : مالي بشيء من أمركما علم ، إلا أن حفظتكما ، وقد أمرني ربي بخسف هذه المدينة وما يليها ، فأخبروني أنكما تريدان هذه المدينة ، فدعوت ربي أن يحبسكما عني بما شاء ، فحبسكما عني بما ابتلي به ابنك ، ولولا ما ابتلي بـه ابنك لخسف بكما مع من خسف ، قال : ثم مسح جبريل يده على قدم الغلام فاستوى قائماً ، ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فامتلأ ماء ، ثم حملهما وحماريهما ، فإذا همـا في الدار التي خرجا منها .

فإن قيل : فهل بين الرضى والدعاء تنافٍ ؟ قيل : لا ، لأنا قد ندبنا إلى الدعاء لنتعبد به .

وكذلك ليس بين الرضى وبين كراهية المعاصي ومقت أهلها تناف ، لأننا نرضى بما قضاه الله ، وقد قضى بمقت شيء ، فنحن نمقت ذلك لمقته إياه ، ونرضى بأصل القضاء.

انظر لنفسك زاداً قبل رحلتها ... فهل رأيت امرءاً يبقى على الأبد

وإنما هو عمر ينقضي وبه ... سهم المنية لا يبقي على أحد

فالمرء في أمل يجري الى أجل ... والموت مستتر منه على الرصد

طوبى لمن نظر الى الدنيا بعين الاعتبار ، فباعها واشترى بها دار القرار ، إذا انهمك أهلها في شهواتها صام النهار ، وإذا نام الغافلون فله عن النوم نفار ، ياحسنه والظلام قد أجنه ، وقد بث بين يدي مولاه ما أكنه ، خوفه شديد لكنه يحسن ظنه ، وكم له عند ذكر الذنوب من زفرة وأنة .

قال أبو عبد الله المؤذن : جاورني شاب ، فكنت إذا أذّنت للصلاة وأقمت ، كأنه في نقرة قفاي ، فإذا صليت ، صلى ، ثم لبس نعليه ثم دخل منزله ، فكنت أتمنى أن يكلمني أو يسألني حاجة ، فقال لي ذات يوم : يا أبا عبد الله ، عندك مصحف تعيرني أقرأ فيه ؟ فأخرجت اليه مصحفاً ، فدفعته إليه ، فضمه إلى صدره ثم قال : ليكونن اليوم لي ولك شأن ، ففقدته ذلك اليوم فلم أره يخرج ، وأقمت المغرب والعشاء فلم يخرج ، فلما صليت ، جئت الى الدار التي هو فيها ، فإذا فيها دلو ومطهرة ، وإذا به ميت والمصحف في حجره ، فأخذته من حجره ، واستعنت بقوم على حمله حتى وضعناه على سريره ، وبقيت ليلتي أفكر فيمن أكلمه فيه حتى يكفنه ، فأذنت للفجر بوقت ودخلت المسجد لأركع ، فإذا بضوء في القبلة ، فدنوت منه ، فإذا كفن ملفوف ، فأخذته وحمدت الله تعالى ، وأقمت الصلاة ، فلما سلمت ، إذا عن يميني ثابت البناني ، ومالك بن دينار ، وحبيب الفارسي ، وصالح المري ، فقلت لهم : ياإخواني ، ما جاء بكم؟ قالوا لي : مات في جوارك الليلة أحد؟ قلت : مات شاب كان يصلي معي الصلوات الخمس ، فقالوا لي : أرناه ، فلما دخلوا عليه ، كشف مالك بن دينار الثوب عن وجهه ، ثم قبل منه موضع سجوده ، ثم قال : بأبي وأمي ياحجاج ، إذا عرفت في مكان تحولت منه الى غيره حتى لا تعرف ، خذوا في غسله ،

فإذا مع كل واحد منهم كفن ، فقال كل واحـــد منهم : أنا أكفنه ، فقلت لهم : إني فكرت في أمره الليلة . فقلت : من أكلم حتى يكفنه ؟ فأتيت المسجد فأذّنت ودخلت لأركع ، فإذا كفنٌ ملفوف ، لا أدري من وضعه . فقالوا : يكفّن في ذلك الكفن، فكفناه وأخرجناه ، فما كدنا نرفع جنازته من كثرة من حضره من الجمع .

سبحان من وفقهم للخيرات ، وأيقظهم من سِنَة الغفلات ، أترجو لحاقهم من غير أعمالهم ؟ هيهات ، عاملوا مولاهم وانفردوا ، وقاموا في الدياجي فركعوا وسجـــدوا وساروا ، وخُلّفت ففاتك ماوجدوا ، وبقيت في أعقابهم فإن لم تلحق بَعُدوا .

يا أيها الراقد كم ترقدُ	قم يا حبيبي قد دنا الموعد
وخذ من الليل وساعاته	حظاً إذا ما هجع الرُّقّد
مَن نام حتى ينقضي ليله	لم يبلغ المنزِل أو يجهد
قل لذوي الألباب أهل التقى	قنطرة العرض لكم موعد

فصل

في قوله تعالى : (والطور . وكتاب مسطور) الطور : ١ ، ٢ . هذا قسم ، والطور : هو الجبل الذي كلّم موسى عليه ، وهو جبل بأرض مدين (وكتاب مسطور) أي مكتوب. وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه اللوح المحفوظ . والثاني : كتب أعمال بني آدم . والثالث : التورارة. والرابع : القرآن .

(في رقٍّ) الرق : الورق ، منشور : أي : مبسوط (والبيت المعمور) هو بيت في السماء ، والمعمور : الكثير الغاشية (والسقف المرفوع) فيه قولان .

أحدها : أنه السماء . والثاني : العرش . (والبحر المسجور) أي : المملوء . وإنما أقسم الله عز وجل بهذه الأشياء لينبه على مافيها من عظيم قدرته ، فأقسم بها على أن تعذيب المشركين حق . فقال : (إن عذاب ربك لواقع) .

قال جعفر بن زيد : خرج عمر يعسُّ المدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين ، فوافقه قائماً يصلي ، فوقف ليستمع قراءته ، فقرأ : (والطورِ) حتى بلغ (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) فقال : قسمٌ ورب الكعبة حق ، فنزل عن حماره ، فاستند الى حائط ، فمكث ملياً ثم رجع الى منزله ، فمرض شهراً يعوده الناس ولا يدرون مامرضه .

وقال هشام بن حسّان : انطلقت أنا ومالك بن دينار الى الحسن ، فانتهينا اليه وعنده رجل يقرأ القرآن ، فلما بلغ هذه الآية (إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع) الطور : ١-٧ . بكى الحسن وبكى أصحابه ، وجعل مالك بن دينار يضطرب حتى غشي عليه .

إخواني : مثل القوم الوعيد بين أعينهم فسالت ، فتملكت قلوبهم الأحزان وجالت ، والموعودات إذا صورت هالت ، غير أن غروركم مدّ الأيام عليكم فطـالت ، تركوا الدنيا من قبل تركها ، وبكوا في أحيان انبساطها وضحكها ، وأخرجوا قلوبهم الى نور اليقين من ظلام شكها ، وأمالوا نفوسهم عن هواها الى نسكها ، التقطوا أيام السلامة وتغنموا ، وتلذذوا بتلاوة القرآن وترنموا ، وأحضروا القلوب عند القراءة وتفهموا ، وتصاعدت الأرواح الى مشوقها ، فاستدعاها ، فسلموا .

قال عبد الرحمن بن يزيد بن جابر : قلت ليزيد بن مرثد : مالي أرى عينك لاتجف ؟ قال : وما مسألتك عنه ؟ قلت : عسى الله أن ينفعني به ، قال : يا أخي إن الله عز وجل قد توعدني : إن أنا عصيته أن يسجنني في النار ، والله لو لم يتواعدني إلا أن يسجنني في الحمام ، لكنت حريّاً أن لا تجف لي عبرة ، قال : قلت : أهكذا أنت في خـلواتك ؟ قال : وما مسألتك عنه ؟ قلت : عسى الله أن ينفعني به ، قال : والله إن ذلك ليعرض لي حين أسكن الى أهلي ، فيحول بيني وبين ما أُريد ، وإنه ليوضع الطعام بين يدي ، فيعرض لي ، فيحول بيني وبين أكله حتى تبكي امرأتي ، ويبكي صبياننا ، ما يدرون ما أبكانا ، ولربما أضجر ذلك امرأَتي ، فتقول : ما خصصت به من طول الحزن معك في الحياة الدنيا ما تقرُّ لي معك عين .

ذكر الوعيد قلقل الخائفين ، وتصور القيامة أزعج المتقين .

كان طاووس يفرش الفراش ، ثم يدرجه ويقوم إلى الصلاة ، ويقول : ما تركت جهنم أحداً ينام .

وكان أبو سليمان الداراني يقول : ربما مثل لي راسي بين جبلين من نار ، وأنا بينهما أعذب ، فكيف يهنأ بالعيش من هذه صفته ؟

يا بعيداً عن هؤلاء القوم ، تنبه من طول الرقاد والنوم ، يامن عمره ينقضي بليلة وبيوم ، لا في صلاة ولا في صوم ، متى يؤثر فيك هذا اللوم ، تقرب أيها البعيد عنهم بالتقى ، واحذر غرور دنياك فإنها عين الشقاء .

يا محب الدنيا نجاتك منها بالتسلي عنها وأين التسلي
نفس إن عميت عن الرشد فماذا عليك أن تستدلي
نفس إن الوقوف منا على الله يقين فأكثري أو أقلي

يا معرضاً عنا يا مقاطع ، يا مشغولاً بكل قاطع ، يا مقبلا على الضار مدبراً عن النافع ، بعت ما يبقى بما يفنى فخسر البائع (إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع) .

ويحك أجهلت الشرائع ؟ أم لم تعرف الذرائع ؟ ويحك ذنب بعد ذنب متتابع ، خيرك خفي وشرك شائع (إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع) .

بعت نفسك في سوق الهوان ، وضيعت في التواني كل الزمان ، ونسيت أنك كما تدين تدان ، ودعاك إلى مراضيه الشيطان ، فأقبلت تتابع (إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع) .

العمر يوم فبادر الشمس ، واستدرك تدرك ما فات بالأمس ، وانتظر ساعة الغمس في الرمس ، واعلم أن أيام العافية خوادع (إن عذاب ربك لواقع . ماله من دفع) .

خُذ حذرك فإنك مطلوب ، استلب زمانك فإنك مسلوب ، اسمع كلام الرب يا من هو مربوب ، تالله لقد ملأ كل القلوب قبل المسامع (إن عذاب ربك لواقع . ماله من دفع) .

تيقظ لنفسك فإلى كم نوم ؟ إلحق الصالحين فقد سبق القوم ، عاتب نفسك وبالغ في اللوم ، فبين يديك يوم يذهل فيه الشافع (إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع) .

يحضر فيه جميع الخلق ،وتلقى فيه مالم تلق ، ويقع بين الصالحين والطالحين الفرق، ويتسع الخرق على الواقع (إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع) .

أفينفع حينئذ طلب الرضى ؟ بعد أن جرى بالعقاب القضا ، هيهات إذا فات الأمر انقضى ، وليس ما مضى براجع (إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع) .

اللهم اجعل في قلوبنا نوراً نهتدي به إليك ، ووفقنا للأعمال الصالحة المقربة لديك، واجعلنا يامولانا ممن توكل في جميع أموره عليك ، وعاملنا بفضلك وكرمك ،ولا تفضحنا يا سيدنا يوم العرض والوقوف بين يديك ،واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الثالث والستون

في الدعاء

الحمد لله الذي ركّب فأحسن التركيب ، ورتب فأحسن الترتيب ، وأدّب فأكمل التأديب ،وقلب القلوب بين الترغيب والترهيب ، جل من رقيب قريب يثيب من إليه ينيب ، ويوفر نصيب المصيب ، ويكشف كرب المكروب الكئيب ، حاضر مع الخلق لا يغيب ، يقبل منهم اليسير المعيب ، ويجيب كل مقبل مستجيب ، (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) البقرة : ١٨٦ .

أحمده عدد مايحوي كل كثيب ، وأقر بوحدانيته إقرار لبيب ، وأصلي على رسوله محمد ذي المعجز العجيب ، صلى الله عليه ، وعلى صاحبه أبي بكر المحب الحبيب ، وعلى عمر الذي بذكره المجلس يطيب ، وعلى عثمان متلقي الشهادة بالصدر الرحيب ، وعلى علي الذي إذا أسقمت أفهام العلماء كان الطبيب ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين كل منهم من كل خير قريب ، وسلم تسليما .

قال الله عز وجل (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) .

روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فنزلت . وفي قوله تعالى : (فإني قريب) قولان .

أحدهما : قريب من سماع الدعاء . والثاني : قريب من الإجابة .

قوله : (أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي) أي : فليجيبوا لي (وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) البقرة : ١٨٦ .

فإن قيل : هذه الآية قد تضمنت إجابة الدعاء ، ونرى كثيراً من الداعين لا يستجاب لهم .

فالجواب : أن أبا سعيد رضي الله عنه ، روى عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من مسلم دعا دعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له في الآخرة ، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مامن مؤمن ينصب وجهه الى الله يسأله مسألة إلا أعطاه إياها ، إما أن يعجلها له في الدنيا ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، ما لم يعجل » . قالوا : وما عجلته ؟ قال : « يقول : دعوت الله عز وجل فلا أراه يستجيب لي » .

واعلم أن للدعاء آداباً ، منها أن يرصد به الأوقات والأحوال الشريفة ، كما أخر يعقوب الاستغفار لبنيه إلى السحر .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا نؤدي للصلاة فتحت أبواب السماء واستجيب الدعاء » .

وروى مسلم في « صحيحه » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء » .

وفي حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يستجاب الدعاء في أربعة مواطن : عند الأذان والإقامة إذا صفوا للصلاة ، وعند قراءة القرآن ، وعند نزول الغيث ، وعند القتال في سبيل الله ، وعند كل ختمة دعوة مستجابة » .

ومنها الصلاه على النبي ﷺ .

فروى الترمذي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ان الدعاء موقوف بين السماء والأرض لايصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك محمد ﷺ .

ومنها حضور القلب ، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله لايستجيب دعاء من قلب غافل لاه » .

ومنها أكل الحلال قبل الدعاء ، ففي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : أنه ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يده الى السماء : يارب يارب ،

ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك؟».

ومنها أن لا يستعجل الإجابة ، فربما كانت المصلحة في التأخير ، فعنه ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل يدعو عبده المؤمن يوم القيامة فيقول : أي عبدي ، إني أمرتك أن تدعوني وقد وعدتك أن أستجيب لك ، فهل كنت تدعوني؟ فيقول : نعم يارب ، فيقول: وهل كنت ترى لبعض دعائك إجابة وبعضه لا ترى له اجابة ؟ فيقول : نعم يارب ، فيقول : أما أنك ما دعوتني بدعوة إلا استجيب لك ، فإما أن أعجلها لك في الدنيا ، وإما أدخرها لك في الآخرة ، أليس دعوتني يوم كذا وكذا لغم نزل بك : أن أفرج عنك ففرجت عنك ؟ فيقول : بلى يارب ، فيقول : إني عجلتها لك في الدنيا ، ودعوتني يوم كذا وكذا لحاجة ، فلم تر قضاءها فيقول : نعم يارب ، فيقول : إني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا ، قال : فيتمنى العبد في ذلك الموقف فيقول : ياليتني لم يعجل لي من دعائي شيء .

يا عامر الدنيا وليست وطنا حليف آمال طوال ومنى

تعمرها وليس فيها خالد كان ولا يكون فيها بعدنا

وإنما الدنيا عناء وعلى مقدار ما تؤتاه مقدار العنا

ماضر من أعقبه قنوعه عزاً إذا مارس عيشاً خشنا

أفلح من نادت به الدنيا فلم يلو ولم يصغ إليها أذنا

وأعجب الأشياء أني عاقل أعيب من غيري الذي آتي أنا

يا نفس صبراً إن أيام البقا قلائل وأنت رهن للفنا

فأين عاد وثمود والألى تخيروا الأرض وخطوا المدنا؟

وشققوا أنهارها وغرسوا أشجارها وشيدوا فيها البنا

وأصبحوا ملوكها يطيعهم من في أقاصي الأرض قسراً والدنا

صاح بهم ريب المنون فانثنوا مسلّمين من هنا ومن هنا

وأصبحت ديارهم موحشة من بعد ما كانوا بها كل المنى

لهفي على معاشر ترحلوا   وخلفوا بين الضلوع شجنا

لم يبق لي من بعدهم مسرة   ولا رأى طرفي شيئاً حسنا

وخلفوني بعدهم مولهـا   أصيح في آثارهم واحزنا

أين أصحاب الأموال الكثيرة والقوى ؟ أين من شرب بكؤوس الشهوات وارتوى ؟ أين من هجر الهدى وصافى الهوى ؟ أما حالت بينه وبين أمانيه صروف النوى ، أما صار ذكره في الأخبار لمن روى ؟ بينما هو قد مال إلى جمع المال وصبا ، وسار على محجة اللهو والصبا ، وأصبح فى تحصيل أغراضه منتصبا ، أقبل الموت بزلزاله فحمنه في أهواله وسبا ، فأجدب ربيع ربعه وقد كان خصباً ، واستزلته أيدي المهات عن أرفع المقامات منصباً ، وأقبل الندم والأسف فوقفا بين عينيه وانتصبا ، وأقام في منزل تسفي عليه الدبور والصبا .

عباد الله ، إن اللبيب من نظر في مآله ، والمصيب من تزود لارتحاله ، والسالم من تفكر في مصيره ، والغانم من قصم عرى تقصيره . المتيقظ الحذر يبكي تقصيره ويعتذر متى ذكر خلافه لما أمر ، سالت دموعه كالماء المنهمر ، فهو ينتحب على كل ذنب كتب وسطر ، وفؤاده يكاد ينفطر ، وقد خد خدّه ذكر الأخدود اذا حفر ، فهو يخشى أن يستغني الحلق ويفتقر .

قال رجل لداود الطائي : قد عرفت مابيننا من القرابة ، فأوصني ، فبكى وقال : يا أخي ، إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة ، حتى ينتهي بهم الى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زاداً لما بين يديك فافعل ، فإن انقطاع السفر عن قريب ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزود لسفرك ، واقض ما أنت قاض من أمرك ، فكأنك بالأمر قد بغتك ، اني لأقول لك هـذا وما أعلم أحداً أَشد تضييعاً مني لذلك .

وكان رحمه الله قد ورث دراهم ، فلما نفدت ، جعل ينقض سقف داره فيبيعه حتى

باع اللبن والبواري ، وبقي في نصف سقف . ومات في الدهليز ولم يكن في بيته الا مطهرة ولبنة هي وسادته .

وقال له أبو يوسف رحمه الله : ما رأيت أحداً رضي من الدنيا بمثل مارضيت به ، فقال : من رضي بالدنيا كلها عرضاً من الآخرة ، فذاك الذي رضي بأقل مما رضيت به .

وكان رحمه الله اذا جن عليه الليل يقول : همك عطل عليّ الهموم ، وحال بيني وبين السهاد ، وشوقي إلى النظر إليك أوثقني وحال بيني وبين اللذات ، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب .

وكان عمرو بن عتبة يخرج ليلاً فيقف على القبور فيقول : يا أهل القبور قد طويت الصحف ، ورفعت الأعمال ، ثم يبكي ويصف قدميه حتى يصبح ، فيرجع فيشهد صلاة الصبح .

وكان منصور بن المعتمر يبكي عامة الليل ، فتقول له أُمه : لعلك قتلت نفساً ، فيقول : أنا أعلم ماصنعت بنفسي .

وا أسفا لفراق مثل هؤلاء السادة واحسرتا لمعاشرة من يحب الوسادة ، خلت الديار وفرغت من الصالحين ، وما ترى إلا أهل البطالة الغافلين .

أيها الغافل تأمل مابين يديك ، أيها المطمئن هذا الموت قد دنا اليك ، ستدركك الحسرة عند الفوات ، ويسكرك الندم على الهفوات ، تالله لقد نطقت ألسنة الاعتبار في الإنذار ، تخبرك أنك لم تخلق لهذه الدار ، ولقد هتف هاتف الرحيل يعلمك أنه قد بقي القليل .

وما الأمر إلا ظاهر لك واضح فكن حذراً من حادث سهمه يصمي
ومن خصمه الأقدار تبغيه غرة تضاءل في الأحوال بالذلّ للخصم

عجباً لك قد أنست بزائل ، وعلقت بغير طائل ، وركنت الى ركن مائل ، ونسيت لحاق الأوائل ، أقيل لك : إنك لا تزول ؟ أم أُخبرت أَن أَحوالك لا تحول ؟ أيحسن بالعاقل إهمال ما إليه يؤول ؟ أيجمل بالمسؤول أن لا يدري ما يقول ؟ عمرك يفنى وأنت لاهٍ ، وعملك يحصى وأَنت ساهٍ ، وقد اعتمدت على ركن ضعيف واهٍ ، والأمر جليّ وأنت في اشتباه ، أأمنت حلول آفات ودواه ، دعاك الشيطان إلى زخارف الهوى

فتبعت ، ولاحت لك مموهات الآمال فخدعت ، وتناولت فوق ما يكفي من الدنيا وما قنعت ، وتعوّضت ما يفني على ما يبقى فكيف بعت ؟.

إلى متى ترفل في حلة تنتظر الموت لها خالعاً
ألم يكن فيما مضى عبرة تكون في أمر الهوى رادعاً
كم شارع غضّ بأرياقه أمسى الردى في قتلهم شارعاً
آهٍ لهم من ظلمات الثرى من بعد نور قد زهاها طالعاً
يا أسفا إذ خرّبوا عامراً وصيّروا ما حفظوا ضائعاً
وعاد من كان لهم واصلاً إذ سكنوا بطن الثرى قاطعاً
ولم يكن ما جمعوه مرة من بؤسهم في تربهم نافعاً
وكم بنوا حصناً مشيد العلى فلم يكن من بؤسهم مانعاً

فصل

في قوله تعالى : (إذا وقعت الواقعة) الواقعة : ١ . الواقعة : القيامة ، والمراد : النفخة في الصور لقيام الناس (ليس لوقعتها كاذبة) أي : كذب ، قال قتادة : لا رجعة لها ولا ارتداد (خافضة رافعة) فيه قولان .

أحدهما : أنها خفضت فأسمعت القريب ، ورفعت فأسمعت البعيد ، وهذا يدل على أن المراد بالواقعة ، صيحة القيامة .

والثاني : أنها خفضت ناساً ، ورفعت ناساً .

قال المفسرون : تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين في النار ، وترفع أقواماً إلى عليين في الجنة .

(إذا رجّت الأرض رجاً) أي : حرّكت حركة شديدة وزلزلت ، وذلك أنها ترتج حتى ينهدم ما عليها من بناء ، ويتفتت ما عليها من جبل .

(وبسّت الجبال بساً) أي : فتّتت فتّاً .

(فكانت هباءً منبثاً) أي : غباراً منتشراً .

(وكنتم أزواجاً) أي : أصنافاً (ثلاثة ، فأصحاب الميمنة) وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم (ما أصحاب الميمنة) تعظيم لشأنهم بدخولهم الجنة (وأصحاب المشأمة) أي : الشمال الذين يؤتى كل منهم كتابه بشماله (ما أصحاب المشأمة) الواقعة : ١-١٠ تحقير لشأنهم بدخولهم النار .

تكوّر الشمس الطالعة ، وتقع النجوم خاضعة ، وتنحل الأفلاك خاشعة ، وتذل الأملاك متواضعة (إذا وقعت الواقعة) .

يا سكران الهوى متى تفيق ؟ يا من ليس له غير الهوى رفيق ، أمالك نصيح ولا شفيق ؟ يخبرك أن الطريق شاسعة .

ما أكثر آثامك ! ما أعظم اجرامك ! وما تقبل ممن لامك ، ويحك إن آثامك كلها متتابعة ، لنا أقوام إذا أكلت صاموا ، وإذا فترت داموا ، وإذا فسحت لنفسك لاموا ، لو رأيتهم قد قاموا والعيون هاجعة . سلموا من التكلف ، وطلقوا الدنيا بلا توقف ، ورضوا بالفقر والتخفف (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) البقرة : ٢٧٣ . في نعمة واسعة ، فيا بشراهم (إذا وقعت الواقعة) .

قوله تعالى : (والسابقون السابقون) الواقعة : ١٠ . فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنهم السابقون الى الإيمان من كل أمة . والثاني : أنهم الذين صلوا الى القبلتين . والثالث : أنهم أهل القرن الأول . والرابع : أنهم الأنبياء . والخامس : أنهم السابقون الى المساجد والى الجهاد .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « السابق أربعة ، أنا سابق العرب ، وصهيب سابق الروم ، وسلمان سابق الفرس ، وبلال سابق الحبشة » .

فأما صهيب فكان قد أقبل مهاجراً فاتبعه نفر من قريش ، فلما أدركوه وأحس

بهم خلفه ، التفت إليهم وزجرهم عن اتباعه وحذرهم أن يقربوه ، وهم مع ذلك يأبون إلا اتباعه والتقرب منه ، فلما أعياه ذلك نزل عن راحلته ونثر كنانته ، ثم قال : يامعشر قريش ؛ والله لقد علمتم أني من أرماكم رجلا ، وايم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ، وإن شئتم دللتكم على مالي وثيابي بمكة وخليتم سبيلي ، قالوا : نعم . فلما قدم إلى رسول الله ﷺ قال : ربح البيع أبا يحيي ، ربح البيع . ونزلت : (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله) البقرة :٢٠٧.

وأما سلمان الفارسي رضي الله عنه فإنه خرج يطلب الدّين ، فأخذه قومه فباعوه ظلماً ، فآل أمره أن كاتبَ وأعانه رسول الله ﷺ في كتابته ، فشهد معه الخندق وما بعدها ، وصار أميراً بالمدائن على ثلاثين ألفاً ، وكان يخطب الناس في عباءة ، كان يفترش بعضها ، ويلبس بعضها ، فإذا خرج عطاؤه أمضاه ، وأكله من عمل سعف الخوص ، ولم يكن له بيت يكنه .

وكان رضي الله عنه يستظل بالفيء حيثما دار ، ولقيه رجل معه حمل من التين فلم يعرفه ، فقال : احمل هذا معي ، فحمله ، فلما رآه الناس قالوا : هذا الأمير . فقال : لم أعرفك ، فقال سلمان رضي الله عنه : لا حتى أبلغ منزلك .

وكان رضي الله عنه يقول : ثلاثة تضحكني : مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل ليس بمغفول عنه ، وضاحك ملء فيه لا يدري أساخط عليه رب العالمين أم راض عنه . وثلاث أحزنتني حتى أبكتني ؛ فراق محمد ﷺ ، وهول المطّلع ، والوقوف بين يدي الله عز وجل ، لا أدري إلى جنة أو إلى نار .

وأما بلال فكان أول من أسلم ، فعذبوه فهانت نفسه عليه ، ولم يطعهم فيما أرادوا من لفظ الشرك ، فجعلوا في عنقه حبلا ، ثم أمروا صبيانهم أن يشدوه بين أخشبي مكة ، وكلما عذّب قال : أحدٌ أحد ، فاشتراه أبو بكر رضي الله عنه فأعتقه .

فكان عمر رضي الله عنه يقول : أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا . يعني : بلالا . وكان خازن رسول الله ﷺ ومؤذنه .

وروي عن إسماعيل بن سلمة قال : رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت . وكأن مناديًا ينادي : ليقم السابقون. فقام سفيان الثوري ؛ ثم نادى الثانية: ألا ليقم السابقون. فقام سالم الخواص ثم نادى الثالثة : ألا ليقم السابقون . فقام ابراهيم بن أدهم: اسمعوا أيها القاعدون ، افهموا أيها الراضون بالدون ، لما جدّ في الجدّ المتقون ، مدحهم من يقول للشيء كن فيكون (والسابقون السابقون) الواقعة : ١٠.

كانوا اذا جنّ الليل يسهرون ، وتجري من العيون عيون ، فإذا جاءت الهواجر فللطعام يهجرون ، وما زالوا في الخدمة كالخدم ينتصبون ، ان أقبل البلاء فهم صابرون ، وإن وردت النعماء فهم شاكرون ، وإن تزخرفت الدنيا فهم عنها معرضون ، وكذا من أراد الأخرى يكون ، اذ كارهم في الحياة وهم ميتون ، فإذا انجاب التراب عن الأنجاب فعلى النجائب يحملون ، وتبشرهم الأملاك هذا (يومكم الذي كنتم توعدون) الأنبيا : ١٠٣. لا يقفون للحساب ، بل إلى الجنة يحملون ، يعجب أهل الموقف منهم ثم يسألون : من هؤلاء الذين إلى النعيم يحضرون ؟ فإذا الجواب : (إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) المؤمنون : ١١١ . فلو قيل : ما صفاتهم ؟ قيل : التائبون العابدون ، وأحسن ما به القوم يمدحون (والسابقون السابقون).

اللهم انظمنا في سلك السابقين الأخيار ، وألحقنا بعبادك الصالحين الأبرار ، وآتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار . واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين.



المجلس الرابع والستون

في ذم الغيبة ومعاصي اللسان ومدح الصمت

الحمد لله العظيم في قدره ، العزيز في قهره ، العليم بحال العبد في سره وجهره ، وما يجري عليه في دهره ، الجائد على المجاهد بنصره ، المنعم على العاصي بستره ، الحليم عن آمن مكره ، فهو يرزق الكافر على كفره ، يسمع صريف القلم عند خط سطره ، ونقيق الضفدع في حافة بحره ، وأنين المدنف عند ضعف صبره ، (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) الروم : ٢٥ .

أحمده على القدر خيره وشره ، وأشكره على القضاء حلوه ومره ، وأشهد بوحدانيته شهادة من لا يجول التشبيه في فكره ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله داعياً إلى البر أهل بحره وبره ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر سابق الكل بشيء وقر في صدره ، وعلى عمر معز الإسلام بفظاظته وقهره ، وعلى عثمان ذي النورين الصابر من أمره على مره ، وعلى علي أخيه وابن عمه وصهره ، وعلى سائر آله وأصحابه ماجاد السحاب بقطره ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل : (ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم) الحجرات : ١١ . أي : لايستهزىء غني بفقير ، ولا مستور عليه ذنبه بمن ليس بمستور ، ولا ذو حسب بمن لا حسب له ، وأشباه ذلك مما ينتقصه به ، ولعله عند الله خير منه .

والقوم في اللغة : اسم للرجال دون النساء ، ولذلك قال الله تعالى : (ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم) الحجرات : ١١ . أي : لاتعيبوا إخوانكم

من المسلمين لانهم كأنفسكم (ولا تنابزوا بالألقاب) الحجرات: ١١. التنابز: تفاعل، من النبز، وهو الاسم، والألقاب: جمع لقب، وهو اسم يدعى به الإنسان سوى الذي سمي به. والمعنى: لا تدعوا بالألقاب. والمراد بها: مايكرهه المنادى به، أو يفيد ذماً. فأما الألقاب التي تكون صدقاً وتكسب حمداً، فلا تكره.

كما قيل لأبي بكر: عتيق، ولعمر: الفاروق، ولعثمان: ذو النورين، ولعلي: أبو تراب، ولخالد: سيف الله.

(بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) أي: أن تسميه فاسقاً أو كافراً، وقد آمن. (ومن لم يتب) عن التنابز، (فأولئك هم الظالمون) أي: الضارون لأنفسهم. (ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن).

قال ابن عباس رضي الله عنه: نهى الله سبحانه المؤمن أن يظن بالمؤمن شراً (إن بعض الظن إثم) وهو ما يتكلم به مما يظنه من السوء بالمسلم.

وقال بعض العلماء: يأثم بنفس الظن وإن لم ينطق به.

وأما ماورد في الحديث من قوله: «إحترسوا من الناس بسوء الظن» فالمراد: الاحتراس بحفظ المال، مثل أن يقول: إن تركت بابي مفتوحاً خشيت السارق.

(ولاتجسسوا) التجسس: البحث عن عورات الناس، (ولا يغتب بعضكم بعضاً) الحجرات: ١٢. أي: لايتناول بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوؤه.

ثم ضرب الله تعالى للغيبة مثلاً فقال: (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً) وبيانه أن ذكرك من لم يحضرك بسوء، بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لايحس بذلك (فكرهتموه) الحجرات ١٢. قال الفراء: فقد كرهتموه، فلا تفعلوه.

وروى البراء رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق، ثم قال: «يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لاتغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه، يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته، يفضحه في جوف بيته».

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الغيبة أشد من الزنا»

قالوا : يارسول الله : كيف ؟ قال : « ان الرجل يزني فيتوب ، فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لايغفر له حتى يغفر له صاحبه » .

وعن البراء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «إن أربى الربا ، استطالة الرجل في عرض أخيه » .

فإن قيل : ما الغيبة ؟ قيل : قد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قيل له : ما الغيبة يارسول الله ؟ قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قال : أرأيت ان كان في أخي ما أقول يارسول الله ؟ قال : « إن كان في أخيك ماتقول ، فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ماتقول : فقد بهته » . رواه مسلم .

وإذا ثبت أن الغيبة حرام ، فالإنكار على المغتاب واجب .

فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « مامن امرىء مسلم يخذل امرءاً مسلماً في موطن تنتهك فيه حرمته ، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرىء مسلم ينصر امرءاً مسلماً في موضع ينتقص فيـــه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته ، إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته » .

وفي حديث آخر عن النبي ﷺ قال : « من أُذل عنده مؤمن وهو يقدر على نصره فلم ينصره ، أذله الله على رؤوس الخلائق » .

وذكر رجل رجلاً عند معروف الكرخي ، فجعل معروف يقول : أذكر القطن إذا وضعوه في عينيك .

وكان ابن سيرين لايعجبه أن يغتاب اليهودي والنصراني ، وقال في حق نصرانيين : أحدهما أطب من الآخر ، ثم قال : أراني قد أغتبته .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خطبته : لايعجبنكم من الرجل طفطفته ، ولكن من أدى الأمانة وكف عن أعراض الناس فهو الرجل .

وقال أيضاً رضي الله عنه : كفى بالمرء عيباً أن يستبين له من الناس مايخفى عليه من نفسه ، ويمقت الناس على مايأتي .

وقال الحسن : يا ابن آدم ، لن تنال حقيقة الإيمان حتى لاتعيب الناس بعيب هو فيك ، وتبدأ بذلك العيب من نفسك فتصلحه ، فما تصلح عيباً إلا ترى عيباً آخراً ، فيكون شغلك في خاصة نفسك .

وقيل للربيع بن خيثم : مانراك تعيب أحداً ، ولا تذمه . فقال : ما أنا على نفسي براض فأتفرغ من عيبها الى غيرها .

إن الناس خافوا الله على ذنوب العباد ، وأمنوه على ذنوبهم .

يمنعني من عيب غيري الذي ... أعرفه فيّ من العيب

عيبي لهم بالظن مني لهم ... ولست من عيبيَ في ريب

إن كان عيبي غاب عنهم فقد ... أخفى عيوبي عالم الغيب

واعلم أن خطر اللسان عظيم ليس كغيره من الأعضاء ، فإن العين لاتصل الى غير الألوان والصور ، والأذن لاتصل الى غير الأصوات ، واليد لاتصل الى غير الأجسام ، واللسان يجول في كل شيء ، وبه يبين الإيمان من الكفر «وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟!» .

وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لايستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن العبد ليتكلم بالكلمة يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب » .

ولما خاف السلف شر اللسان اشتغلوا بالصمت ، فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يمسك لسانه ويقول : هذا الذي اوردني الموارد .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ماشيء أحوج الى طول سجن من لسانك .

وصحب رجل الربيع بن خثيم عشرين سنة قال : فما سمعت منه كلمة تعاب .

وقال مجاهد : كانوا يكتفون من الكلام باليسير .

وقال الفضيل : كان بعض أصحابنا يعد كلامه من الجمعة الى الجمعة .

وقال مخلد بن الحسين : ما تكلمت بكلمة أريد أن أعتذر منها خمسين سنة .

ومن آفات اللسان ، الكلام فيما لا يعني .

وقد قال عليه السلام : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » ، ومن أقبح ذنوبه ، الغيبة والنميمة . وقد عم ذلك جميع الناس . والنميمة : أن ينقل كلام شخص إلى شخص ، فيوجب ذلك حقداً من المذكور على الذاكر .

وفي « الصحيحين » عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة قتات » وفي لفظ « نمام » .

ومن آفاته أيضاً الخوض في الباطل ، والمراء والجدال في الدين ، والفحش والسب واللعن والاستهزاء والكذب ، وهذه مهلكات .

وقد كره التقعر في الكلام ، وكثرة المزاح والمدح بما لا يصلح .

واعلم أن الصمت نجاة من الآفات ، وسبب لجمع الهم وتفرغ الفكر . نسأل الله نطقاً بالخير ، وصمتاً عن الشر .

تعاهد لسانك إن اللسا ... ن سريع إلى المرء في قتله

وهذا اللسان بريد الفؤاد ... يدل الرجال على عقله

يا مطلقا لسانه فيما يؤذيه ، يا غافلاً عن الكلام وله من يحصيه ، إن أردت قولاً فانظر قبل النطق فيه ، فالسعيد من وقف على قدم التيقظ حارساً على فيه .

إغتنم ركعتين زلفى إلى الله ... إذا كنت فارغاً مستريحاً

وإذا ما هممت بالنطق في البا ... طل فاجعل مكانه تسبيحاً

فاغتنام السكوت أفضل من خو ... ض وإن كنت في الحديث فصيحا

فصل

في قوله تعالى : (فوربّك لنحشرنهم والشياطين) مريم : ٦٨. الإشارة إلى المكذبين بالبعث . والواو بمعنى : مع . وذلك أن كل كافر يحشر مع شيطانه في سلسلة (ثم لنحضرنهم حول جهنم) أي : في جهم (جثياً) .

قال الحسن : يجثون على الركب .

قال المفسرون : لضيق المكان عليهم (ثم لننزعنّ من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً) مريم : ٦٩. المراد : أعظمهم له معصية ، والمعنى : نبدأ بتعذيب الأعتى فالأعتى ، وبالأكابر جرماً ، والرؤوس القادة في الشر (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها) أي : أحق بجهنم الأشد وغيره منهم (صلياً) مريم : ٧٠. أي : دخولا واحتراقاً فنبدأ بهم (وإن منكم إلا واردها) مريم : ٧١. في معنى الورود خمسة أقوال .

أحدها : أنه الدخول . والثاني : أنه الممر على الصراط . والثالث : أن ورودها : حضورها . والرابع : أن ورود المسلمين : المرور على الجسر ، وورود المشركين : دخولها . والخامس : أن ورود المؤمن اليها : ما يصيبه من الحمّى .

قال مجاهد : الحمى حظ كل مؤمن من النار . ثم قرأ (وإن منكم إلا واردها) .

قال الحسن البصري : قال رجل لأخيه : يا أخي أتاك أنك وارد النار ؟ قال : نعم . قال : فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال : لا . قال : ففيم الضحك ؟

وكان بعض السلف يقول : لقد شغل ذكر النار قلوب الخائفين عن ذكر الجنة .

إخواني : أفيقوا من سكر الجهالة ، وانتبهوا من رقدات البطالة ، وتخيّروا قبل الفراق أحسن حالة ، فإنكم حاضرون النار لا محالة .

يا غافلاً يتمادى غداً عليك ينادى
هذا الذي لم يقدم قبل الترحل زاداً

هذا الذي وعظوه وخوّفوه المعادا
فلم يكن لمناديه طائعاً منقادا

أين بكاؤك على ذنوبك ؟ أين حزنك على عيوبك ؟ أين أسفك لفوات مطلوبك ؟ أيها العاصي ، كيف رضيت بفساد أمرك ؟ حين ضيّعت أيام عمرك ، وكيف ركبت الضلال بعد علمك وخبرك ؟ فلم تعمل صالحاً لقبرك ، وكيف آمنت بمعادك وحشرك ؟ ثم وافقت في ترك العمل له المشرك .

ويحك اجتهد في أيام بذرك ، وانتبه لإقامة عذرك ، واحذر أن ينادى عليك بعذرك ، واندم على ما مضى واستدرك .

أين علامة الإيمان يا من يدعيه ؟ أين تأثير الوعظ يا من يسمعه ويعيه؟ أين اعتبارك بمن حوى الدنيا فأصبح اللحد يحويه ؟ أين عقلك غطى عليه زخرف التمويه ؟ يا مسؤولا عما يسره ويبديه ، يا من نفسه في الحقيقة من أكبر أعاديه ، يا معرضاً عن العبر وهي تراوحه وتغاديه ، يا من قد أصمه الهوى ، ومنادي الهدى يناديه ، يا من لا يفيق حتى يحلّ الموت بناديه ، ويحك إن أسر المذنب العذاب فمن يفتديه؟.

قد أمست الطير والأنعام آمنة والنون في البحر لم يخبأ لها فزع
والآدميُّ بهذا الكسب مرتهن له رقيب على الأسرار يطلع
إذ النبيون والأشهاد قائمة والجن والإنس والأملاك قد خشعوا
وطارت الصحف في الأيدي منشّرة فيها السرائر والأخبار تطلع
فكيف سهوك والأنباء واقعة عما قليل ولا تدري بما تقع
أفي الجنان وفوز لا انقطاع له أم الجحيم فلا تبقي ولا تدع
تهوي بساكنها طوراً وترفعهم إذا رجوا مخرجاً من غمها قمعوا
طال البكاء فلم ينفع تضرعهم هيهات لا رقية تغني ولا جزع
لينفع العلم قبل الموت عالمه قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا

سبحان من خلق سعيداً وشقياً ، وعاصياً وتقياً ، وحضر جهنم متهماً وبريا (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) مريم : ٧٢ .

وجمع عدواً ووليا ، وفرق على الفريقين زياً وزيا ، فترى وجه التقي نقيا ، وبصر الشقي عميا ، فسلم طائعاً وأهلك عصيا (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) .

نشر على الفريقين كتاباً مطويا ، وعرض أعمالهم (وما كان ربك نسيا) مريم : ٦٤ .

فأثابهم عيشاً مريواً وعيشاً هنيا ، كأنك بهذا قد كان (وكان وعده مأتيا) جمع الخلائق كلهم برياً وبحريا ، فميز الميزان من كان سعيداً وشقيا ، فما نجا إلا من كان مخلصاً تقيا (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) .

خرست ألسنتهم خوفاً لا عجزا وعيا ، ونكس رأسه خجلاً من لم يكن حيياً ، وانعجم اللسان وإن كان عربياً ، يستغيث أهل النار بكرة وعشياً ، يعطشون ولا يجدون ريا ، يستغيثون إلى أن يرجع الصوت خفياً ، ما نفع فقيرهم أن كان في الدنيا غنيا ، ولا ضعيفهم أن كان قويا ، عموا عن الرشاد فأصبح كل غبيا ، كم سلكوا سبيلاً خالفوا فيه دليلا جليا ، كم آذوا صالحاً وكم ظلموا وليا ، كم حبس الحقوق منهم من كان مليا ، دخلوا سجناً رأوه بالبلاء مبنياً ، قد أفردوا بالعذاب لا يجدون نجيا ، يعذبون عذاباً دائماً سرمديا ، يأكلون من الندم لحم أيديهم فينبت طريا ، إنتبه بهذه الموعظة ، ولا تنس قبل أن تقول : يا ليتني كنت نسياً منسياً .

اللهم احمنا من المخالفة والعصيان ، وعافنا من داء الفترة والنسيان ، ونجنا برحمتك من عذاب النيران ، وارزقنا الاستعداد لما وعدتنا ، وأدم علينا إحسانك كما عودتنا ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين



المجلس الخامس والستون

في ذكر شهوة البطن والفرج

الحمد لله خالق الخلق كلهم من تراب ، وفارق بينهم في المعاني والآداب ، رفع عن أبصار بصائر الأولياء الحجاب ، وأشهدهم ماخفي عن غيرهم وغاب ، فهم على باب الدلالة للخلق على الباب ، (فأولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) الزمر : ١٨ .

وشغل الجهلاء الطغام بالطعام والشراب ، فهم في جمع الحطام بين المجيء والذهاب ، يعمرون بالهوى أجسامهم والقلوب في خراب ، فإذا عاينوا تفريطهم عند الموت بان المرتاب ، ورأوا العذاب (وتقطعت بهم الأسباب) فسبحان من جعل الدنيا معبر اعتبار ، ولم يرضها لأوليائه فبنى لهم غير هذه الدار ، وبالغ في ذمها ويكفي مافيها من الأكدار ، غير أنه زينها وطفل الهوى ذو اغترار ، من النساء والنساء حبائل الشيطان المكار ، تخرب إحداهن الدين بعد أن تخرب الدار ، والبنين وكم صغار قاسى الأب لاجل الصغار ، والقناطير المقنطرة وما اجتمعت إلا بالآثام والأوزار ، والخيل المسومة والأنعام ، وهي معجبة للمالك والنظار ، والحرث مخضرات ومصفرات مختلف الالوان والأزهار ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، وهل المتاع إلا عارية تعار ؟ (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار) آل عمران : ١٥ .

أحمده عدد الرمل في القفار ، وأقر بوحدانيته أصح إقرار ، وأصلي على رسوله محمد الذي منذ أقبل وقع الكفر في إدبار ، صلى الله عليه وعلى أبي بكر صاحبه وأنيسه في الدار والغار ، وعلى عمر الذي فتح بهيبته الأقطار ، وعلى عثمان قائم الليل والدموع غزار ،

وعلى علي محبوبنا وما على محب من عار ، وعلى سائر آله وأصحابه المهاجرين منهم والانصار ، وسلم تسليماً .

إعلموا إخواني أن شهوة البطن من الشهوات المملكات ، فبها أخرج آدم من الجنة ، ومن الشبع تحدث الرعونات ، والمؤمن قليل الأكل في سائر الحالات .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معى واحد » . أخرجاه في « الصحيحين » .

وعن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ماملأ آدمي وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

فالشبع مذموم لأنه يوجب تكاسل البدن ، وكثرة النوم ، وبلادة الذهن . وذلك يكثر البخار في الرأس ، حتى يغطي موضع الفكر والذكر ، والبطنة تذهب الفطنة ، وتجلب أمراضاً عسرة ، ومقام العدل أن لا يأكل حتى تصدق الشهوة ، وأن يرفع يده وهو يشتهي .

ونهاية مقام الحسن قوله عليه السلام : ثلث لطعامه ، وثلث لشرابه وثلث لنفسه .

والأكل على مقام العدل ، يصح البدن ، ويبعد المرض ، ويقلل النوم ، ويخفف المؤنة ، ويرقق القلب ويصفيه ، فتحسن فكرته ، ويسهل الحركات والتعبدات ، ويحصل الإيثار ، والشبع يميت القلب ، ومنه يكون الفرح والمرح والضحك .

وقد كان السلف يكرهون كثرة الألوان لأنها تدعو إلى كـــثرة الأكل . وما زالوا يذمون الشبع .

قال أبو جحيفة : أكلت خزيرة بلحم سمين ، فأتيت النبي ﷺ فتجشأت فقال : « احبس جشاءك ، فإن أكثركم شبعاً أطولكم جوعاً يوم القيامة » .

وأما ترك الشهوات فقد اعتمده خلق من الصالحين لأنها توجب كثرة الأكل ، ولا يحتملها كسب الورع على أنه لاينبغي أن تترك مطلقاً ، إنما يترك مايفعله أهل الترفـه

من ألوان الأطعمة ، وإلا فقد كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل وأكل الدجاج .

فأما أهل الغفلة ، فيأكلون شرهاً ، ولا ينظرون في حل المطعم ، ويتعدى أمرهم إلى شرب المسكر وأكل الربا .

وقد روى عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة قال : قال رسول الله ﷺ : « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم ، أشد من ستة وثلاثين زنية » .

واعلم أن المعدة حوض البدن ، فإذا طرح فيها الحلال تحركت الأعضاء بالطاعة ، وإذا طرح فيها الحرام تحركت الأعضاء بالمعصية .

قال سهل بن عبد الله : من صفا مطعمه دخل عليه الزهد والعبودية من غير أن يدعو أحدهما . وقيل : الجهاد عشرة، تسعة في طلب الحلال .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال بحلال أو بحرام » . رواه البخاري .

وقال حذيفة المرعشي لرجل : هل لك أن أجمع الخير كله لك في حرفين ؟ الخبز من حله ، وإخلاص العمل لله ، حسبك . ثم اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الآدمي لفائدتين . إحداهما : أن يدرك لذة يقيس عليها لذات الآخرة . وما لم يدرك جنسه بالذوق ، لا يعظم إليه الشوق . والثانية : بقاء النسل . ومتى لم ترد هذه الشهوة إلى حالة الاعتدال ، جلبت آفات ومحناً في الدين . ولولا هذه الشهوة ، ما كان النساء حبائل الشيطان اللعين . وقد قال إبليس : سهمي الذي إذا رميت به لا أخطىء النساء .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » .

وقال سعيد بن المسيب : ما أيس الشيطان من ابن آدم قط إلا أتاه من قبل النساء. ثم قال وهو ابن تسع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه ، وهو يعشو بالأخرى : وما شيء أخوف عندي من النساء .

وقال سفيان الثوري : ائتمني على بيت مملوء مالاً ، ولا تأمني على جارية سوداء لا تحل لي . ولهذا المعنى حرمت الخلوة بالأجنبية .

وروى عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا لايخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان » .

وروي أن إبليس لقي موسى الكليم عليه السلام فقال له : ياموسى لا تخل بامرأة لاتحل لك ، فإنه ما خلا رجل بامرأةٍ لاتحل له إلا كنت صاحبه ، دون أصحابي حتى أفتنه بها .

واعلم أن هذه الشهوة لها إفراط تقهر العقل حتى تصرف همة الرجل إليها ، فيشتغل عن ذكر الآخرة ، وربما جر إلى الفواحش . ومن أعظم الذنوب الزنا .

ففي « الصحيحين » من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : «ياأمة محمد ، ما أحد أغير من الله من أن يرى عبده أو أمته تزني » .

وروى الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ أنه قال : « مامن ذنب بعد الشرك بالله أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لايحل له » .

وقال مكحول : يجد أهل النار رائحة ، فيقولون : ماوجدنا أنتن من هذه ،فيقال: هذه ريح فروج الزناة .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن بهلاكها .

فينبغي للمبتدىء في طريق الخير أن يطلب مايعفه ، وقد يشغله في بدايته حلاوة الطلب للعلم أو عمل فيلهيه عن ذكر النكاح .

فمن وجد تلك الحلاوة فليقبل على مافتح له من طلب علم أو عمل ، ومتى خاف من فتنة ، وعلامتها ضعفه عن غض البصر ، ورد الوسواس العارض لقلبه ، فليبادر إلى النكاح . وينبغي أن يطلب زوجة نشأت على الخير ، في أهل بيت عفاف ، فتلك الغاية . وقد قال النبي ﷺ : « عليك بذات الدين » .

أَيا من خلفه الأجـل ومن قدامـه الامل
أمـا والله ماينجيـ ك إلا الصدق والعمـل
سل الأيام عن أمـلا كنا المـاضين مافعلوا
أما شغلوا بأنفسهم فصار لهم بها شغل
وصاروا في بطون الأر ض وارتهنوا بمـا عملوا
ومـا دفع المنية عنـ هم عزولا خـول
وكانوا قبل ذاك ذوي الـ مهـابة أينما نزلوا
وكانوا يأكلون أطـا يب الدنيا فقد أكلوا
ذكرت الموت فالتبست علي بذكره السبل

رحل عن الدنيا أربابها بالشقا ، وما فاز فيها إلا أهل التقى ، أين من أخـذ الخراج وجبى ؟ وجمع الأموال واجتبى ، وجلس على سرير البخل واحتبى ، أسرع المرض إليه طلبا ، ثم دب الموت نحوه دبيب الدّبا ، فأصبح قصره بعده خرِ با ، ولحق في البلاء أمّاً وأبا ، شاء النقلة أو أبى ، أسفاً له كم لقي وصبا ، بعد اللهو والصبا ، أسكنه الموت ربعا خربا ، تسفي عليه الدبور والصبا ، فأمسى بكف البلاء منتهبا ، أين الجسد النضير ؟ صار كالهبا ، طالما تناول من الربا فربا(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا) آل عمران : ١٣٠.

أين مطاعمه الرائقة ؟ أين مشاربه الفائقة ؟ ما كانت تعوقه عن أغراضه عائقة ،حتى حلت به من الموت بائقة ، كانت لهلاكه سبباً ، خلا في لحده بقبح زلته ،وما نفعه مانال من لذته ، ولا وجد حينئذ طعم طعمته ، ولا أخذ إلى حفرته ، إذ ذهب ذهبا .

إخواني : إياكم والحطام ، إياكم والحرام ، لا تعمروا به الأجسام ، فستبلى هـذه العظام ، ويبقى بعد الأجرام الإجرام ، فالذنب سبا قوم سبأ .

يا مسافراً بلا زاد ، يا من كلما جاء تفريطه زاد ، ستلقى في القـبر بغير وساد ، وينساك الأهل والأولاد ، ويبكي عليك الغرباء ، ما ينفعك قريب ولا صديق ، إذ أغصك السؤال بالريق ، وحِصرت من الثرى في مضيق ، فهل تطيق هربا ؟ أحاضر قلبك

أم قد غاب ؟ أما لهذا القول عندك جواب ؟ لقد دللتك على الصواب ، وصدقتك شرح حالِك في المآب ، فلا تسمع كذباً .

نسير إلى الآجال في كل لحظة   وأيامنا تطوى وهن مراحل
ولم أر مثلَ الموت حقا كأنه   إذا ما تخطته الأمانيُّ باطل
وما أقبح التفريط في زمن الصبا   فكيف به والشيب للرأس شامل

فصل

في قوله تعالى : (فأما من أُوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه) .

قال المفسرون : إنما يقول هذا : ثقة بسلامته ، وسروراً بنجاته .

(إني ظننت) أي : علمت (أني ملاقٍ حسابيه) والمعنى : أني آمنت بالبعث والحساب (فهو في عيشة راضية) أي : مرضية (في جنة عالية) المنازل (قطوفها) أي : ثمارها (دانية) أي : قريبة (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم) أي : بما قدمتم من الأعمال الصالحة (في الأيام الخالية) الحاقة : ١٩ – ٢٤ .الماضية ، وهي أيام الدنيا .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً ، وأهله لا يجدون عشاء . وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضر ويصفر ، فيقال له : ارفق بنفسك ، فيقول : إن الأمر جدّ . وكان صفوان بن محرز يصوم ويفطر على رغيف ، ويصلي حتى يصبح .

وصام يزيد الرقاشي اثنتين وأربعين سنة .

واحتضر ابراهيم بن هانىء وهو صائم ، فقيل له : اشرب ماء . فقال : أغربت الشمس ؟ فقيل له : قد رخّص لك ، فقال : أمهلوا ، فمات ولم يشرب .

وقال بشر الحافي : ما شبعت منذ خمسين سنة ، وكان له كل يوم رغيف .

واشوقاه الى أولئك القوم ، أين أهل الشره من أهل الصوم ؟

وكان عطاء السلمي كثير البكاء ، فعوتب في ذلك فقال : الموت في عنقي ، والقبر بيتي ، وفي القيامة موقفي ، وعلى جسر جهنم طريقي ، ولا أدري ماذا يصنع بي ربي ، وإني إذا ذكرت أهل النار وما ينزل بهم من العذاب مثلت نفسي معهم ، فكيف لنفس تغلّ يدها الى عنقها ، وتسحب في النار ، لا تصيح وتبكي ؟!وخرج في جنازة ، فغشي عليه أربع مرات حتى صلي عليها .

وكان يخرج بالليل فيقف بالمقابر فيقول : يا أهل القبور متم فواموتاه ، وعاينتم ما عملتم فواعملاه .

وقال صالح المري : لما مات عطاء السلمي رأيته في منامي فقلت له : الى ماذا صِرت ؟ قال : صرت والله الى خير كثير ، ورب غفور شكور ، قلت : لقد كنت طويل الحزن في الدنيا ، فقال : لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً . قلت : ففي أي الدرجات أنت ؟ قال : (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصديقين والشهداء والصالحين) النساء: ٦٩.

يا حسن تلك القلوب فما أصفاها ، ويا عز تلك الأعمال فما أوفاها ، اتخذوا البكاء على التقصير دأباً ، ولازموا من بقاع الارض محرابا ، وأعدوا للسؤال عن الأعمال جواباً ، ورضوا بلقاء الحق من الدارين ثواباً . ذكر القوم يزعج قلبي ، وشرح أحوالهم يأخذ لبي ، ما يزالون يجولون في فكري ،وأنا أحضرهم لديكم بذكري ، فكأني أستدعي لهم بوصفي ، فلعلي أرى الديار بطرفي .

قال أحمدبن الفتح : رأيت بشراً الحافي في المنام بعد موته وهو في بستان ،وبين يديه مائدة ، وهو يأكل . فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : أباحني الجنة بأسرها ، وقال: كلْ

من جميـع ثمارها ، واشرب من أنهارها ، وتمتع بجميع ما فيها ، كما كنت تحرِم نفسك الشهوات في دار الدنيا .

كم منع نفسه شهوة فما أنالها ، كم ردها عن هواها وأمالها ، كم حمل عليها كلاً وما رثى لها ، كم همت بنيل غرض بدا لها ، فلما خافت من الحساب بدا لها . ما أخذ بشرٌ من الدنيا إلا طفيفاً ، ولقد كان زاهداً عفيفاً ، لو رأيته في ثياب الصبر نحيفا ، يتوغل في طريق التقوى لطيفا ، تالله لقد أعانه الرحمن (وخلِق الإنسان ضعيفا) النساء ٢٨ .

بكت عينه رحمة للبدن	فغطى البكاء مكان الوسن
وألبسه الشوق ثوب السّقام	كأن السّقام عليه حسن
فيا طول عصيانه للغرام	ويا طول طاعاته للحزن

يا من يرحل في كل لحظة ويسري ، وهو غافل عن نفسه لا يدري ، لو تلمحت سفينة العمر تجري ، لرأيت سيوف الفناء تفري . تيقظ فالموت في طلبك قد جدّ ، واحذر الهوى فكف النوى لاختلاسك ممتدّ ، وخف من الفوت فإن الموت ملحقك بالأب والجد ، وتأهب للجواب يوم الحساب قبل مقابلة العذر بالرد .

أين أرباب الافتخار بمعالي الأنساب ؟ اجتمعوا والله فاستووا تحت التراب ، وندموا إذ قدِموا على قبيح الاكتساب ، وحزِنوا على خلافهم عين الصواب (ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) البقرة : ١٦٦ . فهم في قبورهم أسارى ، وفي جميع أحوالهم حيارى ، وكأنهم من قوة الندم سكارى ، اتخذوا المنى منزلا والأمل داراً ، فأخرجهم الموت كرهاً وما دارى .

من ذا يتم له سرور	ما نحن فيه هو الغرور
كم من حبيب قد خلت	منه المنازل والقصور
يا ابن التراب خلقت منـ	ـه وأنت مختال فخور
يا ناسي الاخرى غداً	تبدي سرائرها الستور
أين القرون السالفا	ت أتت عليهن الدهور

تنعى إلى من عاش من قد مات أفنية ودور

كلٌّ يعلل نفسه ودوائر الدنيا تدور

والحادثات لها روا ح مزعج ولها بكور

ولمن تفكر عبرة فيمن تغيّبه القبور

لما اجتهد الصالحون في تصفية الحلال، صفّى القدر لهم مالا يدخل تحت الاكتساب.

من حفظ ما عليه، حفظ له الحق ما إليه .

قال محمد بن سيرين : إني لأرى المرأة في المنام أعرف أنها لا تحل لي ، فأصرف بصري عنها .

لما تلمحوا الطباع إلى الدنيا صابية ، رفضوها عن عزيمة آبية ، ثنوا قلوبهم الى الدار الثانية ، ورأوها بعين اليقين دانية ، فآثروها على الحقيرة الفانية ، يطلبون العيشة الهانية ، هممهم ليست متوانية ، كانوا يقومون والليالي داجية ، قيام نفس خائفة راجية ، يسهرون طول الليالي الشاتية ، يستعدون للصيحة الآتية ، عيونهم من البكاء عاشية ، والقلوب مزعجة خاشية ، وأسرار القوم بالدموع فاشية ، يرضون بالخلقان والأجساد بادية ، أسماع لما ينفعها واعية ، أقدام الى أرباحها ساعية ، ألسنة طول الزمان داعية ، بطون من الطعام خاوية ، غصون من الإعدام ذاوية ، اقتنعوا من الدنيا بزاوية ، وصاروا بالمجاعة كالشنان البالية ، آه لهممهم انها عالية ، آه لمطلوباتهم إنها غالية ، واهاً لطيبهم زاد على الغالية ، فلو سمعت منادي الجزاء في الدار الباقية (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) الحاقة : ٢٤ .

اللهم نبّهنا من رقدات الغفلة ، ووفقنا للعمل الصالح في أيام المهلة ، وألهمنا رشدنا ، وحقق في كرمك قصدنا ، واحشرنا في زمرة المتقين ، وألحقنا بعبادك الصالحين ؛ واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين آمين .



المجلس السادس والستون

في ذم الحسد والغضب

الحمد لله الذي خلق اليوم وأمسه ، وقمر الكون وشمسه ، وآدم بيده وما مسه ، عرفه الموحِّد فنزه قدسه ، وجهله المشبه فاستفتى حسه ، فقاس الخالق بالأشياء المحسة ، فتراكم عليه غبار التشبيه وضاعت المحسّة ، وجحد المعطل صفاته فما أخسه ، فسبحان من جلّ وجلّى ، وأعلى وعلّى ، وسد الخلل وخلّى ، خلق آدم وحواء ، وسكنا الجنة وحلا ، وألبسها أفخر اللباس وزيّن وحلّى ، فحسدهما إبليس فأضمر في نفسه غلاً ، فجرى القدر بمعصيتهما فأخطآ أوزلاّ ، واكتسبا ـ بعد أن اكتسبا عزاً ـ ذلا ، وتعبا في تحصيل العيش ونصبا وكلاّ ، جل الإله عن مثل وشبه حاشا وكلاّ .

أحمده حمد من تناول لُقَمَ حمده حتى تملا ، وأصلي على رسوله محمد صلاة لا تبلى ، وعلى جميع أصحابه وأبي بكر قبلا ، وعلى عمر الذي هيبته لم تدع لكسرى عقلا ، وعلى عثمان الذي فضله من الشمس أنور وأجلى ، وعلى علي الذي ما أقدم قط فولى ، أفيدّعي الرافضيُّ أنه يحبه ونبغضه نحن ؛ كلا ؟ وسلم تسليماً .

إعلم أن أول معصية وقعت حسدُ إبليس آدم ، ثم حسد قابيل هابيل .

والحسد لا يكون إلا على نعمة ، ومتى أنعم الله تعالى على عبد نعمة ، فأحب أحدٌ أن يكون له مثلها من غير أن تزول عن المحسود ، فذلك يسمى غبطة ، ولا لوم فيه . فإذا أحب زوالها ، وإن لم تصل إليه ، فهذا الحاسد ، وهذا الحسد ، ولهذا جاء الذم.

فعن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « دبّ إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، هي الحالقة ، حالقة الدين ، لا حالقة الشعر ، والذي نفس

محمد بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا ، أفلا انبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم » .

وفي « الصحيحين » من حديث أنس رضي الله عنه ؛ عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تباغضوا ولا تقاطعوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا » .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

ورأى موسى عليه السلام رجلاً عند العرش فغبطه بمكانه ، فسأل عنه ، فقيل له : نخبرك بعمله : لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يمشي بالنميمة ، ولا يعقّ والديه .

وقال معاوية رضي الله عنه : كل الناس أقدر على رضاه ، إلا حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه إلا زوالها .

وقال ابن سيرين رحمه الله تعالى : ما حسدت أحداً على شيء قط من الدنيا ، إن كان من أهل الجنة ، فكيف أحسده على الدنيا ؟! وإن كان من أهل النار ، فكيف أحسده عليها وهو يصير الى النار ؟!

واعلم أن الحسد يضرّ الحاسد في الدين والدنيا ، ولا يستضر بذلك المحسود . أما ضرره في الدين ؛ فإن الحاسد قد سخط قضاء الله تعالى ، وكره نعمته على عباده ، وهذا قذىً في بصر الإيمان .

ويكفيه أنه شارك إبليس في الحسد ، وفارق الأنبياء في حُبهم الخير للخلق . ثم إن الحسد يحمل على إطلاق اللسان في المحسود بالشتم والتحيل على أذاه .

وأما ضرره في الدنيا ؛ فإن الحاسد يتألم بالحسد ولا يزال في كمد .

قال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم مِن الحاسد ، حزن لازم ، ونفس دائم ، وعقل هائم ، وحسرة لا تنقضي .

دع الحسود وما يلقاه من كمده ... كفاك منه لهيب النار في كبده

إن لمت ذا حسد نفّست كربته ... وإن سكتّ فقد عذّبته بيده

ثم اعلم أن الغضب خلق من النار ، وعجن في الطينة ، فمتى قصد الآدمي في غرض من أغراضه ، اشتعلت نار الغضب اشتعالا يغلي به دم القلب ، وينتشر في العروق ، ويرتفع إلى أعالي البدن ، فيحمرّ الوجه .

روى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « ألا إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ؟ »

فمن وجد من ذلك شيئاً ؛ فليلصق خدّه بالأرض . ولو رأى الغضبان صورة نفسه ، لأنف لنفسه من تلك الحالة .

ومعلوم أن قبح الباطن الذي أثّر على قبح الظاهر أقبح . ويؤثر هذا الغضب في اللسان ، فينطق بالقذف والسب والقبائح التي يستحي منها إذا سكن ، ويؤثر في الأعضاء بالتهجم بالضرب والجراح ، فإن لم يقدر الغضبان على شفاء غيظه ، عاد على نفسه ، فربما مزّق ثوبه ، ولطم وجهه ، وفعل أفعال المجانين . ويؤثر الغضب في القلب ، فيحقد على المغضوب عليه ، ويضمر له السوء .

ومما في ورد في ذم الغضب ؛ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس الشديد بالصُّرَعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » .

وعنه أيضاً قال : أتى النبي ﷺ رجل فقال : أوصني ، قال : لا تغضب . فردّد مراراً قال : لا تغضب » . انفرد البخاري بإخراج هذا الحديث ، واتفقا على الذي قبله .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه ، وإلى أمانته عند طمعه . وقال جعفر بن محمد : الغضب مفتاح كل شر . وقيل لابن المبارك : اجمع لنا حسنَ الخلقِ في كلمة ، فقال : تركُ الغضب .

واعلم أن أصل الغضب ينشأ من الكبر وعزة النفس ، فينبغي للغضبان أن يقمع كبره بالتواضع ، وينظر في فضل كظم الغيظ ثم يسكت ويتعوّذ ، ويغير حاله ، فإن كان قائماً جلس .

فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا غضب أحدكم فليسكت » أعادها ثلاثاً .

وفي « الصحيحين » من حديث سليمان بن صُرد قال : كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبّان ، وأحدهما قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه ، فقال النبي ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجده : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب ، وإلا فليضطجع » .

ومما ورد في فضل الحلم ، ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : « ما تجرّع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من اتقى الله لم يشف غيظه .

وأذنب غلامٌ لامرأة من قريش ، فأخذت السوط وسعت نحوه ، فلما قاربته ، رمت السوط وقالت : ما تركت التقوى أحداً يشفي غيظه .

وشتم رجل ابن عباس رضي الله عنهما فقال : يا عكرمة ، انظر هل للرجل حاجة فنقضيها ? فنكس الرجل رأسه واستحيا .

وشتم رجل علي بن الحسين فقال : ماستُر عنك من أمرنا أكثر . واستطال عليه رجل ، فتغافل عنه . فقال له : إياك أعني . فقال : وعنك أغضي . وأغلظ له رجل فقال له : يا أخي إن كنت صادقاً فيما قلت ؛ فغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً ؛ فغفر الله لك.

وشتم رجل رجلاً فقال : هي صحيفتك فتأمل فيها ماشئت .

وقال رجل لآخر : لأشتمنّك شتماً يدخل معك القبر. فقال : معك يدخل، لا معي .

خذما صفالكفالحياة غرور	والموت آتٍ واللبيب خبير
لا تعتبن على الزمان فإنه	فلكعلى قطب الهلاك يدور

تعفو السطور إذا تقادم عهدها والخلق في رقّ الحياة سطور

كل يفرّ من الردى ليفوتـه وله إلى ما فرّ منه مصير

أين الذين سعوا في الأرض وانتشروا ؟ وتكبّروا وعتوا وافتخروا ، وأعرضوا عن العبر فما فهموا ولا اعتبروا . كانوا أرباب ألبابٍ غير أنهم ما أبصروا ، فلما رحلوا عن القصور إلى القبور تدبّروا وندموا إذ قدموا ، ولهفوا وتحسروا ، فتفكروا في أخبارهم ، واعلموا أنكم على آثارهم فاحذروا .

يا صاح قد عجبت نفسي وكم عجبت من ضاحك والردى منه على الرصد

والنفس توّاقة من بعد حـاجتها الى ازدياد وإكثار من العـدد

ورُبَّ واردة للبحر قـد شرِقت فأهلكت وارتوت أخرى على ثمد

كم راسب في غمار الملـك تحسبه في لذة وهو في هم وفي كمـد

وعاقـد فوق أموالٍ يجمّعها قد أصبحت بعده محـلولة العقد

وآيسٍ ملئت صيداً حبالتـه وطامعٍ ردّ محروماً ولم يصد

لله درُّ أقوام نظروا في العواقب ، فعملوا عمل مراقب ، فتوحدوا بالفضـائل والمنـاقب .

مكث أبو بكر ابن عياش لم يفرش له فراش خمسين سنة ، فلما احتضر ، بكى ابنه فقال : ما يبكيك يا بني ؟ أترى الله يضيّع لأبيك أربعين سنة ، يختم القرآن كل ليلة ؟ وبكت أُخته فقال لها : انظري الى تلك الزاوية ، ختم أخوك فيها ثمانية عشر ألف ختمة .

كان ثابت البُناني يصوم الدهر ، ويختم القرآن كل ليلة ، ويبكي حتى عمِش ، فلما مات ، كانوا يسمعون قراءة القرآن من قبره .

وكان محمد بن واسع يصوم الدهر ويقوم الليل كله ويبكي ، فقالت جارية في داره : لو كان هذا قد قتل أهل الدنيا ، مازاد على هذا .

وكان يقول : لو كانت للذنوب رائحة ، ما قدرتم أن تدنوا مني .

ولما مرض قال : ما يغني عني ما يقول الناس إذا أُخذ بيدي ورجلي فألقيت في النار ؟ فلما احتضر قال : يا إخوتاه هبوني وإياكم سألنا الرجعة ، فأعطا كموها ومنعنيها ، فلا تخسروا أنفسكم .

وكان فضيل الرقاشي يقول : لايلهينك الناس عن نفسك ، فإن الأمر يخلص إليك دونهم ، ولا تقطع النهار بكيت وكيت ، فإنه محفوظ عليك ماقلت .

انتبهت امرأة حبيب العجمي وهو نائم فقالت له : قم يارجل ، فقد ذهب الليل وبين يديك طريق بعيد ، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا .

وكان مالك بن دينار يقول : إن الله تعالى جعل الدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر ، فخذوا لمقركم من مفركم ، وأخرجوا الدنيا من قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ولا تهتكوا أسراركم عند من يعلم أسراركم ، ففي الدنيا حييتم ولغيرها خلقتم ، إنما مثل الدنيا كالسم أكله من لايعرفه ، واجتنبه من عرفه ، ومثل الدنيا مثل الحية مسها لين ، وفي جوفها السم القاتل ، يحذرها ذوو العقول ، ويهوي إليها الصبيان بأيديهم .

وكان يقول : لو استطعت أن لا أنام لم أنم مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم ، ولو وجدتُ أعواناً لفرقتهم ينادون في منازل الدنيا : النار ، النار . قالوا له : ألا ندعو لك قارئاً ، قال : إن الثكلى لاتحتاج إلى نائحة . وقالوا : ألا تستقي لنا ؟ قال : أنتم تستبطئون المطر ، وأنا أستبطىء الحجر . وكان يقول : ماضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلوب .

يامطروداً عن الموصوفين ، يامجهولاً بين المعروفين ، كم بين الآمنين والخائفين ، كم بين الجاهلين والعارفين ، رحل القوم فهلا تبعت ، ربحوا في المعاملة ، وخسرت فيما بعت .

ألا أيها القلب الكثير علائقه	ألم تر أن الدهر تجري بوائقه
فسابق لريب الدهر في طلب المنى	بأي جناح خلت أنك سابقه
وترخي على السوء الستور وإنما	تقلب في علم الإله خلائقه
ألا أيها الباكي على الميت قبله	رويدك لاتعجل فإنك لاحقه

فأي هوى أو أي لهو أصبته على لذة إلا وأنت تفارقه

إذا اعتصم المخلوق من فتن الهوى بخالقه أنجاه منهن خالقه

ومن هانت الدنيا عليه فإنني ضمين له أن لاتذم خلائقه

أرى صاحب الدنيا مقيماً بجهله على ثقة من صاحب لايوافقه

هي الدار دار يستذل عزيزها وإن كان مخشياً عظيماً سرادقه

فصل

في قوله تعالى : (إذا الشمس كورت) التكوير : ١ .

روى ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة، فليقرأ : إذا الشمس كورت » . أخرجه الحاكم في «صحيحه» . ومعنى كورت : أظلمت . وقيل : ذهبت وعطلت . وقيل : إنها تكور مثل تكوير العمامة ، فتلف وتمحى .

(وإذا النجوم انكدرت) أي : تناثرت وتهافتت .

(وإذا الجبال سيرت) أي : عن وجه الأرض . فاستوت مع الأرض .

(وإذا العشار عطلت) العشار : النوق الحوامل، وهي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر ، فهي أنفس مال العرب عندهم ، فلا يعطلونها إلا لإتيان مايشغلهم عنها . وإنما خوطبوا بأمر العشار ، لإن أكثر عيشتهم وأموالهم من الإبل . ومعنى عطلت : سيبت وأهملت لاشتغالهم عنها بأهوال يوم القيامة .

(وإذا الوحوش) يعنى : دواب البر . (حشرت) أي : جمعت .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : يحشر الله الخلق يوم القيامة ، البهائم والدواب والطير وكل شيء ، فبلغ من عدله أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كوني تراباً ، فيقول الكافر : (ياليتني كنت تراباً) عم : ٤٠ .

(وإذا البحار سجرت) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أوقدت فاشتعلت ناراً . والثاني : يبست . والثالث : ملئت بأن صارت بحراً واحداً و كثر ماؤها .

(وإذا النفوس زوجت) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : قرنت بأشكالها . عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، في قوله تعالى : (وإذا النفوس زوجت) قال : الفاجر مع الفاجر ، والصالح مع الصالح .

والثاني : ردت الأرواح إلى الأجساد فزوجت بها .

والثالث : زوجت أنفس المؤمنين بالحور العين ، وأنفس الكافرين بالشياطين .

(وإذا الموؤودة سئلت) الموؤودة : البنت تدفن وهي حية . وكان هذا من فعل الجاهلية . وفي معنى سئلت قولان . أحدهما : أن تكون هي المسؤولة على جهة التوبيخ للقتلة . ومعنى سؤالها تبكيت قاتلها يوم القيامة ، لأن جوابها : قتلت بغير ذنب. والثاني : أن تكون القتلة المسؤولين ، أي : سألوها ، بمعنى : طلبت منهم . فقيل لهم : أين أولادكم ؟ وذلك على وجه التوبيخ أيضاً .

(وإذا الصحف نشرت) وهي صحف أعمال بني آدم ، تنشر للحساب .

(وإذا السماء كشطت) قال الفراء : نزعت وطويت . (وإذا الجحيم سعرت) أي : اوقدت . (وإذا الجنة أزلفت) أي : قربت من المتقين . وجواب هذه الأشياء (علمت نفس ما أحضرت) التكوير : ١ - ١٤ . من عمل ، فأثيبت عليه على قدر عملها .

يامن قد أهمل أمره فيما ينظر ، قل لي بأي عمل تحضر ؟ ذكر العرض قلقل الصالحين ، وخوف الحساب أزعج المتقين .

جاز أبو بكر الصديق رضي الله عنه على طائر فقال : طوبى لك ياطائر ، تقع على الشجر وتأكل من الثمر ، ولا حساب عليك ولا عذاب ، ليتني كنت مثلك .

وقال عمر رضي الله عنه : ليتني كنت تبنة في لبنة ، ليت أمي لم تلدني . ومروا على عابد يبكي ، فقالوا : مايبكيك ؟ فقال : روعة النداء بالعرض على الله تعالى .

وكان يزيد الرقاشي يقول : ليتني لم أخلق ، وإذا خلقت لم أحاسب .

وعاتبه ابنه يوماً في كثرة بكائه ، فازداد بكاؤه ، فقالت أمه : ما أردت إلا هذا ؟ فقال : أردت أن أهون عليه ، وما أردت أن أزيده .

كثرة الشوق أحدثت قلة الصبر وبعد المزار أدنى السهادا

كم عذول عليكم رام إصلاحي فكان الملام لي إفسادا

كلما زاد عذله زاد وجدي فكلانا في أمره قد تمادى

من القلب أصليتموه لظى الـ جمر وجنب أفرشتموه القتادا

إذا قامت النفوس من القبور وسرت ، غلت بغلها وأسرت ، ورجحت كفة الميزان أو خسرت (علمت نفس ماأحضرت) .

يقوم الناس من قبورهم ، متحيرين في أمورهم ، باكين على غرورهم ، في ذنوب خطرت ، (علمت نفس ما أحضرت) .

آهٍ لنفس ماوفقت ولا أُريدت ، نصب لها القدر فخه فصيدت ، من لها إذا جمعت وأعيدت ، وجيء بالنار فقيدت فزفرت ، (علمت نفس ما أحضرت) .

أُمرت فما أطاعت ، وخوفت فما ارتاعت ، وبذلت في طلب الفاني ما استطاعت ، بئس ما باعت وما اشترت . (علمت نفس ما أَحضرت) .

أَتعبتها وعنّيتها ، وحملت عليها مالا تطيق وآذيتها ، نشرت صحائفها وأَنت أمليتها فليتها ماحضرت ، (علمت نفس ما أَحضرت) .

أقامها من دفنها ، وأحضر سيئها وحسنها وسرها وعلنها ، وقبائحها ومحنها ، ولو أمكنها أنكرت (علمت نفس ما أحضرت) .

تجمع جميع نظراتها ، وتلفق جميع سرائر خطراتها ، وتحاسب على حركاتها ، وتسأل عن كلماتها ، أقلت أم كثرت ؟ (علمت نفس ما أَحضرت) .

لما خابت منها الظنون ، جرت من العيون عيون ، فأخذت تتمنى المنون ، كيف لا وعليها ديون ؟ وقد أعسرت (علمت نفس ما أحضرت) .

فانتبه لخلاصها ، وخل هواها ، وهيء زادها فقد دنا شراها ، وسلمها بغير توقف إلى من اشتراها ، يالها من موعظة بليغة وما أراها قد أثرت .

اللهم امنن علينا بالتوفيق ، وأعذنا من الخذلان والتعويق ، وفرج عنا كل هم وغم وضيق ، ولا تحملنا مالا نقوى ولا نطيق ، يامن كل نفس إلى جوده افتقرت .

اللهم جللنا بسترك ، واعف عنا بكرمك ، وعاملنا بلطفك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس السابع والستون

في ذم العجب والكبر ومدح التواضع

الحمد لله الذي يتحيّر العقل عن أوصافه ويقف ، ولا يجوز للعبد حملها على ما ألِف ، ولولا أنه قديم ما وجبت كفّارة الحلف ، المعطل مجنون ، والمشبه خرف ، من شبه هلك ، ومن عطل تلف ، ما نتعرض لتعطيل ولا تشبيه ، مذهبنا صلف ، ولا نذكر مذهبكم يا مبتدعين فإنه قد عرف (والسماء ذات الحبك . إنكم لفي قول مختلف) الذاريات : ٧ ، ٨

أحمده على بحار نعم منها اغترف ، وأصلي وعلى رسوله محمد صلى الله عليه صلاة محب كلف ، وعلى صاحبه أبي بكر الذي إذا ذكر للرافضي ينقرف ، وعلى عمر المنصف المنتصف ، وعلى عثمان البر بأهله المنعطف ، على علي الذي لم يلق جمعاً إلا كشف ، بحر العلوم فلو أخذ الخلق منه ما نزف ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين ما مدح منهم أحد إلا صار فوق ما وصف ، وسلم تسليما .

قال الله تعالى : (إنه لا يحب المستكبرين) النحل : ٢٣ .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » رواه مسلم .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « قالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين » .

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذرّ ، يطؤهم الناس لهوانهم على الله عز وجل » .

واعلم أن الكبر خلقٌ باطن تصدر عنه أعمال ، وذلك الخلق هو رؤية النفس فوق المتكبر عليه ،ويقاربه العجب من جهة أن الكبر لا يتصور إلا أن يكون هناك من يتكبر عليه ، والعجب يتصور ولو لم يكن .

وقد يتكبر الإنسان على الخالق فيكفر به ولا يعبده . كما قال الله عز وجل : (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر) النساء : ١٧٢ ؟ وأما التكبر على الخلق ، فينقسم قسمين .

أَحدهما : التكبر على الرسل من جهة ترفع النفس عن الانقياد لبشر ، كما قال تعالى: (لولا أُنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) الفرقان : ٢١ .

القسم الثاني : التكبر على العباد ، وهذا عظيم من وجهين .

أحدهما :أن الكبرَ والعظمة لا تليق إلا بالملك القادر ،لا بالعبد العاجز ،فالمتكبر منازع لله عز وجل في صفة لا تليق إلا بجلاله .

وقد روى مسلم في أفراده عن أبي هريرة ، وأبي سعيد رضي الله عنهما ، أنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عزوجل: العزُّ إزاري ، والكبرياء ردائي، فمن نازعني شيئاً منهما عذبته » .

قال الخطابي : معناه : أن الكبرياء والعظمة صفتان لله تعالى ، اختص الله بهما ، فلا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما، لأن صفة المخلوق التواضع والذل ، فضرب الإزار والرداء مثلاً . يقول : كما لا يشركُ الإنسان في إزاره وردائه أحد ، فكذلك لا يشركني في الكبرياء والعظمة مخلوق.

الوجه الثاني : أن الكبر يدعو إلى مخالفة الله تعالى عز وجل في أوامره ، لأن المتكبر يأنف من قبول الحق ، وإذا قيل له : (اتق الله أخذته العزة بالأثم) ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « الكبر بطر الحق وغمص الناس » .

وقد يتكبر العالم بعلمه فيحتقر الناس ، ويطلب خدمتهم له ، ويرى أنه في الآخرة

أعلى منهم ، وليس هذا بعالم حقيقة ، لأن العلم هو الذي يعرف الأنسان نفسه ، ويعلمه حجة الله تعالى عليه ، فيزيده خوفاً . وقد يتكبر العابد بعبادته ، وربما احتقر الناس .

وقد يتكبر صاحب النسب بنسبه ، وينسى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) الحجرات : ١٣ . وقد يتكبر الغني ، ولو عرف آفة الغنى وشرف الفقر لم يفعل .

واعلم أن من أسباب الكبر ؛ العجب . فإن من أعجب بشيء تكبر به . وهو من المهلكات ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوىً متّبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

فمن أعجب بعلمه ، استعظمه ، فكأنه يمنّ على الخالق بطاعته ، وربما ظن أنها قد جعلت له عند الله موضعاً ، ومن أعجب بعلمه ، منعه عجبه من ازدياد . ولهذا قالوا : عجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله .

وقد يظهر الكبر في شمائل الرجل ، كصَعَر في وجهه ، وجلوسه متعاظماً ، ويظهر في مشيته وتبخترِه ، وحبه قيام الناس له وتعظيمهم إياه ، ومشيهم خلفه .

ومن خصاله أنه لا يزور أحداً ، ويأنف من جلوس فقير إلى جانبه ، ولا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته . ودواء الكبر ؛ أن يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، فحينئذ يعرف ذل نفسه ، وعظمة خالقه ، فإنه مخلوق من علقة ، معرض نفسه للجزاء بأعماله ، ولا يصلح التعظيم إلا للخالق ، ثم يتكلف التواضع ، فقد كان رسول الله ﷺ يأكل على الأرض ، ويجيب دعوة المملوك ، ويرقع ثوبه ، ويخصِف نعله . قال الحسن : التواضع : أن تخرج من منزلك فلا تلقى مسلماً ، إلا رأيت له فضلاً عليك .

وقال أبو بكر ابن عبد الله : إذا رأيتَ من هو أكبر منك ، فقل : سبقني إلى الإيمان والعمل الصالح ، فهو خير مني ، وإذا رأيت من هو أصغر منك ، فقل : سبقته إلى الذنوب ، فهو خير مني ، وإذا رأيت إخوانك يعظمونك ، ويصفونك ، فقل : هذا فضل أحدثوه ، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل : هذا ذنب أحدثته .

روي عن الجلد بن أيوب قال : كان عابد في بني إسرائيل في صومعته ، عبدَ الله تعالى ستين سنة ، وإنه أُتي في منامه فقيل له : إن فلاناً الاسكافي خير منك ، فلما انتبه قال : رؤيا ، ثم سكت . فلما كانت القابلة ، رأى مثل ذلك في منامه ، فلم يزل يرى ذلك في منامه مراراً ، حتى تبيّن له أنه أمر ، فنزل من صومعته ، فأتى الإسكافَ ، فلما رآه الاسكافُ قام عن عمله وتلقاه ، وجعل يتمسح به ، فقال : ما أنزلك من صومعتك ؟ فقال : أنت أنزلتني ، أَخبرني ما عملك ؟ فكأنه كره أن يخبره ، ثم قال : أجل ، أعمل النهار فأكتسب ، فما رزق الله من شيء أتصدق بنصفه ، وآكل مع عيالي النصف الآخر ، وأصوم النهار ، فانطلق من عنده . فقيل للراهب : سله مم صفرة وجهه ؟ فأتاه فقال : مم صفرة وجهك ؟ فقال : إني رجل لا يكاد يرفع إلي أحد إلا ظننت أنه في الجنة وأنا في النار . قال : وإنما فضِّل على الراهب بازرائه على نفسه .

من عرف بداية وجوده ، لم يتكبر . وكيف وعن قليل يموت ويقبر ؟! ثم يقوم إلى المحشر ، وقد تبرأ منه المعشر .

يا أيها الناظر في عطفه	هل لك من ينظر في القبر ؟
حتى تراه وترى حاله	ثم ترى رأيك في الكبر

ماوجه الكبر ؟! يا مخلوقاً من أمشاج ، أما أصلك ماء منتن رجراج ؟! أما قلبت في أنجاس بين أدراج ؟! أما خرجت إلى الدنيا وأنت إلى القوت محتاج ؟ أما الأقذار حشو جسمك والدماء في الأوداج ؟ يامتناولاً ثمر السلامة وما أدى قدر الخراج ، يامنصوحاً وهو على الخلاف واللجاج ، يامدعواً إلى عذب النجاة وهو يختار من الهلاك الأجاج ، ياماشياً في ظلمة الهوى قد أطفىء السراج ، يامن قد قرب رحيله انتظر صيحة الإزعاج ، ستدخل في فجّ من الهم لايشبه الفجاج ، وستسكن لحداً ضيقاً بعد القصور والأبراج ، وستحضر يوم الحساب وقد ثار من الغبار عجاج ، وستعدم الأعذار يوم السؤال والاحتجاج ،

يامن لو كانت له أنفة لثار عزمه في الخير وهاج ،ويحك عاتب نفسك على تقصيرها ،وصور لها حالها في مصيرها ، إنها لمهر لابد له من رياضة ، على أنه قد أتعب الراضة .

سبحان من ركب طبعها على حب الشهوات ، وسجنها في سجن حبس المشتهيات ، فهي تميل إلى مناها وإن أداها إلى المهالك ، لما وضع في طبعها من حب ذلك ، وتنهمك على تحصيل غرضها ، وإن أعقبها طول مرضها ، وينسيها عاجل مايسر" آجل مايضر" .ثم إنه لما وضعها على هذه الأحوال وألفها ،خالفها بمخالفة طبعها وكلّفها ، وبين لها طريق الهدى وعرّفها ،ولطف بها في أحوالها وتألفها ، وذكرها من نعمه عليها ماسلفها ، وحذرها من الزلل وخوفها ، وضمن لها أنها إن جاهدت أَسعفها ، وإن صبرت على فوات أغراضها أخلفها ، وما وعدها شيئاً قط فأخلفها ، وأعلمها أن (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) ، البقرة : ٢٨٦ . فلهذا أنصفها . هذا وهي لاتترك هواها ، ولا تتزود لأخراها ، ولا تعتبر بمن سبقها الى القبور وما كفاها ، قد اطمأنت بالإقامة ،والمنادي قد ناداها ، ولا هي تستعد للرحيل وقد علمت أنه قد بقي القليل ،ولا ينذرها سلب الرفيق والخليل ، وخطاها كثيرة وماتعتذر وما تستقيل ، ويحك لمها وقل لها تترك هوى قد أضلها ، وتعتد للسفر فقد أظلها ، وتحارب عدواً يقصد قتلها ، فكم أهلك مثلها قبلها .

يانفس مالك دون الله من واقي	وما على حدثان الدهر من باقي
يانفس إني وإن أشفقت من أجلي	لم يغن من أجلي جدي وإشفاقي
إن المنايا إذا ما حان موقعها	لم ينفع المرء منها رقية الراقي

فصل

في قوله تعالى : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) .

لما ذكر هلاك الأمم المكذبة كقوم نوح وعاد وثمود ، وكيف أُخذوا بالعذاب ، قال : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) فوصفها بالظلم . والمراد : أهلها ، (إن أخذه أليم شديد) هود : ١٠٢ .

(إن في ذلك لآية) يعني ماذكر من عذاب الأمم ، لآية ، أي : لعبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة ،ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) هود: ١٠٣. لأن الخلق يحشرون فيه ، ويشهدها البر والفاجر ، وأهل السماء وأهل الأرض (وما نؤخره إلا لأجل معدود) هود : ١٠٤ . أي : لوقت معلوم لايعلمه إلا الله تعالى ، يوم يأتي ذلك اليوم . (لاتكلم نفس إلا بإذنه) هود : ١٠٥ . أي : بإذن الله عز وجل . فالخلائق ساكتون إلا من أذن الله له في الكلام ، (فمنهم شقي وسعيد) .

أين النفوس التي كانت في طلب المعاصي هائمة ؟ أقعدتها محن البلايا بعد أن كانت قائمة ، أين عاد وثمود ، أين الأمم السالفة المتقادمة ؟ بيناهم في خطاياهم إذا بلاياهم قادمة ، هجموا على المخالفات فإذا الآفات هاجمة ، أخذوا على ذنوبهم وأسروا بعيوبهم المتراكمة ، ذهب الفرح وجاء الترح ، فإذا النفوس واجمة ، أصبحت دموعهم إذ تفرقت جموعهم ساجمة ، ضاع تدبير آرائهم ، ولقد كانت حازمة ، ما أجود فكرهم لو كانت على الرشد عازمة ، رموا في اللحود فإذا القبائح والضرائح متلازمة ، يالأحزانهم ماأشدها ولغمومهم المتزاحمة ، ماتلمحوا قط عاقبة ولا خافوا من خاتمة ، انتبهت وقد فات الوقت ، قلوب نائمة ، طلبت زاداً للطريق فأصبحت عادمة ، سلمهم المالك إلى مالك ، فإذا الوجوه ساهمة ، ثم احترقت أَجسادهم وقد كانت ناعمة ، مزقتهم ألسن عقاب باتت بالعتاب لائمة ، يسحبون إلى الحميم كما تسحب السائمة .

إخواني : اغتنموا زمان السلامة فما نفس سالمة ، (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) (إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) إن في قصر القياصرة ،

وكسر الاكاسرة ، وتخريب الديار العامرة ، دليلاً على الدار الآخرة ، لابد أن تصبح هذه السماء مائرة ، والجبال سائرة ، والنجوم متناثرة ، وصحائف الأعمال متطايرة ، فأهل الجنة في عيشة ناضرة ، عيونهم إلى ربهم ناظرة ، عليهم سحب اللذات ماطرة ، وديارهم بريح الفوز عاطرة ، وأرواحهم بالخلود الدائم متباشرة ، هذا وأقدام العصاة على الصراط عاثرة ، والنار عليهم غضبى زافرة ، فكم بين الفريقين يا أهل القلوب الحاضرة (إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) .

إخواني : بين أيديكم الموت وليس بمردود ، والرحيل إلى القبور واللحود ، ثم تخرجون وحوض الندم مورود ، وينصب ميزان العدل ويرد بهرج النقود ، فحينئذ يتمنى الموجود عدم الوجود ، ويبكي العاصي على فوات المقصود ، وتصبح وجوه المذنبين كالليالي السود ، ويقرّر الخاطىء ولا وجه للجحود ، فإن جحد فالجلود عليه شهود ، يتمنى العود وهيهات يبس العود ، ويقول : (رب ارجعون) المؤمنون : ٩٩ . وباب الرجوع مسدود ، وما ينتفع العاصي بقوله : ما أعود ، أسمعتم يا ناقضي العهود ؟ (ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود) (يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد) هود : ١٠٥ . يجمع الخلائق كلهم في صعيد ، وينادون فيسمع القريب والبعيد ، ويلين لذلك الهول الصلد الشديد ، وينطق الكتاب بما جرى لا ينقص ولا يزيد ، وترى الأبدان من الهول ترتعد وتميد ، (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) الحج : ٢ . تحمل العصاة إلى نار مقامعها حديد ، ولهم فيها كل يوم عذاب جديد ، كلٌّ محبوس وحده فريد ، ممنوع مما يشتهي ويريد ، يرجون العفو والعفو منهم بعيد ، قد خرس لسان العاصي لا يبدىء ولا يعيد ، هذا وأقوام في راحة وفي عيد ، حكم نفذ في الخلق حكم به المبدىء المعيد (فمنهم شقي وسعيد) .

اللهم انظمنا في سلك أهل السعادة ، واجعلنا من المحسنين الذين لهم الحسنى وزيادة ، ولا تؤاخذنا يا مولانا بذنوبنا ، ولا تطردنا بعيوبنا ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين ، آمين .

المجلس الثامن والستون

في ذم الأمل

الحمدلله عالم الأسرار المكنونة ، ومخرج البذور المدفونة ، أمر بالجدوضمن المؤونة ، ونبه على عيب الدنيا فافتضحت الخؤونة ، كلماته مسموعة في الصحف مصونة ، احـذر طريق البدع فإنها مسبعة غير مأمونة ، هذه أمانة أديتها كانت عنـدي مخزونة (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) آل عمران : ١٨٧ .

فسبحان من أنشأ الإنسان وخلقه ، وأنعم عليه ورزقه ، وألهمه الهدى ووفقـه ، وأخرجه بالتقى من أسر الهوى وأعتقه ، علم مافي كل شجرة من ورقـة ، وسمع تطريب الحمامة المطوقة . وقوّم أعضاء الآدمي فتناسبت متسقة ، واختط الأنف ونور الحدقة .

أحمده وتوفيقه عليّ صدقة ، وأقر بوحدانيته إقرار من صدّقه ، وأُصلي على رسوله محمد ذي الرأفة والشفقة ، صلى الله عليه وعلى أبي بكر الذي صاحبه في الغار ووافقه . وعلى عمر الذي كسر كسرى وخنقه ، وعلى عثمان الذي أخرج المال وأنفقه ، وعلى علي الذي بحار علومه مغدقة ، وعلى سائر آله وأصحابه ما انهلت السحب المتدفقة ، وسلم تسليماً .

قد ورد في ذم الأمل أحاديث كثيرة منها مافي « الصحيحين » عن أَنس رضي الله عنه ، أَن النبي ﷺ قال : « يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان : الحرص ، وطول الأمل » .

وفي مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « قلب الشيخ شاب على حب اثنتين : طول الحياة ، وحب المال » .

وقد أمر رسول الله ﷺ بتقصير الأمل فقـال لابن عمر رضي الله عنه : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعدّ نفسك في أهـل القبور » . وقال : « صل صلاة دموع » .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: اشترى اسامة بن زيد وليدة بمائة دينار الى شهر ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا تعجبون من أسامة المشتري الى شهر ، إن أسامة لطويل الأمل ، والذي نفسي بيده ، ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفريّ لا يلتقيان حتى أقبض ، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى أقبض ، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت » . ثم قال : « يا بني آدم ، إن كنتم تعقلون ، فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذي نفسي بيده ، (إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين)الأنعام : ١٣٤ .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن أشد ما أتخوّف عليكم خصلتين : اتباع الهوى ، وطول الأمل » .

وقد كان السلف يضجون من طول الأمل ، ويتواصون بتقصيره ، فقد قال أبو عثمان النهديّ : قد بلغت ثلاثين ومائة سنة ، وما من شيء إلا وقد عرفت فيه النقصان إلا أملي ، فإنه كما هو . وقال داود الطائي : لو أملت أن أعيش شهراً ، لرأيتني قد أتيت عظيما ، وكيف أؤمل وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار . وقال الفضيل : إن الشقاء من طول الأمل . وقال الحسن : ما أطال عبد الأمل إلا نسّأ العمل .

وكانت امرأة متعبدة إذا أمست قالت : يا نفس ، الليلة ليلتك ، لا ليلة لك غيرها . فاجتهدت ، فإذا أصبحت قالت : يا نفس اليوم يومك ، لا يوم لك غيره ، فاجتهدت .

وقال سفيان الثوري : رأيت شيخاً في مسجد الكوفة يقول : أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة ، انتظر الموت أن ينزل بي ، لو أتاني ، ما أمرت بشيء ، ولا نهيت عن شيء ، ولا لي على أحد شيء ، ولا لأحد عندي شيء .

وكان عبد الله بن ثعلبة يقول : تضحك ، ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار .

واعلم أن طول الأمل ينشأ من أمرين .

أحدهما : حب الدنيا . والثاني : الجهل .

فأما حب الدنيا ، فإن الإنسان يأنس بها ،فيمنعه حبه إياها أن يتفكر في الرحيل، فإن خطر له ذلك ، وحدثه فكره في الحاجة إلى التزود ،سوّف بالعمل،فلا يزال كذلك حتى يختطفه الموت .

وأما الجهل ؛ فإن الشاب قد يستبعد الموت بطراوة السن ، وصحة المزاج .

فأما علاج حب الدنيا ؛ فإنه يتدبر مضارها ،لأن حلالها حساب ، وحرامها عقاب، وإنها تمنع خير الدار الباقية ، ثم يوقن بفراقها ، ولا يحسن أن يؤلف مفارق .

وأما علاج الجهل ؛ فإنه يتفكر بقلب حاضر ، فيعلم أن وجود الموت لا يقف على سن دون سن ، فيأخذ بالحزم ، ويرفض الغرور .

وقال بعض السلف :

يعمّر واحدٌ فيغر قوماً ويُنسى من يموت من الشباب

كان عون بن عبد الله يقول : ما أنزل الموت منزلته ، من عدّ غـداً من أجله . كم مستقبل يوما لا يستكمله ، وكم مؤمل لغد لا يدركه ، إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره.

وفصل الخطاب أن نقول : العاقل يأخذ بالحزم ويعمل على الأحوط . ومن حتفه بيد غيره،فبناؤه على الأمل وركونه إلى الظن، ازراء بموهبة العقل .

فينبغي للمتيقظ أن يغتنم الصحة والقدرة على البدار قبل أن يبغت الفاجع ، وليس ما مضى براجع .

وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : « اغتنم خمساً قبل خمسٍ : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

كان يزيد الرقاشي يقول: الى متى تقول :غداً أفعل كذا ، وبعدغدٍ أفعل كذا؟! أغفلت سفرك البعيد ،ونسيت ملك الموت ؟ أما علمت أن دون غدٍ ليلة تخترم فيها أنفس؟

أما علمت أن ملك الموت غير منتظر بك أملك الطويل ؟ أما رأيت صريعاً بين أحبابه لايقدر على جوابهم ؟

وكان شميط يقول : أيها المغترّ بصحته ، أما رأيت ميتاً من غير سقم ؟ أيها المغتر بطول المهلة ، أما رأيت مأخوذاً من غير علة ؟

طالت آمالكم فجددتم منازلكم ، كأنكم للدنيا خلقتم ، إنما هي ثلاثة أيام : فقد مضى أمس بما فيه ،وغداً أمل لعلك لا تدركه ، ودون غدٍ يوم وليلة تخترم فيها أنفس كثيرة لعلك مخترم فيها .

كفى كل يوم همه ، ثم قد حملت على قلبك الضعيف همّ السنين والأزمنة ، وهمّ الغلاء والرخص ،وهمّ الشتاء قبل أن يجيء ، وهمّ الصيف قبل أن يأتي ،فماذا أبقيت لقلبك الضعيف لآخرته ، كل يوم ينقص من أجلك وأنت لا تحزن ، العجب لمن يصدق بدار الحيوان ،وهو يسعى لدار الغرور .

وكان الربيع بن عبد الرحمن يقول: قطعتنا غفلة الآمال عن مبادرة الآجال ، فنحن في الدنيا حيارى لا ننتبه من رقدة إلا أعقبتنا في إثرها غفلة ، فهل رأيتم عاقلاً رضي من حاله بمثل هذا ؟

وكان الأوزاعي يقول : بادر فقد أُتيت من كل جانب ، ولا تجعل بقية عمرك للدنيا ، حسبك ما بلغك منها ، وأنت في سفر الموت ، يسرع بك نائماً ويقظان ، واذكر سهر أهل النار في النار .

عمر ينقضي وذنبٌ يزيد ورقيب محصٍ عليّ شهيد
واقتراب على الحمام وتأميـل لطول البقاء غضّ جديد
أنا لاهٍ وللمنية حتم حيث يممت منهل مورود
كل يومٍ يموت مـنيَ جزء وحياتي تنفسٌ معدود
كم أخ قد رزئته فهو إن أضحى قريب المحل مني بعيد
هل لنفسي بواعظات الجديديـن ازدجار عن منزل سيبيد

يامشغولاً بجمع أذهابه عن ذهابه ، يامغتراً قد سرى به لمع سرابه ، يالاهيا عن جراح الموت بشبابه ، وقد علق الشَّبَا بهِ ، ياناسياً رحيله عن جنابه بما نى به ، يا عامرا قصره ومحرابه أحرى به ، كم ناداك الوعظ وما تسمع ، كم أعطاك مولاك ولا تقنع ، لقد استقرضك مالك فمالك تجمع ، وضمن لك أن ينبت الحبة سبعمائة وما تزرع .

يا حريصاً حرصه قد أهلكه ، كم جامعٍ مانع تَرَكه ترِكة ، أصبحت أيدي أعاديه فيه مشتركة ، أخرجه والله مِلكه عما ملكه ، فاقنع باليسير فكم هذه الحركة .

أنس الناس بالغير	وتعاموا عن العِبر
يا ضجيع البلى على	فرش الصخر والمدر
ثم قد صرت أعظماً	في حفيرٍ من الحفر
وتزودت مأثماً	وإلى ربك السفر

يا من كل يوم عمره في قصر ، وسفره طويل والزاد مختصر ، من لك إذا اشتد الهول وبرقَ البصر ، وهرب منك من أعانك ونصر ، وسئلت فعدمت الجواب واشتد الحصر ، ونشرت صحيفتك وهي كثيرة الهذر ، وظهر قبيحك ، فإذا لم تبق ولم تذر ، فيا زارع التفريط سيحصد الزارع ما بذر .

يأمل المرء أبعد الآمال	وهو رهن بأقرب الآجال
لو رأى المرء رأي عينيه يوماً	كيف صول الآجال بالآمال
لتناهى وقصّر الخطو في اللهو	ولم يغـتـرر بدار الزوال
نحن نلهو ونحن تحصى علينا	حركات الإدبار والإقبال
نحن أهل اليقين بالموت والبعث	وعرضِ الأقوال والأعمال
ثم لا نرعوي وقد أعذر الله	بطول البقاء والإهمال
أي شيء تركت يا عارفاً بالله	للمترفين والجهال

فصل

في قوله تعالى : (إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة) المعنى : أن الحياة في هذه الدنيا لعب ولهو ، أي: غرور وينقضي عما قليل .

(وتفاخرٌ بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد) وهذه صفة من طلب الدنيا لا للدّين (كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج) أي : ييبس ، فتراه مصفرا بعد خضرته وريّه (ثم يكون حطاماً) أي : يتحطم ويتكسر بعد يبسه .

فهذه صفة الدنيا بينا نضيرها يسّر إذ هلك ، وبينا مالكها قد عز ، اخرج مماملك ، وفي الآخرة عذاب شديد لاعداء الله ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) الحديد : ٢٠. الدنيا تشبه خيالات المنام ، وأضغاث الأحلام .

قال يونس بن عبيد : ما شبهت الدنيا الا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب ، ثم انتبه .

وعن المستورد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة الا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليمّ ، فلينظر بم ترجع » وأشار بالسبابة .

وعنه أيضاً قال : كنت في ركب مع رسول الله ﷺ إذ مر بسخلة ميتة منبوذة، فقال رسول الله ﷺ : « أترون هذه هانت على أهلها ؟ فقالوا : يا رسول الله ،من هوانها ألقوها ، قال : فوالذي نفس محمد بيده للدنيا أهون على الله عز وجل من هذه على أهلها » .

وعن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « ان الله عز وجل يحمي عبده المؤمن الدنياوهويحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب ، تخافون عليه » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما اهبط آدم عقوبة، فاحذرها، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، فكن فيها كالمداوي جراحه، يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، فاحذر الدار الغرارة التي قد تزينت بخدعها، وفتنت بغرورها، فالقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لكل أزواجها قاتلة، فلا الباقي بالماضي يعتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر.

وروي أن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: أفكلهم مات عنك؟ أو كلهم طلّقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بالماضين.

سلِ الأجداث عن صور بلينا وعن خلق نعمن فصرن طينا
وعن ملك تعزز بالأماني وكان يظن أن سيعيش حينا
لقد أبت القبور على شفيق أباها أن تفك له رهينا
هي الدنيا تفرّق كل جمع وإن ألف القرين بها القرينا

لقد سقت الدنيا أربابها سماً، وأبدلتهم من أفراحهم بها هما، وأثابتهم عن مدحهم لها ذماً، وقطعت أكبادهم فماتوا عليها غما، فيا مشغولاً بها توقع خطبا ملما، إياك والأمل فإن الأمل إما وإما، بينا هي للمالك مثل الأمة، طمست بصيرته فبقي في حسرة قد عمّه العمه، فبات وأسباب هلاكه محكمة، أعشاه الهوى فما يقرأ من عبرة ترجمة. قل لنفسك التي أمست بها مغرمة: كم نادمت نادماً ألهته بالمنادمة؟ حتى سفكت بالمنى دمه، لقد أسمعتك بسلب رفيقك الزمزمة، إياك وإياها فكم لها ملحمة، إن البعد للعاقل عن دار المكر مكرمة.

أيا لمنزل الفاني تؤمل أن تبقى كفاك بما ترجو وتأمله حرقا
رأيت قوى الدنيا يزيد تناقصاً ويدعو إليه صفو لذاتها الرنقا

وفي كل يوم محدث لك فرقة ترى خطبها خطباً جليلاً وإن دقا

لعمرك ما الدنيا بباقيـــة ولا بها أحد يبقى فيطمع أن يبقى

كم قتلت الدنيا أحبابها ، كم ختلت بالمرء خطابها ، غادرت محبها لقىً صريعا ، وضربته بسوط الفراق ضرباً وجيعاً ، وأعدمته ما ملكه جميعا. بينا هو نحو لذاتها يميل ، أصبح ملقىً بين أهله كالذليل ، يندم على التفريط والدمع يسيل ، ويبـكي زمناً مضى بالتسويف والتعليل ، فاعتبر بالراحلين قبل الرحيل ، واغتنم أيامك فقد بقي القليل .

يا خاطب الدنيا إلى نفسها إن لها في كل يوم خليل

ستنكح البعل وقد وطنت في موضع آخر منه بديل

ما أقتل الدنيا لخطـــابها تقتلهم قدمـاً قتيلاً قتيل

تزودوا للموت زاداً فقـد نادى مناديه الرحيل الرحيل

عباد الله ، تدبروا عيوب الدنيا ودعوها ، وأيقنوا بقرب فراقهـــا فودعوها ، وأجمعوا على تركها فلا تجمعوها ، وبالغوا في نقضها فضعضعوها ، وضعوها فإنها لمكرمهـا مُهينة مَهينة (لعب ولهو وزينة) .

كم وعظت فأفصحت ، وكم عرّضت وصرحت ، كم أحزنت بعد أن أفرحت ، وأضحكت سناً ثم أبكت عيناً فأقرحت . والعجب لاغـــترار نفس مسكينة (لعب ولهو وزينة) .

زخرفها مصقول ، مقيمها منقول ، محبها مقتول ، ليس للهائم بها معقول ، إنها لتقر بالمكر وتقول ، ولكن أين العقول الرزينة (لعب ولهو وزينة) .

تأمل فعلها بمن شادها ، أنظر آخرها عند من استفادها ، تفـكر كيف أفلتت وقتلت صيادها ، ألا من أحبها وأرادها ، فليبـع أولاً دينه (لعب ولهو وزينة) .

متى سلمت لطالب ، متى نجت براكب ، متى خلت من معائب ، مرّها صادق ، وحلوها كاذب ، جبلت على الفساد في أصل الطينة (لعب ولهو وزينة) .

قال زيد بن أرقم : استسقى أبو بكر رضي الله عنه يوماً مـاء فأُتي بإناء فيه ماء وعسل ،فلما أدناه من فيه ، بكى وأبكى من حوله ،ثم أفاق فقالوا : ماهاجك على البكاء؟ فقال : كنت مع رسول الله ﷺ فجعل يدفع عنه شيئاً : إليك عني ،إليك عني ،ولم أر معه أحداً ، فقلت : يارسول الله : أراك تدفع عنك شيئاً ولا أرى معك أحداً ، فقال :هذه الدنيا مثلت لي بما فيها ، فقلت : إليك عني ، فتنحت وقالت : أما والله لئن انفلتّ مني لاينفلت مني من بعدك ، فخشيت أن تكون قد لحقتني .

وعن الحسن رحمه الله تعالى قال : بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ، حتى لم يدروا ماسلكوا منها أكثر، أو مابقي أكثر . نفد الزاد وحسر الظهر ،وبقوا بين ظهراني المفازة لازاد ولا حمولة ، وأيقنوا بالهلكة . فبيناهم كذلك إذ خرج عليهم رجل يقطر رأسه فقالوا : إن هذا لقريب عهد بريف ، وما جاءكم هذا إلا من قريب ، قال : فلما انتهى إليهم قال : ياهؤلاء على ما أنتم ؟ قالوا : على ماترى ، قال : أرأيتم أن هديتكم إلى ماء ورياض خضر ماتعملون ، قالوا : لانعصيك شيئاً ، قال : عهودكم ومواثيقكم بالله ، فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لايعصونه شيئاً ، قال : فأوردهم ماءورياضاً خضراً ، قال : فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال : ياهؤلاء . الرحيل فقالوا : إلى أين ؟ قال : إلى مـاء ليس كمائكم ، ورياض ليست كرياضكم، قال : فقال جل القوم وهو أكثرهم : والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أنا لن نجده ، وما نصنع بعيش خير من هذا ؟ قال : وقالت طائفة وهم أقلهم : ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لاتعصونه شيئاً وقد صدقكم في أول حديثه ، فوالله ليصدقنكم في آخره، قال: فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم ،فبدر بهم عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل » .

عجب أعجب من ذي بصر — يأمن الدنيا وقد أبصرها

إن للمرء قريباً صرعة — ينبغي للمرء أن يحذرها

كم قرون حَضَرٌ تهاقدمضت — ونسينا بعدها محضرها

صور كانت أناساً مثلنا ثم أفناها الذي صورها

إنما الدنيا كفيء زائل نحمد الله كذا قدرها

وهي الدنيا إذا ما أدبرت صيرت معروفها منكرها

لقد وعظتك الدهور ، بمرور الأيام والشهور ، ورأيت الحزن عقيب السرور ، وعلمت أن الزمان بأهله عثور ، وتيقنت أن آخر الأمر القبور ، وستخرج من القصور على القصور ، فإلام هذا التكاسل والفتور؟! كم خسفت في الأرض بدور ، وكم خلت من أهاليها دور ، أعميت العيون أم هي عور؟ (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) الحج :٤٦ . احذر من الدنيا فإن حسن الدنيا زور ، إنها لتودع من أول ما تزور ، إنما هي قنطرة للعبور ، (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) الحديد: ٢٠ .

اللهم اسلك بنا سبيل السلامة ، ووفقنا للطاعة والاستقامة ، وعافنا من موجبات الحسرة والندامة ، وآمنا من أفزاع يوم القيامة ، ومتعنا بالنظر إلى وجهك الكريم في دار المقامة ، واغفر لنا ولوالدينا ، ولجميع المسلمين ، الأحياء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس التاسع والستون

في ذكر مكائد الشيطان

الحمد لله الذي أعان بفضله الأقدام السالكة ، وأنقذ برحمته النفوس الهالكة ، حذر من إبليس ولم يجعل له سلطاناً على العصبة الناسكة ، كم بينك وبينهم يامن نفسه على الدنيا متهالكة ، وكيف تسكن إليها ونوق الرحيل باركة ، سعد من رأى الدنيا فتبصر ، ورضي بوصف أشعث أغبر ، وأقبلت عليه بزخرفها فأدبر (لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة) الأنبياء : ١٠٣ .

أحمده على الأمور اللذيذة والشائكة ، وأقر بوحدانيته إقرار عبد يعرف مالكه ، وأصلي على رسوله محمد صلى الله عليه ،صلوات متداركة، وعلى صاحبه أبي بكر الذي تختوص عليه الرافضة الآفكة ، وعلى عمر الذي كانت نفسه لنفسه مالكة ، وعلى عثمان منفق الأموال المتداركة ، وعلى علي مجلي الكروب المظلمة الحالكة ، وعلى سائر آله وأصحابه المتقي كل منهم ربه ومالكه ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل : (وقال الشيطان لما قضي الأمر) الشيطان : اسم لكل متمرد من الجن والإنس والدواب . قال المفسرون : المراد بالشيطان ههنا إبليس . (لما قضي الأمر) أي : فرغ منه ، فدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . فحينئذ يجتمع أهل النار باللوم على إبليس ، فيقوم فيها بينهم خطيباً ويقول : (إن الله وعدكم وعد الحق) أي : وعدكم كون هذا اليوم فصدقكم ، ووعدتكم أنه لايكون فأخلفتكم الوعد ، (وما كان لي عليكم من سلطان) أي : ما أظهرت لكم حجة على ما ادعيت ولا أكرهتكم ، (إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) حين أجبتموني من غير

برهان ، (ما أنا بمصرخكم) أي : بمغيثكم ، (وما أنتم بمصرخيّ) أي : بمغيثيّ (إني كفرت بما أشركتمونِ) ابراهيم : ٢٢ . أي : بإشراككم إياي في الدنيا مع الله في الطاعة .

إخواني : من علم بمكائد الشيطان ، وجب عليه الاحتراز ، فليظاهر بين الدروع ، فإن العدو بصير بالرمي .

وفي « الصحيحين » من حديث صفية بنت حيي رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ قال: « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة ، أعظمهم فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول: ماصنعت شيئاً. قال : ويجيء أحدهم فيقول : ماتركته حتى فرقت بينه وبين أهله ، قال : فيدنيه منه -أو قال: فيلتزمه - ويقول : نعم أنت » رواه مسلم.

وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن إبليس تبدّى ليحيى بن زكريا عليهما السلام فقال : إني أريد أن أنصحك ،قال : كذبت لاتنصحني ، ولكن أخبرني عن بني آدم ، قال: هم عندنا على ثلاثة أصناف .

أما صنف منهم :فهم أشد الأصناف علينا ، نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونستمكن منه ، ثم يفزع إلى الاستغفار والتوبة ، فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه ، ثم نعود له فيعود ، فلا نحن نيأس منه ، ولا نحن ندرك منه حاجتنا ، فنحن من ذلك في عناء .

وأما الصنف الآخر : فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم ، نتلقفهم كيف شئنا ، قد كفونا أنفسهم .

وأما الصنف الثالث : فهم مثلك معصومون لانقدر منهم على شيء . قال يحيى : هل قدرت مني على شيء ؟ قال : لا ،إلا مرة واحدة ، فإنك قدمت طعاماً تأكل ، فلم أزل أشهّيه إليك حتى أكلت منه أكثر مما تريد ، فنمت تلك الليلة ، فلم تقم إلى الصلاة كما

كنت تقوم إليها . فقال له يحيى : لاجرم لاشبعت من طعام أبداً ، قال له الخبيث : لاجرم لانصحت آدمياً بعدك أبداً . .

قال ابن عمر : لما ركب نوح السفينة ، رأى شخصاً لايعرفه ، قال : ما أدخلك ؟ قال : دخلت لأصيب قلوب أصحابك ، قال : اخرج ياعدو الله ، قال إبليس : خمس أهلك بهن الناس ، سأحدثك بثلاث منهن ، ولاأخبرك باثنتين .

فأوحى الله تعالى الى نوح : إنه لاحاجة لك إلى الثلاث ، مره يحدثك بالثنتين ، قال : بهما أهلك الناس وهما يكذباني : الحسد ، وبالحسد لعنت وجعلت شيطاناً رجيماً . والحرص ، أبيح آدم الجنة كلها ، فأصبت حاجتي منه بالحرص .

وقال عبد الرحمن بن زياد : لقي إبليس موسى . فقال له موسى : ما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه ؟ قال : إذا أعجبته نفسه ، واستكثر عمله ، ونسي ذنوبه وأحذرك ثلاثاً : لاتخل بامرأة لاتحل لك فإنه ماخلا رجل بامرأة لاتحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها . ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به ، فإنه ما عاهد الله أحد عهداً إلا كنت صاحبه دون أصحابي ، حتى أحول بينه وبين الوفاء به ، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها ، فإنه ما أخرج رجل صدقة لم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي ، حتى أحول بينه وبين الوفاء بها . ثم ولى وهو يقول : ويله ثلاثاً . علم موسى مايحذّر به بني آدم .

واعلم أن من أراد محاربة الشيطان ، فليبعد عن الأسباب المقربة إلى المعاصي ، كالخلوة بالأجنبية ، ومخالطة من لايصلح من الناس ، وإطلاق البصر ، وليجاهده في كل شيء .

قال قيس بن الحجاج : قال لي شيطاني : دخلت فيك وأنا مثل الجذور ، وأنا فيك اليوم مثل العصفور . قلت : ولم ؟ قال : تذيبني بكتاب الله .

فاحذروا إخواني من شيطانكم ، واستعينوا عليه بديّانكم ، فإنما يسعى في تخسير ميزانكم ، ويدأب دائماً في حصول هوانكم ، إن ماجرى له مع أبيكم في العبرة يكفيكم ، فالمحوا خدعه في سيره وسيره ، فالسعيد من وعظ بغيره .

بينما المرء لاهياً إذ آتاه　　　　من يد الموت سالب لايصدّ

خاب من كان همه هذه الدنـ　　　　ـيا فأضحى من نيلها يستمدّ

فجناها إن أسعدت مستعار ... ليس من رده لمن نال بدُّ
كم أدالت من أهلها وأزالت ... ذا جلال من نعمة لاتحدُّ
بدلته من طيب مغناه فقراً ... عادماً ماحوى ولم يغن جدُّ
أين من كان ناعم الوجه أمسى ... ماله في نهاية الحسن ضد
قد محاه ثراه حين حواه ... ووهى معصم و كف وزند
وجفا أنسه أخ كان براً ... وصديق دان وصحب وجند
واستوى في البلى رئيس ومرؤو ... س وأعيا بالأسر حر وعبد

ماهذا السكون إلى دار الدوائر ؟ ماهذا الانحراف إلى حرف جرف هائر ؟ أما تلمحت أبصار البصائر ما إليه الأمر صائر ، كيف آثرتم الرذائل على المفاخر ؟ إن عين اللبيب ترى الآخر . أما أنت راحل عن قريب ، وساكن بيتاً أنت فيه غريب ، فخل مخالة الدنيا وانطق في طلاقها ، واخلع خلع باطلها واعمل في فراقها ؟ وحصل للفناء كفنا من العمل ، واملك سمع ذكر الموت على سمع الأمل ، واتخذ راحلة تشد عليها رحل الرحيل ،و كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ،وتذكر أخلاءها كيف تخلت عنهم ، وتلمح مواصليها كيف انفصلت عنهم ،وأعلم جوارحك بقرب التفرق ، وحدث أعضاءك خبر التمزق ، وابك عليك قبل أن يبكي الغير ، وليكن جل أسفك على حرمان الخير .

يقولون قبل البين عيناك تدمع ... دعوا مقلة تدري غداً من تودّع
ترى بالنوى الأمر الذي لاترونه ... هوى فيقولون الذي ليس تسمع
ودون انصداع الشمل لو يسمعونه ... أنين حصاة القلب منه تصدّع

كانت رابعة تقول لسفيان : إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل . وكانت تبكي حتى بسمع وقع دموعها على البواري ، وكانت إذا ذكرت الموت انتفضت ، وكان موضع سجودها كهيئة المـــاء المستنقع من دموعها ، وكانت تقول : أستغفر الله من قلة صدقي في قولي ، أستغفر الله .
وقيل لها : هل عملت عملاً ترين أنه تُقبل منك ؟ قالت : إن كان فخوفي أن يردّ عليّ .

وكان سفيان يقول : هلموا إلى المأدبة التي لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها ، فدخل عليها يوماً فقال : واحزناه ، فقالت : لا تكذب ، قل : واقلة حزناه ، ولو كنت محزوناً لما أهناك العيش .

وروي عن عبدة بنت سوادٍ وكانت من خيار إماء الله ، تخدم رابعة ، قالت : كانت رابعة تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر ، هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ، وهي ترعد : يا نفس كم تنامين ؟ وإلى كم تقومين ؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور . قالت : فكان هذا دأبها دهرها ، حتى ماتت . فلما حضرتها الوفاة دعتني فقالت : يا عبدة لا تؤذني بموتي أَحداً ، وكفنيني في جبتي هذه ، جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون . قالت : فكفناها في تلك الجبة ، وخمار صوف كانت تلبسه ، قالت عبدة : رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها في منامي ، عليها حلة من إستبرق خضراء ، وخمار من سندس أخضر لم أرَ شيئاً قط أَحسن منه ، فقلت : يا رابعة ما فعلت الجبة التي كفناك فيها والخمار الصوف ؟ قالت : والله نزع عني ، وأبدلت به هذا الذي ترينه عليّ ، وطويت أكفاني ، وختم عليها ، ورفعت في عليين ، ليكمّل بها لي ثوابها يوم القيامة . قالت : فقلت لها : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ؟ فقالت : وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله تعالى لأوليائه . قالت : قلت : فما فعلت عبدة بنت أبي كلاب ؟ فقالت : هيهات هيهات ، سبقتنا والله إلى الدرجات العلى . قلت : وكيف وقد كنت عند الناس أكبر منها ؟ قالت : إنها لم تكن تبالي على أي حال أَصبحت من الدنيا وأمست ، قالت : فقلت : فما فعل أبو مالك ؟ تعني ضيغماً العابد ، قالت : يزور الله عز وجل متى شاء . قلت : فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت : بخٍ بخٍ ، أعطيَ والله فوق ما كان يؤمل ، قلت : فمريني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل . قالت : عليكِ بكثرة ذكره ، يوشك أن تغتبَطي بذلك في قبرك .

أعينيّ هلا تبكيان على عمري ... تناثر عمري من يديّ ولا أدري
إذا كنتُ قد جاوزت خمسين حجة ... ولم أتأهب للمعادِ فما عذري ؟!

فصل

في قوله تعالى : (ولقد جاءهم من الأنباء) أي : من أخبار الأمم المكذبة في القرآن (ما فيه مزدجَر) أي: متعظ ومنتهى (حكمة بالغة فما تغني النذر) .

قال المفسرون : المراد به ، قد جاءهم القرآن وهو حكمة تامة ، قد بلغت الغاية ، فما تغني النذر إذا لم يؤمنوا (فتولّ عنهم يوم يدع الداع) وهو إسرافيل عليه السلام (الى شيء نكر)أي: منكر تنكره النفوس لشدته ، وهو الحساب (خشّعاً أبصارهم) .

قال المفسرون : المعنى : أن أبصارهم ذليلة خاشعة عند رؤية العذاب (يخرجون من الأجداث) أي : القبور (كأنهم جراد منتشر) لأن الجراد لا جهة له يقصدها ،فهو أبداً يختلف بعضه في بعض، فهم يخرجون فزعين ليس لأحد منهم جهة يقصدها (مهطعين إلى الداع) مسرعين إليه (يقول الكافرون هذا يوم عَسِر) القمر : ٤ ـ ٨ . أي : صعب بعد عنهم جمعهم وأنصارهم ، وثقلت على ظهورهم أوزارهم ، فلو رأيتهم وقد أجدب بمتارهم (خشعاً أبصارهم) امتنع بدخول جهنم قرارهم ، وغلّوا وما يخشى فرارهم ، وكلما تصاعدت حسراتهم زفرت نارهم ،يكفيهم بين الخلائق عارهم ، وقد حطت أقدارهم ، وتولتهم أقدارهم ، اعتذروا فلم يسمع اعتذارهم ، لقد فضحتهم والله أسرارهم ، واشتهر إعلانهم وإسرارهم ، وساءت والله أخبارهم ، أين مداحهم؟ أين زوارهم؟ أين نوقهم أين عشارهم ؟ أين عرابهم أين مهارهم ؟ أين جناتهم أين أنهارهم ؟ أين درهمهم أين دينارهم ؟ أين مرجانهم أين أحجارهم ؟ أين غضبهم وأين نفارهم ؟ بالمقامع تضرب أدبارهم ، يكفيهم أن إبليس جارهم ، يخرجون من الأجداث طالما أفسدهم البلى وعاث ، فلو رأيتهم في القبور بعد ثلاث ، وأعظم من ذلك الأعمال الخباث ، ما اكتفى لهم بطول اللباث ، حتى أخرجوا من الأجداث عراة بعد الثياب والأثاث ، شقوا بما جمعوا وفاز الورّاث ، يسحبون عطاشاً والبطون غراث ، يستغيث أحدهم فلا يغاث ، كيف لا وقد غضب

المستغاث ؟ أفئدتهم من الحسرات كأنها تماث ، أسبابهم كلها مقطوعة رثاث ، أما تسمعون هذا يا شيوخ يا أحداث ؟ أما تخافون ما سيطرأ من الأمور والأحداث ، أنائمون أنتم ؟ أنتم والله في أضغاث ، واعجباً لأجسام ذكور وعقول إناث .

قال أحمد بن حرب : لو وصل أهل القبور إلى ما وصلنا ، لم يدخل النار منهم أحد. لو قيل لهم : أمحوا من ذنوبكم ما شئتم ، وزيدوا في حسناتكم ما شئتم ، لمحوا ذنوبهم ، وزادوا في حسناتهم أضعافها .

وقد أعطينا نحن ذلك وما نغتنمه ، يستطيع الرجل أن يهدم خطايا سبعين سنة في ساعة واحدة .

وكتب الحسن البصري الى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ؛ فإن الهول الأعظم ومفظعات الأمور أمامك لم تقطع منها شيئاً بعد ، ولا بدّ والله من معاينتها ، إما بالسلامة ، وإما بالعطب .

ومن تفكر في العِبَر . ونظر في الغِيَر ، علم أن الآدمي يفنى ببقائه ، ويسقم بسلامته ، ويؤتى من مأمنه ، وما اجتمع لأحد أمله إلا أَسرع في تفريقه أجله ، ومن تصور رحيله ، اختار غير اختياره اليوم ، ومن بعدت همته ، لم يرض بدون ، ومن استشعر الحساب ، تنغصت لذته ، ومن أصغى الى هاتف الإنذار ، سمع صوت المؤذن بالرحيل ، ومن زار القبور بفكره ، علم ما ندموا على فعله ، وتأسفوا على فوته ، وتيقن أنه غداً عندهم .

قصّر بدنياك الأمل ... من قبل إدراك الأجل
فلترحلنّ كمثل من ... قد كان قبلك وارتحل
واحذر وقوفك في غدٍ ... عند الحساب من الخجل
وقد اعترفت بما اقترفت من الخطايا والزلل
فإلى متى هذا الفتو ... ر وذا التواني والكسل ؟!

قوله تعالى : (يقول الكافرون هذا يوم عَسِر) .

لو رأيت الفاجر يومئذ قد أسر ، وغلّ بعد الإطلاق وحبس وقسِر ، ولما ربح المتقون خسِر (يقول الكافرون هذا يوم عسر) .

عُرِض على العاصي ما كتب وسطر ، وزال المتجبر البطر ، وودّ لو أنه عاد كما فطِر ، كم من غني يومئذ مفتقر ، كم متكبر قد ذلّ وحقر ، كم متنعم عيشه مزمقر ، كم دمع غزير سائل منهمر ، يبكي بمخالفته ما أمر ، ليته صار نسياً منسياً فما ذكر ، آهٍ لطرف كان ينام بَطِراً قد سهر ، ولمستور على ذنوبه قد شهر ، صحا والله يومئذ من سكر ، وصح فكر من كان لا يفتكر . فيامن بين يديه هذا اليوم انتبه واعتذر ، والبس لباس الخائف ورداء الحذر ، وشمّر في طريق التوبة واجتهد وسر ، واخضع لمولاك فإنه عند القلب المنكسر .

اللهم احمنا من المخالفة والعصيان ، ووفقنا لطاعتك وعافنا من الخذلان ، وتولنا بحسن رعايتك يا كريم يا منان ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين آمين .



المجلس السبعون

في التحذير من الغرور

الحمد لله الذي ألبس المتقين لباس التقوى ، وتولى حفظ ملبسهم ، وآنس العارفين أنساً حلواً ، فاشتغلوا بمؤنسهم ، وكان مع الصابرين لطيفاً فياطيب مجلسهم ، وابتعث محمداً ﷺ بالفصاحة فعادقسهم كأخرسهم ،فعارضه مسيلمة فكان في المعارضة من أبخسهم ، فكادوه وبالغوا فأصبح أبو جهل من أنجسهم ، فرماه كل المعادين على الدين فعادت عليهم أسهم أقوسهم ، فقلب رؤساؤهم في القليب على وجوههم ورؤوسهم ، ولقد كانوا يعرفون أصله ونسبه وأنه من أنفسهم مذ نشأ فيهم ، ويكفيهم (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم) آل عمران : ١٦٤ . فصلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الذي كان في الانقياد من أسلسهم ، وعلى عمر قاهر الأكاسرة على شدة شوسهم ، وعلى عثمان الذي هو من أرفقهم وأكيسهم ، وعلى علي محبوب أهل السنة ومقدسهم ، وعلى سائر آله وأصحابه المجاهدين للكفار ، والماحين لرجسهم ، وسلم تسليماً .

عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قرأ : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) الانعام : ١٢٥ . قيل : فكيف ذلك ؟ قال : « يدخل النور في قلبه ، فينفتح له . قيل: وما علامة ذلك؟ قال : التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » .

واعلم أن القلب إذا استنار بالعلم أبصر طريق الهدى ، وإذا قـل نوره ، تبهرج الأمر عليه ، فاغتر بأمر يظنه صواباً وليس به . فالغرور جهل بالشيء ، وقل أن يغتر

الإنسان إلا بما يميل إليه طبعه ، فيمنعه الهوى عن تلمح الهدى ، فيقف مع شبهة توافق هواه ، فهذا هو الغرور .

والغرور يزيد وينقص ، وأشد الناس غروراً الكفار . وهم على طبقات : فمنهم من غلب الحس عليهم ، فقالوا : (ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) الجاثية : ٢٤ . ومنهم من اعتقد وجود الصانع ، وادعى معه شريكاً جريا على عادة الأسلاف من غير بحث عن دليل . ومنهم من علم صحة دينه قبل النسخ ، فلم يلتفت إلى الناسخ ،وادعى استحالته ، كاليهود . والحاجة تدعو إلى بيان اغترار المسلم ليحذر فلا نطيل بذكر الكفار .

فالمسلمون المغترون طبقات .

الطبقة الأولى : طبقة العلماء ، وهم قوم أحكموا العلم ، وتركوا العمل به ، ظناً منهم أنهم قد حفظوا الشريعة ، فلهم عند الله قدر . ولو حققوا النظر ، لعلموا أن العلم لايراد إلا للعمل ، وكأنهم يريدون منه الحجة عليهم .ومنهم قوم أحكموا العلم والعمل ، إلا أنهم لم يصلحوا الصفات الباطنة المذمومة ، من الكبر والحسد والرياء ، ولم يدروا أن هذه شعل تعمل في بيت القلب ، فتحرق مواطن المعرفة .

ومن العلماء قوم سلموا من هذه الآفات ، لكنهم في خدمة الهوى من حيث لايعلمون ، فهم يصنفون ويتكلمون ، ومرادهم ذكرهم بذلك ومدحهم و كثرة أتباعهم .وهذه الآفة من خبايا النفوس ، لايفطن لها إلا الأكياس .

الطبقة الثانية : طبقة العبّاد .فمنهم من حقق التعبد ، إلا أنه يرى نفسه ،فهو مغرور بذلك . ومنهم من ترك كثيراً من الفرائض شغلاً بالنوافل . ومنهم من يدركه الوسواس في الماء الطاهر ، لايدركه الوسواس في تناول الشبهة على المال . ومنهم من يوسوس في نية الصلاة ، ثم يترك قلبه في باقيها يسرح في الغفلات . ومنهم من يكثر التلاوة ، ولا يعمل بما يتلو . ومنهم من يصوم ولا يتحفظ من غيبته . ومنهم من يخرج إلى الحج ولا يخرج من المظالم ، ولا ينظر في نفقته . ومنهم من يجاور بمكة وينسى

الحرمة . ومنهم من يأمر بالمعروف وينسى نفسه . ومنهم من يزهد في المـــال وهو راغب في الرئاسة بالزهد . ومنهم من يتخلق بأخلاق الفقراء في صور ثيابهم ومرقعاتهم ، ويترك أخلاقهم الباطنة ، فيشبع من الشهوات ، وينام الليل ولا يعرف واجبات الشرع .

الطبقة الثالثة : أرباب الأموال ، فمنهم قوم يحرصون على بناء المساجد والمدارس ، ويكتبون أسماءهم عليها ، لتخلّد ذكرهم . ومن أراد وجه الله تعالى ، لم يبال بذكر الخلق . ومنهم قوم يتصدقون ولكن في المحافل ، ويعطون مَن من عادته الشكر وإفشاء المعروف . ومنهم من يخرج الزكاة إلى من يخدمه أو ينفعه بأمر . ومنهم من يكثر الحج وربما ترك جيرانه جياعاً . ومنهم قوم يجمعون المال ويبخلون بإخراجه ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لاتحتاج إلى نفقة كالصيام والصلاة ، ولا يدرون أن جهاد النفس في البخل المهلك أولى .

الطبقة الرابعة : العوام ، واغترارهم من وجوه . فمنهم من يصلي كيف اتفق ، ولا يسأل عما يصلح الصلاة ويفسدها ، ومنهم من يواظب على النوافل كالتراويح ، ولا تكاد تجده في صلاة الجماعة . ومنهم من يلازم مجالس الوعظ ، ولا يعمل بما يسمع ، ولا ينتهي عن قبيح مايأتي ، كأن المقصود الحضور فقط . ومنهم من يتنفل بالعبادات ، ويهمـــل الفرائض . ومنهم من يتطوع بالخير ، ويكثر بالتسبيح مع معاملته بالربا واستعمال الغش ، وربما صاح على والديه وأخذ أعراض الناس .

وجمهور الناس قد اتكلوا على العفو والحلم ، فهم مصرون على ذنوب وخطايا ، فإذا ذكرت لهم العقوبة ، قالوا : هو كريم ، وينسون أنه شديد العقـــاب . ومنهم أقوام يستعجلون المعصية لموافقة الهوى ، ويضمرون أننا سنتوب ويسوّفون بالتوبة .

وفي العصاة من يغتر بفعل خير يعمله ، فربما تصدق أو سبح ، وظن أن هـــذا يقاوم ذنوبه .

ومن المغترين ، من يغره صلاح آبائه ، فربما قال : الشريف أبي يشفـــع لي ، ولا يدري أن أباه فضل بالتقوى ، وكان مع التقوى خائفاً ، ومن أين له أن يشفع له ؟!

أوَ ماسمع قوله تعالى : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) الأنبياء: ٢٨. وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال : « يافاطمة لا أغني عنك من الله شيئاً » .

فالعاقل من عمل على الحرص ، وأخذ الأحوط ، فمن تأمل العلم وتصفحه ، وشاور العقل ، دله على الحزم فسلم من الاغترار ، والله الموفق .

نسيت لظى عند ارتكابك للهوى وأنت توقّى حر شمس الهواجر
كأنك لم تدفن حميماً ولم تكن له في سياق الموت يوماً بحاضر

أيها العاصي تفكر في عمر قد مضى كثيره ، وفي قدم مايزول تعثيره ، وفي هوى قد هوى أسيره ، وفي قلب مشتت قد قل نظيره ، ثم تفكر في صحيفة قد اسودت ، وفي نفس كلما نصحت صدّت ، وفي كف المنايا قد تشمرت وامتدت، وفي ذنوب ما تحصى لو عدت .

ياذاهباً في شططه ، ياواقفاً مع غلطه ، يامتعرضاً لعقوبة الإله وسخطه ، يامن لايفرق بين صحيح النصح وسقطه ، أماله عبرة بفرطه ، هلا بادر عمره في جمع لقطه ، هلا عبأ متاع الرحيل في سفطه ، ألا حذر من سيف في يد مخترطه ، كلا لو صحا لاتعظ ، وأثر فيه اللوم وامتعظ ، لكن قلبه في غاية الغلظ ، لايلتفت إلى من لام ولا من وعظ .

إلام تمني النفس مالا تناله وتذكر عيشاً لم يعد مذ تصرما
وقد قالت السبعون للهو والهوى دعا لي أسيري واذهبا حيث شئتما

يامبارزاً بالقبائح مهد عذرك ، يامواصلاً نقض العهود جانب غدرك ، يامديماً للزلل تدبر أمرك ، إن آثرت صحبة المتقين فاشرح صدرك ، وإن أحببت حلاوة العواقب فاستعمل صبرك .

كان أبو مسلم الخولاني كثير التعبد والصوم ، فقيل له : لو أرحت نفسك قليلاً ، فقال : قد أبصرت الغاية ، وإن الخيل لاتجري الغايات وهي بدّن ، إنما تجري وهي ضمّر . إن بين أيدينا أياماً لها نعمل .

وقال أبو الجوال المغربي : كنت ببيت المقدس جالساً ، وإذا قد طلع شاب والصبيان حوله يرمونه بالحجارة ويقولون : مجنون ، فدخل المسجد وجعل ينادي : اللهم أرحني من هذه الدار ! فقلت له : هذا كلام حكيم ، فقال : ليس بي جنون وولق ، إنما بي شوق وقلق ، ثم أنشأ يقول :

هجرت الورى في حب من جاد بالنعم ... وعفت الكرى شوقاً إليه فلم أنم
وموّهت دهري بالجنون عن الورى ... لأكتم مابي من هواه فما انكتم
فإن قيل مجنون فقد جنني الهوى ... وإن قيل مسقام فما بي من سقم
وحق الهوى والحب والعهد بيننا ... وحرمة روح الانس في حندس الظلم
لقد لامني الواشون فيك جهالة ... فقلت لطرفي أفصح العذر فاحتشم
فعاتبهم طرفي بغير تكلم ... وأخبرهم أن الهوى يورث السقم
فبالحلم ياذا المن لاتبعدنّني ... وقرب مزاري فيك ياباريء النسم

فقلت له : أحسنت ، لقد غلط من سماك مجنوناً . فنظر إليّ وبكى ثم قال : أو لا تسألني عن القوم كيف وصلوا فاتصلوا ؟ فقلت : بلى ، أخبرني . فقال : طهروا له الأخلاق ، ورضوا منه بيسير الأرزاق ، وهاموا من محبته في الآفاق ، واتزروا بالصدق وارتدوا بالإنفاق ، وباعوا العاجل الفاني بالآجل الباق ، وركضوا في ميادين السباق ، وشمروا تشمير الجهابذة الحذاق ، حتى اتصلوا بالواحد الخلاق . فشردهم في الشواهق ، وغيبهم عن الخلائق ، لاتؤويهم دار ولا يقر لهم قرار ، فالنظر إليهم اعتبار ، ومحبتهم افتخار ، وهم صفوة الأبرار ، مدحهم الجبار ، ووصفهم النبي المختار . إن حضروا لم يعرفوا ، وإن غابوا لم يفقدوا ، وإن ماتوا لم يشهدوا ، ثم أنشأ يقول :

كن من جميع الخلق مستوحشاً ... من الورى تسري إلى الحق
واصبر فبالصبر تنال المنى ... وارض بما يجري من الرزق
واحذر من النطق وآفاته ... فآفة المؤمن في النطق

وجدّ في السير ممرّاً كما ... شمر أهل السبق للسبق

أولئك الصفوة ممن سما ... وخيرة الله من الخلق

قال : فأنسيت الدنيا عند حديثه ، ثم ولى هارباً ، فأنا متأسف عليه .

إخواني : انتبهوا من رقدات الأعمار ، وانتهبوا لحظات الأعمار ، وقاطعوا الكسل فقد قطع الأعذار .

العمر يسير وهو يسير ، فأقصروا عن التقصير في العمر القصير .

حذار حذار قبل عدم الفرار ، أيها الشيوخ آن الحصاد ، أيها الكهول قرب الجذاذ ، أيها الشباب كم جرد الزرع جراد .

وحدثتك الليالي أن شيمتها ... تفريق ماجمعته فاسمع الخبرا

وكن على حذر منها فقد نصحت ... وانظر إليها ترى في صرفها العبرا

فهل رأيت جديداً لم يعد خلقاً ... وهل سمعت بصفو لم يصر كدرا

فصل

في قوله تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا) المعنى : إضرب هذا المثل لسرعة نفادها ، وعجلة ذهابها ، وتصرف أحوالها . (كماء أنزلناه من السماء) وهو المطر ، (فاختلط به نبات الأرض) أي : التف به النبات و كثر بالمطر ، (فأصبح هشيماً) قال ابن قتيبة : الهشيم : هو النبت المنفت (تذروه الرياح) أي : تنسفه . (وكان الله على كل شيء مقتدراً ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا) أي : مما يتزين به في الدنيا مما لا ينفع في الآخرة (والباقيات الصالحات) هي سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر (خير عند ربك ثواباً) أي : أفضل جزاء (وخير أملاً) أي : خير مما يؤملون (ويوم نسير الجبال) قال ابن عباس : تسير الجبال على وجه الأرض كما يسير السحاب في الدنيا ، ثم تكسر (وترى الأرض بارزة) أي : ظاهرة ليس عليها من جبل أو شجر أو ماء (وحشرناهم) يعني : الخلائق كلهم (فلم نغادر)

أي : فلم نخلف منهم أحداً . (وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أي : حفاة عراة لا مال ولا أهل ولا ولد ، (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً) للبعث والجزاء ، (ووضع الكتاب) المراد به : كتب الأعمال ، (وترى المجرمين مشفقين) أي : خائفين مما فيه من الأعمال السيئة ، (ويقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) الكهف : ٤٥ — ٤٩ . والمراد صغار الأمور و كبائرها ، ومعنى أحصاها : أثبتها .

نهوى الحياة ولو صحت عزائمنا ... لما صرفنا إلى الخداعة الهمما

لو علمنا علمت شم الجبال به ... أزال ذلك من آنافها الشمما

إن الشخوص التي كانت رجاحتها ... توازن الهضب صارت في الثرى رمما

عمتهم حادثات غير مبقية ... شيئاً فلم تبق أبداناً ولا قمما

الدنيا كنبات توجه فيه الصلاح ، فسأل زراعه له الغيث في المساء والصباح ،وهبت نسيم الجنوب ، وأقبل الرعد له اضطراب وصياح ، فجاده فأجاده ونفع ذلك السماح ، فتبسم الروض تبسم المحبين عند المزاح ، فلما تم أمره وانتظر به الأرباح ، هبت عليه صرصر الهلاك ، ودامت باللحاح (فأصبح هشيماً تذروه الرياح) يامن ضيع في المعاصي عمره ، يامن غلبت على قلبه السكرة ، يامن لاتصفو في الاخرة عنده فكرة ، ويحك تزود للسفرة ، فقد بقي القليل فتأهب لنزول الحفرة ، ثم تقوم مبنياً بالقدرة ، وتحضر للحساب في الحضرة ، وتسأل عن الخطرة والنظرة ، وحيداً لا جمع ولا كثرة ، فقيراً لا تملك ذرة ، والعين كالعين في سرعة العبرة ، والمعاتبة يوم المعاينة مرة ، والفقر شديد ولا ساعة العسرة ، (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) . قام الناس ينفضون التراب ، فزال الشك والارتياب ، وذلت للأهوال الرقاب ، وحارت العقول والألباب ، وحضر الميزان والحساب ، وتميز الخطأ من الصواب ، وقوي على العاصين العتاب ، فالحاضر منهم بالحزن قد غاب ، و كيف لا والنار المآب ? والسؤال دقيق ولا جواب ،والحاكم رب الأرباب ، ووضع الكتاب : كتاب ينطق بما جرى شفاها ، كتاب عرف بصفات الأعمال وحواها ،

تعرض خائنة الأعين على من قد رآها ، وخافية الصدور صاحبها أخفاها ، فيجازي بالذرة من الخير ولا ينساها ، سبحان من قدر الأمور وأمضاها ، وأسخط النفوس تقديره وأرضاها ، وأحضر زمر المتقين ثم نجاها ، زرعوا جنان اليقين فالتقطوا جناها ، فأما زمر الجحد فالنار مأواها ، تستغيث عطشى ولو رحمها سقاها ، الغسلين شرابها ، والزقوم مرعاها ، عرضت عليها ذنوب قد وصفها الكتاب وسمّاها ، فاستغاثت فما أُجيبت كما لم تجب من ناداها ، (ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) .

اللهم وفقنا لصالح الأعمال ، ونجنا من جميع الأهوال ، وآمنا من الفزع الأكبر يوم الرجف والزلزال ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك ياأرحم الراحمين ، آمين .



المجلس الحادي والسبعون

في ذكر الموت

الحمد لله العالم بالسر وما يُجن ، وما يعرض في القلب وما يعِن ، سامع صوت اللهيف يبكي ويحن ، قدّر لكل حي الأجل والسن ، وعظ فزجر فأزعج المطمئن ، وخوف الهجير مَن قد ألف الكِن .

أحمده بمحامد إذا وزّن زن ، وأقر بتوحيده إقرار عبدٍ قِن ، وأُصلي على رسوله المبعوث إلى الإنس والجن ، صلى الله عليه ، وعلى صاحبه أبي بكر ثاني اثنين في الحياة والممات والسن ، وعلى عمر الفاروق الذي خضعت له رقاب الملوك ودِنّ ، وعلى عثمان المقتول ظلماً وما أُحنّ ، وعلى عليّ ولا أظهر من حبه عشر ما أجن ، وعلى جميع آله وأصحابه الشاب منهم والكهل والمسن ، وسلم تسليماً .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر هادم اللذات » .

اعلموا إخواني أنه جدير بمن بين يديه الموت أن يكثر ذكره ، وأن يعدّ نفسه من الموتى ، لأن كل آت قريب . ثم إن الناس في ذكر الموت على ضربين .

أحدهما : أهل الغفلة ، فمنهم من لا يذكره ، فإن عرض له ذكره ، صرف ذلك عن قلبه . ومنهم من إذا عرض له ذكره ؛ حزن لفراق الدنيا ، ونقض البنية ، فهذان داخلان في حزب الغافلين الجاهلين .

والثاني : أهل اليقظة . وهم مقتسمون إلى خائف منه ، إما بالطبع ، وإما أن

لا يرضى عمله ، وإما لأنه باب الجزاء على الأعمال ، فإن آدم كره الموت ، والخليل كره الموت ، وموسى لطم عين ملك الموت لكراهية الموت .

وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة ؛ بكى حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه .

وكان ابن سيرين إذا ذكر الموت ، مات كل عضو منه على حدته .

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله ، وانتفضت انتفاض الطير .

وقد كان في الصالحين من يغلب شوقه إلى ربه على خوفه من الموت ، فيؤثر الموت ، لأنه موعد لقاء الحبيب .

قال حذيفة عند الموت : حبيبٌ جاء على فاقة ، لا أفلح من ندم .

وفيهم من يكره الموت ليصحّح العمل ، وفيهم من تخايل شدائد الموت فقوي حذره .

فالشدة الأولى : تقوى في حق الغافلين ، وهي مفارقة المال والولد ، وهي خفيفة عند المتيقظين لاشتغالهم بما هو أهم .

والشدة الثانية : رؤية الأعمال .

قال أبو جعفر محمد بن علي : ليس من ميتٍ إلا مثّل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة ، فيشخص إلى حسناته ، ويطرقُ عند سيئاته .

وقال مجاهد : ما من ميّت إلا عرض عليه جلساؤه ، إن كانوا أهل ذكر وإن كانوا أهل لهو .

والشدة الثالثة : حسرات الفوت حين لا يمكن الاستدراك . وهذه أشد شدة على المتيقظين . ويقال : إن الميت يقول لملَكِ الموت : أخّرني يوماً . فيقول : ذهبت الأيام . فيقول : أخرني ساعة . فيقول : ذهبت الساعات .

قال قتادة : والله ما يتمنى أن يرجع إلى أهل ولا عشيرة ، ولكن يتمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله .

والشدة الرابعة : معاينة ملك الموت ، وهي حالة عظيمة .

قال إبراهيم الخليل لملك الموت : أرني كيف تقبض أرواح الكفار . قال : لا تطيق. قال : بلى . قال : فأعرض ، فأعرض ثم نظر فإذا هو برجل أسود ، ينال رأسه السماء ، يخرج من فيه لهب النار ، فغشي على ابراهيم ، فلما أفاق قال : لو لم يلقَ الكافر من البلاء والحزن إلا صورتك ، لكفى . فأرني كيف تقبض أرواح المؤمنين ، قال : أعرض ، فأعرض ، ثم التفت ، فإذا برجل شاب أَحسن الناس وجهاً ، وأَطيبهم ريحاً ، في ثياب بيض .

والشدة الخامسة : ألم الموت .

روي أن موسى عليه السلام لما توفي قيل له : كيف وجدت طعم الموت ؟ قال : كسفُّودٍ أُدخل في جزّة صوف فامتلخ . قيل : يا موسى ؛ لقد هوّن عليك .

وقال شداد بن أوس : لو أن الميت نشر ، فأخبر أهل الدنيا بألم الموت ، ما انتفعوا بعيش ، ولا لذوا بنوم .

وقال وهب : لو أن ألم عِرق من عروق الميت قسِم على أهل الأرض ، لأوسعهم أَلماً .

وسئل الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى : ما بال الميت تنزع نفسه وهو ساكت ، وابن آدم يضطرب من القرصة ؟ فقال : لأن الملائكة توثقه .

والشدة السادسة : رؤية المجرمين مواضعهم من النار ، وخوف هذا كان يقلقل الصالحين عند النزع ، فينسون كل شدة في جانبه .

قال علي رضي الله عنه : لا تخرج نفس ابن آدم حتى يعلم أين مصيره : الى جنة أم ، الى نار ؟ وبكى ابراهيم النخعي عند الموت فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : أنتظر رسل ربي ، إما إلى الجنة ، وإما الى النار .

والشدة السابعة : أم الشدائد . وهي سوء الخاتمة أعاذنا الله منها بمنّه وكرمه ، وقد فسروها بشيئين .

أحدهما : أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أحواله : إما الشك ؛ وإما الجحود ، فتخرج الروح في حالة غلبة تلك الآفة ، فيلقى الله تعالى في حزب الكفار .

قال عبد العزيز بن أبي روّاد : حضرت رجلاً في النزع ، فجعلت أقول له : قل : لا إله إلا الله . فكان يقول ، فلما كان آخر ذلك . قلت له : قل: لا إله الا الله فقال كم تقول ؟ إني كافر بما تقول ، وقُبض على ذلك فلم أحضره وسألت امرأته عن حاله. فقالت: كان مدمن خمر . فكان عبد العزيز يقول : اتقوا الذنوب فإنها هي أوقعته .

والثاني : أن يغلب على القلب حينئذ حب الدنيا وشهواتها ، فتخرج الروح في حالة استغراق تلك الحال ، فيعمى بذلك عن تدارك زلة ، أو تأهب للقاء الحق . وذلك حجابٌ يوجب الطرد عن التقريب بعد الممات وفي الحشر ، لأن كل ميت يحشر على ما مات عليه .

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس ... ولو تمتعت بالحجّاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت نافذة ... في كل مدّرع منا ومتّرس
ما بال دينك ترضى أن تدنّسه ... وثوبُ جسمك محفوظ من الدنس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبَس

يا غافلاً عن ملمّ عن قليل حادث ، يا راحلاً وهو يظنّ أنه مقيم لا بث ، يا نائماً قد أزعجته المقلقات البواعث ، يا لاعباً والليالي في سيره حثائث ، يا معجباً بزخارف في ضمنها الحوادث ، يا مخموراً بالمنى ؛ الخمر أم الخبائث ، يا مطلوباً بالجد وفعله فعل عابث ، يا حريصاً على المال ماله حظ وارث ، إياك والدنياك إن حلفها حلِف حانث ، لا تسمعن قولها، فالعزم عزم ناكث .

أطل جفوة الدنيا وتهوين شأنها ... فما الغافل المغرور فيها بعاقل
وليس الأماني للبقاء وإن جرت ... بها عادة الا تعاليل باطل
يُسار بنا نحو المنون وإننا ... لنسعف في الدنيا بطي المراحل
غفلنا عن الأيام أطول غفلة ... وما حوبها المجنيّ منها بغافل

يا من يظن أنه بالمنى ظافر ، وقد علقت به من المنون أظافر ، يا من نقصه على الدوام وافر ، يا من هو عن مصالحه ناءٍ نافر ، أين زادك؟ قل لي يامسافر ؟ كأنك بوجه

الردى في وجهك سافر ، ويحك أَبعد عن ديار الغفلة وسافر ، ويحك اذكر الغاسل ولا تنسى الحافر ، واعجباً لك ،أمؤمن أنت أم كافر ؟.

يا ساكن الدنيا أتعمر منزلا لم يبق فيه مع المنية ساكن ؟!
الموت شيء أنت تعلم أنه حق وأنت بذكره متهاون
إن المنية لاتؤامر من أتت في نفسه يوماً ولا تستأذن

فصل

في قوله تعالى : (قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم) الجمعة : ٨ .

كان الحسن يقول : إن الموت قد فضح الدنيا ، فلم يترك لذي لبّ بها فرحاً ، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عنده ، وهان عليه جميع ما فيها .

وقال الربيع بن صبيح :قلنا للحسن : عظنا، فقال : إنما يتوقع الصحيح منكم داءً يصيبه ، والشاب منكم هرماً يفنيه ، والشيخ منكم موتاً يرديه .

يا أيها الملفوف غداً في كفنه ، النازل في حفرته ، الذي سينساه أحبته ، وقد كان سعيه لهم .

وكان عمر بن عبدالعزيز يجمع الفقهاء ،فيتذاكرون الموت والقيامة ،ثم يبكون كأن بين أيديهم جنازة .

وقال سميط ابن عجلان : من جعل الموت نصب عينيه ، لم يبـال بضيق الدنيا ولا بسعتها .

الموت بحر هائل موجه تضلّ فيه حيلة السابح
لاينفع الإنسان في قبره غير التقى والعمل الصالح

لقد أزعج الموت قلوب الخائفين ، وأَحرج خوف الفوت صدور العارفين ، وبلبل انتظار البلى أفئدة العابدين ، وأجرى تخايل اللحود على الخدود دموع التائبين .

كان عامة السلف ينزعجون عند الموت . فكان عمر رضي الله عنه يقول : لو أن لي تِلاع الأرض ذهباً ، لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه .

وقال معاذ رضي الله عنه عند موته : أعوذ بك من ليلة صباحها النار .

وبكى أبو هريرة رضي الله عنه . فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : بعد المفازة ، وقلة الزاد ، وعقبة كؤود ، المهبط منها إلى الجنة أو النار .

وقد كان في السلف من فتح له باب اللطف فرفق به ، فكان بلال عند الموت يقول : وا طرباه ! غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه . وقيل للشبلي عند الموت : قل : لا إله إلا الله . فقال :

إن بيتاً أنت ساكنه غير محتاج إلى السُّرج

وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج

وكان فيهم من يبادر الوقت تلك الساعة . قال ابن ثابت البناني : ذهبت أُلقّن أبي فقال : خلّ عني ، فإني في وردي السادس .

أتُراك فيمن يعد ، يا من ذنوبه لا تحد . كأنك بأسد الموت قد افترس ، وبربع الجسم قد اندرس ، وبالقدم القائم في الهوى قد جلس ، وبالحاصد قد هشم ما غرس ، وبالحافظ قد أهمل ما حرس ، وباللطف قد تبدل بالعنف والشرس ، وهذه المحن كلها في نفس .

دخل رجل على رجل غريب وهو في الموت وحوله قوم يبكون . فقال :

بكوه وما إياه يبكون بل رأوا موارد أمرٍ هم إليه قريب

وقالوا غريب قد نأى عنه أهله ألا كل ميْت حيث كان غريب

إخواني : إلى متى هذه الغفلة وقد علمتم المصير ؟ إلى متى هذه الآمال والعمر قصير ؟ الى متى هذا الحجاب والأمر خطير ؟ الى متى هذا التسويف فقد خذلكم التقصير ؟ الى متى هذا العمى عن التحقيق والناقد بصير ؟ الى متى هذا التواني وقد قرب الرحيل إلى الحفير ؟ إلى متى هذه القسوة ولا معين ولا نصير ؟ كأنك بالموت قد أزعجك وهالك ،

ونازلك فأنزلك عن عزك وأزالك ، وألحقك بأمك وأبيك لا أبالك ، وقد بقي القليل فاعقل حالك ، واصحُ من سكرتك وأطع عذّالك ، واعتذر الى مولاك وقد أقالك ، واسمع نصحَ شفيق يرثي لك .

خذ الوقت واعلم بأن اللبيـ ب يأخذ من يومه للغد

فما ينفع المرء بعد المنو ن قول النوادب لاتبعد

إخواني : أهل القبور قد أُسِروا ، وأكثر القوم في تجارتهم قد خسروا ، مروا على القوم واعتبروا ، وتفكروا في أحوالهم وانتظروا . يتمنون العود وهيهات، ويسألون البدار وقد فات .

فيا مطلقا أُذكر قيودهم ، ويا متحركاً قد عرفت همودهم ، خلِّص نفسك من أسر الذنوب ، وتأهّب فإنك مطلوب ، وتذكر بقلبك يوم تقلب القلوب ، قبل أن يمسك اللسان ، ويتحير الإنسان ، ويزول العرفان ، وتنشر الأكفان ، وتزار الحفرة وتطول السفرة ، ويأتي منكر ونكير ، ويقوى الشهيق والزفير ، ويبقى العبد هناك أسيرا ، إلى أن يقوم عرياناً حسيرا .

فحينئذ تنتثر الكواكب ، وتنتشر المصائب ،وتنسد المذاهب،وتتبيّن العجائب، وتسوّد الوجوه ، ويفوت العاصي ما يرجوه ، وتنقل على الظهور الأوزار ، ويؤخذ الكتاب باليمين أو باليسار ، وليس لأحد هناك قرار ، إلا الجنة أو النار .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله . قالوا : وكيف يستعمله ? قال : يوفقه لعمل صالح قبل موته » .

ودخل سابق البربري على عمر بن عبد العزيز فقال له : عظني وأوجز ، فأنشد :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى وأبصرتَ بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون شركته وأرصدت قبل الموت ما كان أرصدا

فبكى عمر حتى سقط مغشياً عليه .

إخواني : اعتبروا بالسابقين ، وتفكروا في الراحلين ، لعل القلب القاسي يلين .

عجباً لمن رأى فعلَ الموت بصحبه ، وأيقن بتلفه ونحبه ، وسكن الإيمان بالآخرة في قلبه ، ثم نام غافلاً على جنبه ، ونسي جزاءه على جرمه وذنبه ، وأفرده الموت عن أهله وسربه ، ونقله الى قبر ذلّ فيه بعد عجبه ، فياذا اللب جز على قبره وعج به ، يا منذراً في زمنه يكفي تقليله ، يا مفرطاً في أمره وقد دنا رحيله ، يا ضالاً طريق الهدى وقد وضح سبيله ، أما يكفي في موعظته أخوه وخليله ، أما حدثه بالنقلة الى القبور جيله .

لتتركن قصرك المبنيا … وكرمك المغرس المسقيا
والحوض والبستان والركيا … والمجلس المنجد البهيا
والباب والوصيد والنديا … والتبر والأوراق والحليّا
لوارث عهدته عصيا … ثم تزور جدثا قصيا
في ملحد تلقى به منسيا … قضاء رب لم يزل عليا
وكان وعد ربنا مأتيا

أيها الغافل عما بين يديه ، لا يذكر الموت ولا يلتفت اليه ، شغله عن العواقب ماالديه ، وألهاه ماله عما عليه ، بادر أيام شبابك ، قبل فراق أحبابك ، واغتنم أحيان حياتك ، قبل موافاة وفاتك ، فالعمر بالسنين يذهب ، والأجل بمرور الأوقات ينهب ، فالبدار البدار قبل الفوات ؛ والحذار الحذار من هجوم الممات ؛ أخل بنفسك في دار المعاتبة ؛ وأحضرها دستور المحاسبة ؛ وارفع عليها سوط المعاقبة ؛ ان لم تفعل خسرت العاقبة .

كم من عزيز الملك نغص ملكه … بالعزل كرهاً أو بموت معجل
ومشيِّد داراً يريد نزولها … نزل القبور فعطلت لم ينزل
ومبادر يسعى ليدرك حاجة … يسعى ولا يدري لحتف منكل
ومكرّم في الحي يرجى نفعه … وافى الحمام فصار غير مؤمل
وجماعة في حي صدق قد مضى … طحن الزمان جميعهم بالكلكل
كنا جميعاً ثم فرّق بيننا … دهر سيلحق آخراً بالأول

اخواني : لادافع عنكم من الموت يقيكم ، وإنه في هوة الهلاك يلقيكم ، وإنما تندمون إذا غصت تراقيكم (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم) الجمعة : ٨ .

يالها من صرعة عجيبة ، ومصيبة فوق كل مصيبة ، مرت سهام الموت لكم مصيبة ، فهل يردها توقيكم ؟(قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم) .

أقبل التلف وجد ، فردم باب السلامة وسد ، وجاوز الألم الحد وما رد راقيكم ، (قل إن الموت الذي تفررن منه فإنه ملاقيكم) .

بلغ الروح التراقي وبادر بالجد التراقي ، ووقع اليأس من التلاقي فتحير الساقي الذي يسقيكم . (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم) .

سبحان من حكم وقضى ، بسكنى الثرى بعد الفضا ، فليس لنا إلا الرضى ، كما ذهب من مضى يذهب باقيكم . (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم) .

اللهم اسلك بنا سبيل النجاة ، وبلغ كلامنا ما أمله ورجاه ، واجعل لنا عندك أعظم قدر وجاه ، ولا تحرمنا من فضلك العظيم ، فإنك أكرم من كل كريم ، وأرحم من كل رحيم . واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، الأحياء منهم والميتين ، برحمتك ياأرحم الراحمين ، آمين .



المجلس الثاني والسبعون

في ذكر القبر

الحمد لله المنفرد بالقدرة ، العظيم فلا يقدر أحد قدره ، أنعم فكم أقال عثرة ، ووعظ فكم أسال عَبرة ، خلق الآدمي وأحصى عمره ، وأراه قبل رحيله عن الدنيا قبره ، وأنه سيخلو في بيداء قفرة ، ثم يخرجه فيحضر الحضرة ، ويسأله عن الكلمة والنظرة ، (وأنذرهم يوم الحسرة) مريم : ٣٩.

أحمده حمداً دائماً بلا فترة ، وأشكره على نعمه التي لاتحصى كثرة . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، شهادة أدخرها نجاة من عذاب الحفرة ، وسلاحاً من العدو في العسرة واليسرة . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، وضمن له نصره . صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق رفيقه في الحفرة ، وعلى عمر ابن الخطاب ثالثهما في الحجرة ، وعلى عثمان مجهز جيش العسرة ، وعلى علي بن أبي طالب الذي اشترى (هل أتى) بكسرة ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين اختارهم الله لرسوله نصرة ، وسلم تسليماً .

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا الى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه فقال : « استعيذوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثاً ثم قال : « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء

ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس المطمئنة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان . قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض . قال : فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملاءٍ من الملائكة إلا قالوا : ماهذه الروح الطيبة؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى تنتهي إلى السماء السابعة ، فيقول الله تبارك وتعالى : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال : فتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : مادينك ؟ فيقول: ديني الإسلام ، فيقولان له : ماهذا الرجل الذي بعث فيكم ؟فيقول: هو رسول الله ،فيقولان له : وما علمك؟ فيقول :قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة . قال :فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدبصره. قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح . فيقول : أبشر بالذي يسرك . هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول له :من أنت ؟فوجهك الذي يجيء بالخير. فيقول : أنا عملك الصالح . فيقول :رب أقم الساعة ،رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي . قال :« وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، أخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفّود من الصوف المبلول،

فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ماهذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهى به الى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: (لا تفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط) الأعراف: ٤٠.

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ: (ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) الحج: ٣١. فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ماهذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد: أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً الى النار، فيأتيه من ذكاء حرها وسمومها، ويضيق قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي توعد. فيقول: من أنت؟ فوجهك الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة».

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وان كان من أهل النار، فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله اليه يوم القيامة».

وقال كعب: اذا وضع العبد الصالح في قبره احتوشته أعماله الصالحة، فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه، فتقول الصلاة: إليكم عنه، فلا سبيل لكم عليه، فقد أطال القيام لله عز وجل. فيأتونه من قبل رأسه، فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه، فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا، فيأتونه من قبل جسده، فيقول الحج والجهاد:

إليكم عنه ، فقد أنصب نفسه ، وأتعب بدنه ، وحج وجاهد لله تعالى ، لاسبيل لكم عليه . فيأتونه من قبل يديه ، فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبي ، فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله عز وجل ابتغاء وجهه ، فـلا سبيل لكم عليه ، فيقال له : نم هنيئاً ، طبت حياً وميتاً قال : وتأتيه ملائكة الرحمة فيفرشونه فراشاً من الجنة ، ودثاراً من الجنة ، ويفسح له في قبره مد بصره ، ويؤتى بقنديل من الجنة ، فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله عز وجل من قبره .

هل على نفسه امرؤ محزون ... موقن أنـــه غداً مدفون

فهو للموت مستعد معـــد ... لايصون الحطام فيما يصون

كلنا نكثر المذمة للدنيـــا ... وكلٌ بحبها مفتون

يا كثير الكنوز إن الذي يكفيك ... مما اكتنزت منها الدون

أي حي إلا سيصرعـه الدهـــر ... وإلا ستستبيه المنون

أين آباؤنا وآباؤهم قبـــ ... ـل وأين القرون أين القرون؟

لتنالنَّك المنـايا ولو انْـ ... ـنَـكَ في شاهق عليك الحصون

كم أناس كانوا فأفنتهم الأيْـ ... ـيام حتى كأنهمْ لم يكونوا

إن رأياً دعـــا إلى طـــاعة الله ... لرأي مبارك ميمون

لقد وعظ الزمان وما قصر ، وتكلم الصامت فما أقصر ، ولاح الهدى وإنما الشأن فيمن أبصر ، ونطقت المواعظ بما لايحصى ولا يحصر ، هلكت ثمود بصيحة وعاد بصرصر ، وكُسر كسرى وخذل قيصر ، تالله ما يبالي ميزان العدل أربح أم أخسر ؟ ولا حاكم الجزاء أفلس المدين أم أعسر ؟ وهذا أمر مجمل وفي غد يفسر .

قد غدت النفس إلى سوقها ... ويحك يانفس لمن تكسبين

هل لك بالأيام من خـبرة ... كم والد في زمن تنسبين

أتحسبين الدهر ذا غفـلة ... هيهات ما الأمر كما تحسبين

ويحك أنت محاسب على ماضعيت ، مسؤول عن كل ماجمعت . مناقش على كل مافعلت ، ألا تتصور بقلبك عتابك على ذنبك ؟ ألا تتمثل بلبك شهادة أعضائك وكتبك ، من لك إذا جوزيت على كسبك ؟ فقل لي : ماذا تقول لربك ؟ يانازلين منازل الهالكين ، يامقيمين في مقام الراحلين ، أين من كان قبلكم ؟ أين من فعل فعلكم ؟ قيدوا إلى البلى فانقادوا ، وبادوا في الثرى وما عادوا ، ما ردّ عنهم مابنوا وما شادوا ، ولقد فاتهم يوم الرحيل ما أرادوا .

قال طاووس : إن الموتى يفتنون في قبورهم سبعاً ، وكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام .

روى أبو القاسم الجريري بإسناده عن عبد الله عن النبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل أمر بعبد من عباده أن يضرب في قبره مائة جلدة ، فلم يزل يسأل ويسأل حتى صارت جلدة واحدة ، فامتلأ قبره عليه ناراً ، فلما سري عنه وأفاق قال : لم جلدتموني ؟ قالوا : إنك صليت صلاة بغير طهور ، ومررت على مظلوم فلم تنصره » .

كان ابن السماك يقول : لايغرنكم سكون هذه القبور ، فما أكثر المغمومين فيها ، ولا استواؤها ، فما أشد تفاوتهم فيها .

قال حجاج بن الأسود : رأيت في منامي كأني دخلت المقابر ، فإذا أنا بأهل القبور نيام في قبورهم ، قد تشققت عنهم الأرض ، فمنهم النائم على التراب ، ومنهم النائم على القباطي ، ومنهم النائم على الريحان ، ومنهم النائم على السندس والإستبرق ، ومنهم النائم على الحرير والديباج ، ومنهم كهيئة المتبسم في نومه ، ومنهم من أشرق لونه ، ومنهم حائل اللون ، فبكيت عندما رأيت ، فنادى مناد من تلك القبور : ياحجاج ، هذه منازل الأعمال .

وكان الحسن بن صالح إذا نظر إلى القبور يقول : ما أحسن ظاهرك ، إنما الدواهي في باطنك .

تناجيك أجداث وهن سكوت — وسكانها تحت التراب خفوت
أياجامع الدنيا لغير بلاغة — لمن تجمع الدنيا وأنت تموت؟

فصل

في قوله تعالى: (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربّ ارجعون) يقول هذا من يسأل الرجعة للملائكة الذين يقبضون الأرواح . والمعنى : ارجعوني إلى الدنيا لعلي أعمل صالحاً فيما تركت من العمل الذي مضى (كلا) أي : لا يرجع إلى الدنيا (إنها) يعني : مسألة الرجعة (كلمة هو قائلها) أي : هي كلام يقوله لا فائدة فيه ولا نفع (ومن ورائهم) أي : أمامهم وبين أيديهم (برزخ الى يوم يبعثون) المؤمنون : ٩٩ -١٠٠.

قال الزجاج : البرزخ في اللغة : الحاجز ؛ وهو هاهنا ، ما بين موت الميت وبعثه .

كان بعض السلف يدعو : اللهم بارك لي في حلول الثرى في البرزخ .

وقف الحسن على قبر ثم قال : إن أمراً هذا أوله ، لحقيق أن يخاف آخره ، وان أمراً هذا آخره، لحقيق أن يزهد في أوله .

كان صفوان بن سليم يأتي البقيع ، فيجلس إلى قبر ، فيبكي حتى يرحم .

سلام على أهل القبور الدوارس — كأنهم لم يجلسوا في المجالس
ولم يشربوا من بارد الماء شربة — ولم يأكلوا من بين رطب ويابس

نسيان ما لا بد منه عجيب ، أما كل آتٍ قريب؟يا طويل الأمل، يا قليل العمل. كم مستلب بكف الأجل على عجل ، ألا تكون من هذا على وجل ؟ ستنقل الى قبر ترى فيه ما أسلفت ،تبكي على الخطايا ما قد عرفت ، بين أناس كلهم أسير الفرَق ، وجميعهم على مهاد القلق .

محلة سفر كان آخر زادهم — اليه متاع من حنوط ومن خرَق
الى منزل سوّى الردى بين أهله — فلم تستبن فيه الملوك من السوق

قال جرير بن عبد الله : افتتحنا بفارس مدينة ، فدُلِلنا على مغارة ، فأصبنا فيها أموالاً ثم صرنا إلى أزجٍ عليه صخرة ، فدفعناها ، وإذا في الأزجّ سرير من ذهب ، عليه رجل وعليه حلل قد تخرقت ، وعند رأسه لوح فيه كتابة ، فقرىء لنا ، فإذا هو : يا أيها المملوك لا تتجبر على خالقك ، ولا تعدّ قدرك الذي جعله لك ، واعلم أنّ الموت غايتك وإن طال عمرك ، وأن الحساب أمامك ، وأنك متروك إلى مدة معلومة ، ثم تؤخذ بغتة.

أحب ما كانت إليك الدنيا ، فقدّم لنفسك خيراً ، وتزوّد من متاع الغرور ليوم فاقتك . أيها العبد المملوك ، اعتبر بي فإن فيّ معتبراً ، أنا بهرام بن بهرام ملك فارس ، كنت من أعتاهم بطشاً ، وأقساهم قلباً ، وأطولهم أملاً ، وأرغبهم في اللذة ، وأحرصهم على جمع الدنيا ، فدوّخت البلاد النائية ، وقتلت الملوك الشاطية ، وهزمت الجيوش العظام ، وعشت خمسمائة عام ، وجمعت مالم يجمعه أحد قبلي ، ولم أستطع أن أفدي نفسي من الموت إذا نزل بي .

وما سالم عما قليل بسالم	ولو كثرت حرّاسه وكتائبه
ومن يك ذا باب شديد وحاجب	فعما قليل يهجر الباب حاجبه
وما كان إلا الدفن حتى تحولت	إلى غيره أجناده ومواكبه
فأصبح مسروراً به كل كاشح	وأسلمه جيرانه وأقاربه
فنفسك فاكسبها السعادة جاهداً	فكل امرىء رهن بما هو كاسبه

وذكر بعض أهل العلم أنهم حفروا نهراً بأرض أصبهان ، فرأوا صخرة عظيمة ، فقلبوها فإذا ببيت فيه أربعة أسرّة من ذهب ، على السرير الأول شيخ عظيم الهامة ، عليه حلل ، متعصّب بعصابة مخوّصة بالزبرجد ، وعلى السرير الثاني شاب جميل ، عليه ثلاث حلل ، والتاج على رأسه ، وعلى الثالث غلام حين راهق البلوغ ، في أُذنيه قرطان ، وعلى الرابع جارية ، عليها حلل ودملج وسوار من زبرجد ، وإذا عند رأس كل واحد منهم كتاب بالفارسية ، فدعوا من قرأه ، فإذا عند رأس الأول : أنا رُستم ملِك هذه البلاد أعطيت بطش الجبابرة ، ونعمت نعمة لم تجتمع لمِلكٍ قبلي ، ودوخت الجنود ، ولم

أصب لداء الموت دواء .

وإذا عند رأس الآخر : أنا سابور بن الملك ، نغص الموت شبيبتي ، وأبلى جدتي ، فلو قبل الموت مني فداء لأغلى بي .

وإذا عند رأس الغلام : أنا بهرام بن الملك لو خلد بشر لخلدنا .

وإذا عند رأس الجارية : أنا بنت الملك ، اختلست بغضارتي ، فلا تغرنكم الدنيا.

أمر الصاحب بن عبّاد أن تكتب على قبره هذه الأبيات .

أيها المغرور في الدنيا بعزّ تقتنيه   وبأهلٍ وبمال وبقصر تبتنيه

كم سحبنا كم عليها ذيل سلطان وتيه   نحسب الأفلاك تجري بخلود نرتجيه

★ ★ ★

إذ طوانا الدهر طياً فاعتبر ما نحن فيه

أهل القبور في الحبوس ، أكثرهم قد نكّسوا الرؤوس ينتظرون هدية تدفع بعض البؤوس ، الثرى مهاد ، والتراب لبوس .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : مثل الميت في قبره ، كالغريق المتغوّث ، ينتظر دعوة من رفيق ، أو هدية تصله من صديق ، فإذا ترحم الإنسان عليه ، أخذها ملك ، فجاء بها إلى قبره وقال : يا صاحب القبر الغريب ، هذه هدية من أخ عليك شفيق .

ورُؤيت رابعة في المنام فقالت للذي رآها : هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمّرة بمناديل الحرير .

ذهب الأحبة بعد طول تودد   ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا

خذلوك أفقر ما تكون لغربة   لم يؤنسوك وكربة لم يدفعوا

قضي القضاء وصرت صاحب حفرة   عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا

ما أكثر المحن في بواطن اللحود ، وما أكثر من يقول فيها : ليتني أعود . فاغتنموا إخواني صحتكم قبل الزمن ، واشترو إخلاصكم في حال القدرة على الثمن .

خلقت جسماً سوياً ثم زرت ثرى   فصرت خطاً وطالت مدة فمحي

قف بالمنازل من عاد وغيرهم   فما ترى ثمّ من شخص ولا شبح

كل يجازى بما أسداه من حسن   وسيءٍ فاهجر السوآت وانتزح

لو رأيتَ دمعَ العاصي منهلاً ، وبلالاً ظل يبكي ويتقلى ، رب ارجعون كلا ، كم كذب وتولى ، كم جار لمـّا تولى ، كم طال على مؤمن وتعلى ، كم تناول كؤوسَ المعاصي نهلاً وعلا ، رب ارجعون كلا ، كم نام على صلاةٍ وما صلى ، كم شبع من حرام وتملى ، كم خلا بذنبٍ وتخلى ، حتى إذا أحاطت بـه شباك الموت وتولى ، أفاق من سكرته ويَطلبُ الرَجعة هلّا ، هيهات وقع العصفور عند القلى ، رب ارجعون كلا ، أكثرُ الموتى يتحسرون ، تجري من عيونِهم عيُون أسفاً لما كانوا يصنعون ، كم نصحوا وهم معرضون ، كم ضيَّعوا حقاً وهم يَعرفون ، كم أُخِذَ غيرُهم وما يعتبرون ، كم تعلّلوا بكان ويكون ، فما انتهوا حتى مضت السنون ، ثم نازلهم ريبُ المنون ، فإذا العزيزُ في الثرى مدفون ، فلَقوا الشدائد والهون ، وبكى على غفلتِهِ المفتون ، فباتوا على التفريط يتأسفون ، ويتمنون الرجوعَ فلا يقدرون ، فاتهم والله مايطلبون ، فهم في أنواع المحن يتقلبون ، كم ينادي معذبُهم رب ارجعون ، (كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) .

اللهم اجعلنا مما أفاق لنفسه وفاق بالتحفظ أبناء جنسه ، وأعد عدة تصلح لرمسه ، واستدركَ في يومه ماضيع في أمسه ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين ، برحمتك ياأرحم الراحمين ، آمين .



المجلس الثالث والسبعون

في ذكر القيامة وما فيها

الحمد لله الذي يرفع ويجل ، ويحظر مايشاء ويحل ، ويعز من يشاء ويذل ، ويهدي من يريد ويضل ، لامعترض عليه ولا مدل ، يقيم فلا ينسى أحداً ولا يخل ، ويظهر الأهوال وينصب الصراط فكم من قدم يزل ، سلّم لصفاته فالخوض بالرأي مضل ، ويكفي دليلاً على توحيد من يستدل ، (ألم تر الى ربك كيف مد الظل) الفرقان : ٤٥ .

أحمده ما دخل محرم من الحل ، وأصلي على رسوله محمد أفضل من يلبي ويهل ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الذي مريض بغضه لايبل ، سلوا الله العافية ، فداء القوم سل ، وعلى عمر القاهر للأكاسرة المستذل ، وعلى عثمان قتيل الظلم المستحل ، وعلى علي الفقيه المستدل ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين قال الله فيهم : (ونزعنا مافي صدورهم من غل) الأعراف : ٤٣ . وسلم تسليماً .

اعلم أن في القيامة أهوالاً كثيرة ، ومزعجات شهيرة . فأول ذلك : نفخ الصور ينفخ فيه النفخة الأولى ، فيموت الخلائق ، وتسير الجبال ، وتكور الشمس والقمر ، وتظهر الأهوال . ثم ينفخ فيه النفخة الثانية لقيام الخلق من القبور .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «ينزل الله عز وجل ماء من تحت العرش يقال له : الحيوان ، وتمطر السماء أربعين يوماً حتى يكون الماء فوقكم إثني عشر ذراعاً ، فتنبت الأجساد كنبات البقل ، أو كنبات الطراثيث ، حتى تكامل أجسادكم ، فتكون كما كانت ، ثم يدعو الله عز وجل بالأرواح ، فيؤتى بها ، فتخرج كأمثال النحل قد ملأت مابين السماء والأرض ، فيلقيها في الصور ، فأرواح المؤمنين تتوهج نورا ،

والأخرى مظلمة ، فتدخل الأرواح في الخياشيم ، فتدب دبيب السم في اللديغ ثم يقول الله عز وجل : ليحيا حملة العرش فيحيون . ثم يأمر الله اسرافيل فيقبض الصور ، فينفخ في الصور ، فيخرجون حفاة عراة غرلاً » .

قال قتادة : ينادي الملك على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء .

وعن حكيم بن معاوية عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم محشورون رجالاً وركباناً ، وتجرّون على وجوهكم » .

وعن المقداد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قيد ميل أو ميلين ، قال : فتصهرهم الشمس ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم . فمنهم من يأخذه إلى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً ، ثم يرد الناس الحوض » .

وفي « الصحيحين » من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه لم يظمأ أبداً » .

وفي حديث ثوبان عن النبي ﷺ أنه قال : « أول الناس وروداً على الحوض فقراء المهاجرين » . فقال عمر رضي الله تعالى عنه : من هم يارسول الله ؟ قال : « هم الشعث رؤوساً ، الدنسة ثيابهم ، الذين لا ينكحون المنعمات ، ولا تفتح لهم أبواب السدد ، ثم يعرض الناس على الله عز وجل » .

وفي حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات . فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة : فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » .

وفي « الصحيحين » من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « أول مايقضى بين الناس في الدماء » .

وروى أبو برزة عن النبي ﷺ أنه قال : « لاتزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن عمله فيما فعل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه » .

وفي « الصحيحين » من حديث عدي بن حاتم عن النبي ﷺ أنه قال : « مامنكم من أحد إلا سيكلمه ربه تبارك وتعالى ، ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر شمالاً منه ، فلا يرى إلا ماقدم ، وينظر أمامه ، فتستقبله النار ، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل » . ثم يحضر الميزان .

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله عزوجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئاً ؟ ظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال : لا يارب ، فيقول : ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل فيقول : لا يارب ، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة ، لاظلم اليوم عليك ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لاتظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة » .

ويقع القصاص بين الخلائق فيشفع النبي ﷺ ، ويشفع المؤمنون ، ويخرج من النار أقوام ، وتنصب الصراط على متن جهنم ، فنسأل الله السلامة والعافية من هذه الأهوال ، وجرياً على أحسن الأعمال والأحوال

ومن أعجب الأشياء أنك تعلم ... بأنك مأخوذ بما تتجرم
وأنت على ما أنت غير مقصر ... ولا مقلع عما عليك يحرم
كأنك في يوم القيامة آمن ... إذا برزت للمجرمين جهنم
فلا تغترر بالعمر إن طال واعتبر ... فإنك لاتدري متى يتصرم
وتسكن بيتاً غير بيتك مظلماً ... وما فيه مشروب ولا فيه مطعم

وتترك ماقد كنت فيه محكماً ... وغـيرك فيه لو علمت المحكم

وتأتي غداً من بعد يسرك معسرا ... ومالك دينار ومالـك درهم

فإن كنت قد قدمت من قبل صالحاً ... فإنك من هول القيـامة تسلم

فكن مقلعاً وارجع الى الله واغتنم ... بقاءك في الدنيا فمحياك مغنم

لو تفكرت النفوس فيما بين يديها ، وتذكرت حسابها فيما لها وعليها ، لبعث حزنها بريد دمعها كل وقت إليها ، أما يحق البـكاء لمن قد مضى زمانه ، أما يحق البـكاء لمن قد ذهب أوانه ، أما يحق البـكاء لمن طال عصيانه ، نهاره في المعاصي فقد زاد خسرانه ، وليله في الخطايا فقد خف ميزانه ، وبين يديه الموت الشديد لقاؤه وعيانه ، والقبر المظلم المنهدمة أركانه ، والحشر العنيف فيه ذله وهوانه ، والحساب اليسير ينشر فيه ديوانه ، والموقف الطويل فيه غمومه وأحزانه ، والجحيم الشديد فيه من العذاب ألوانه .

أنوح على نفسي وأبكي خطيئة ... تقود خطاياً أثقلت مني الظهرا

فيـالذة كانت قليلاً بقاؤهـا ... ويا حسرة دامت ولم تبق لي عذراً

ذكر العرض أجرى دموع الخائفين ، وهو الحساب فلقل أفئدة التائبين .

سأل رجل ذا النون فقال : مالذي أنصب العبّاد وأضناهم ؟ فقال : ذكر المقام ، وقلة الزاد ، وخوف الحساب . ولم لاتذوب أبدان العباد وتذهل عقولهم ؟ والعرض على الله أمامهم ، وقراءة كتبهم بين أيديهم ، والملائكة وقوف ينتظرون أمر الجبـار في الأخيار والأشرار . فمثل القوم هذا في نفوسهم ، وجعلوه نصب أعينهم .

قال بعض السلف : مضيت الى جبل اللكّام ، فما رأيت أعبد من شاب أصفر اللون ، كان يصف قدميه ، فيصلي ركعتين من أول الليل الى آخره ، يختم فيهما القرآن ، ثم يجلس فيعتذر الى الصباح .

ما غيّرني الملام لكن ... زادت شغفـاً بك اللوائم

أشكو كمـدي الى حبيبي ... يا من ولهي عليـه دائم

كم بتُ على فِراش حزن ... أبـكي وتغنيني الحمـائم

فصل

في قوله تعالى : (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً) المعنى : يصيِّرها رمالاً تسيل سيلاً ، ثم يُصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح ، (فيذرها) أي : يدع أماكنهامن الأرض إذا نسفها (قاعاً صفصفا) والقاع من الأرض : المستوي ، الذي يعلوه الماء. والصفصف : المستوي أيضاً ، يريد أنه لا نبت فيها (لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) العِوج : الأودية ، والأمتُ : الروابي . وقيل : العِوج : الميْـــلُ ،والأمت : الأثر. (يومئذ يتبعون الداعي) أي : يتبعون صوت الداعي للحشر (لا عوج له) أي : لا عوج لهم عن دعائه. والمعنى: لا يقدرون أن لا يتّبعوا (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا) طه : ١٠٥-١٠٨ . فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : وطء الأقدام . والثاني :تحريك الشفاه من غير نطق . والثالث : الكلام الخفيّ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : حدّثنا رسول الله ﷺ في طـائفـة من أصحابه فقال : « إن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض ، خـــلق الصُّور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه ، شاخص ببصره إلى الأرض ، ينظر متى يؤمر . قال : قلت : يا رسول الله ، وما الصور ؟ قال :القرن: قال : قلت : فكيف هو ؟ قال :عظيم والذي بعثني بالحق، إنّ عظم دارة فيه كعرض السماءوالأرض ،فينفخ فيه ثلاث نفخات .

النفخة الأولى : نفخة الفزع . والثانية : نفخة الصعق . والثالثة : نفخة القيام لرب العالمين ، فيأمر الله عز وجل إسرافيل بالنفخة الأولى . فيقول : انفخ نفخة الفزع ،فينفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات والأرض (إلا من شاء الله) ،فيأمره،فيمدهاويطيلها ، فلا يفتر.وهي التي يقول الله عز وجل :(وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق)

ص : ١٥ . فيسيّر الله الجبال ، فتمر مر السحاب ، فتكون سراباً ، فترتج الأرض بأهلها رجاً ، فتكون كالسفينة الموقفة في البحر تضربها الأمواج تكفأ بأهلها ، أو كالقنديل المعلق ترجحه الأرواح ، وهي التي يقول الله عز وجل فيها : (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة) النازعات : ٦-٩. فتميد الأرض بالناس على ظهرها ، وتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، ويشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتي الأقطار ، فتلقاها الملائكة ، فتضرب وجوهها فترجع ، ويولي الناس مدبرين (مالهم من الله من عاصم) يونس : ٢٧ . ينادي بعضهم بعضاً ، وهو الذي يقول الله عز وجل : (يوم التناد) غافر : ٣٢ . فبينما هم على ذلك تصدعت الأرض ، فانصدعت من قطر إلى قطر ، فرأوا عظيماً لم يروا مثله ، وأخذهم من ذلك الكرب والهول ما الله به عليم . ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل ، ثم انشقت فانتزعت نجومها ، وانخسفت شمسها وقمرها .

قال رسول الله ﷺ : « والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك » .

قال أبو هريرة : يا رسول الله ، فمن استثنى الله بقوله : (ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) النمل : ٨٧. قال : أولئك الشهداء وقاهم الله فزع ذلك اليوم ، وآمنهم منه . وهو عذاب يبعثه الله على شرار خلقه ، يقول الله عز وجل : (إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) الحج : ١-٢. فيمكثون في ذلك البلاء ما شاء الله ، إلا أنه يطول عليهم ، ثم يأمر الله عز وجل إسرافيل ، فينفخ نفخة الصعق ، فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله .

فإذا اجتمعوا ، جاء ملك الموت إلى الجبار فيقول : قد مات أهل السماء والأرض إلا من شئت ، فيقول الله عز وجل : — وهو أعلم — من بقي ؟ فيقول : أي رب ، قد بقيت أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيت حملة العرش ، وبقي جبريل وميكائيل ، فيقول : كتبت الموت على كل من تحت عرشي ، فيموتان ، ثم يأتي ملك الموت فيقول : قد مات

جبريل وميكائيل ، فيقول ـ وهو أعلم ـ فمن بقي ؟ فيقول : بقيت أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيت حملة العرش . وبقيت أنا ، فيقول الله تعالى : فلتمُت حملة العرش ، فيموتون ، ويأمر الله تعالى العرش ، فيقبض القرن من إسرافيل ، ثم يقول : ليمت إسرافيل ، فيموت ، ثم يأتي ملك الموت فيقول : يا رب قد مات حملة عرشك ، فيقول الله عز وجل : ـوهو أعلم ـ فمن بقي ؟ فيقول : بقيت أنت الذي لاتموت ، وبقيت أنا ، فيقول الله عز وجل : أنت خلق من خلقي ، خلقتك لما رأيت ، فمت ، فيموت ، فإذا لم يبق إلا الله عز وجل ، طوى السماء والأرض كطي السجل للكتب ، ثم دحاهما ، ثم قال : أنا الجبار ، لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ، فلا يجيبه أحد ، فيقول لنفسه : أنا الله الواحد القهار ، ثم يبسط الارض بسطاً يمدها مدّ الأديم (لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا) طه : ١٠٧ . ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة (فإذا هم بالساهرة) النازعات : ١٤. على ظهرها ، ثم ينزل الله عز وجل ماءً من تحت العرش كَمَنيّ الرجال ،ثم يأمر السماء فتمطر أربعين يوماً ، حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعاً ، ثم يأمر الله عز وجل الأجساد أن تنبت كنبات الطراثيث ، أو كنبات البقل ، حتى إذا تكاملت أجسادهم ، فكانت كما كانت ، قال الله عز وجل: ليحيا حملة العرش، فيحيون، فيأمر الله عز وجل إسرافيل، فيأخذ الصور فيضعه على فيه ، ثم يقول الله عز وجل: ليحيا جبريل وميكائيل ، فيحييان، ثم يدعو الله عز وجل الأرواح ، فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نوراً ، والأخرى ظلمة، فيقبضها جميعاً ، ثم يلقيها في الصور، ثم يأمر الله عز وجل إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح كأنها النحل ، قد ملأت ما بين السماء والأرض ، فيقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها .

وتدخل الأرواح في الخياشيم ، ثم تمشي في الأجسادمشي السم في اللديغ ، ثم تنشق الأرض عنهم سراعاً فأنا أول مَنْ تنشق عنه الأرض ، فيخرجون منها سراعاً مهطعين إلى الداع ، عراة حفاة ، ثم تقفون مقدار سبعين عاماً ، لا ينظر إليكم ولا يقضى بينكم ، فيبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يدمعون دماً ، وتعرقون حتى يبلغ ذلك منكم أن يلجمكم أو يبلغ الأذقان ، فيضجون ويقولون : من يشفع لنا إلى ربنا

عز وجل فيقضي بيننا ؟ فيقولون : من أحق بذلك من أبيكم آدم ؟ خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وكلمه قبلاً . فيأتون آدم ، فيطلبون ذلك إليه ، فيأبى ويقول : ما أنا بصاحب ذلك . فيستقرؤون الأنبياء نبياً نبياً ، كلما جاؤوا نبياً ، أبى عليهم .

قال رسول الله ﷺ : حتى يأتوني ، فأنطلق معهم حتى آتي قدام العرش ، فأخرّ ساجداً ، حتى يبعث الله ملكاً فيأخذ بعضدي ويرفعني ، ويقول : يا محمد ، فأقول : نعم يارب ، فيقول : ما شأنك ؟ ـ وهو أعلم ـ فأقول : يارب ، وعدتني الشفاعة فشفعني في خلقك ، فاقض بينهم ، فيقول : قد شفعتك . فأرجع فأقف مع الناس . فبينا نحن وقوف ، إذ سمعنا حساً من السماء شديداً ، فهالنا ، فنزل أهل السماء الدنيا ، فأخذوا مصافّهم ، ثم نزل أهل السماء الثانية بمثلي من نزل من الملائكة ومثلي من فيها من الجن والإنس حتى أخذوا مصافهم ، حتى ينزل الجبار تبارك وتعالى في ظلل من الغمام (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) الحاقة : ١٧ . وهم اليوم أربعة ، أقدامهم في تخوم الأرض السفلى ، والأرض إلى حجزهم ، والعرش إلى مناكبهم ، لهم زجلٌ من تسبيحهم ، يقولون : سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يموت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس ، سبحان ربنا الأعلى ، رب الملائكة والروح ، فيضع الله كرسيّه حيث شاء من أرضه ، ثم يقول : يا معشر الجن والإنس ، قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم ، وأنظر أعمالكم ، فانصتوا فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومنّ إلا نفسه .

ثم يأمر الله تعالى جهنم ، فيخرج منها عنق مظلم ، ثم يقول الله عز وجل : (وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأنِ اعبدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً ، أفلم تكونوا تعقلون ، هذه جهنم التي كنتم توعدون) يس : ٥٩-٦٣ . فيميز الله الناس ، وتجثو

الأمم ، فيقضي الله بين الوحش والبهائم ، حتى انه ليقيد الجمّاء من ذات القرن ، فإذا لم تبق تبعة عند واحدة لأخرى ، قال : كوني تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر : (يا ليتني كنت ترابا) فيقضي الله بين العباد ، فيكون أول ما يقضي فيه الدماء ، فيأمر الله كل من قتل بحمل رأسه تشخب أوداجه ، فيقول : يا رب ، سل هذا فيم قتلني ، فلا تبقى نفس قتلها قاتل إلا قتل بها ، ولا مظلمة ظلمها إلا أخذ بها ، وكان في مشيئة الله عز وجل ، إن شاء عذبه ، وإن شاء رحمه .

ثم يقضي بين من بقي من خلقه ، حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها المظلوم ، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه ، أن يخلص اللبن من الماء ، فإذا فرغ من ذلك ، نادى منادٍ يسمع الخلائق كلهم ، فيقول : ألا ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله ، فلا يبقى أحد عبد شيئاً من دون الله إلا مثلت له الآلهة بين يديه ويجعل الله عز وجل يومئذٍ ملكاً من الملائكة على صورة عزير ، ويجعل ملكاً من الملائكة على صورة عيسى بن مريم ، فيتبع هذا اليهود ، ويتبع هذا النصارى ، ثم قادتهم آلهتهم إلى النار ، فإذا لم يبق إلا المؤمنون وفيهم المنافقون ، جاءهم الله عز وجل فقال : يا أيها الناس ، ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون . فيقولون : مالنا إله إلا الله ، وما كنا نعبد غيره ، فيكشف لهم عن ساق ، ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون أنه ربهم ، فيخرون سجداً على وجوههم ، ويخر كل منافق ، فيجعل الله أصلابهم كصياصي البقر ، ويضرب الله الصراط بين ظهراني جهنم كحد السيف ، عليه كلاليب وخطاطيف ، وحسك كحسك السعدان ، فيمرون كطرف العين ، أو كلمح البصر ، ، أو كمر الريح ، أو كجياد الخيل ، أو كجياد الركاب ، أو كجياد الرجال ، فناجٍ مسلم ، ومخدوش ومكردس على وجهه في جهنم .

قال رسول الله ﷺ : « فآتي باب الجنة ، فأستفتح فيفتح لي ، فإذا دخلت فنظرت إلى ربي عز وجل ، خررت ساجداً ، فيأذن لي من حمده وتمجيده بشيء ما أذن لأحد من

خلقه ، ثم يقول : ارفع رأسك يا محمد ، واشفع تشفّع ، وسل تعط ، فأقول : يارب ؛ وعدتني الشفاعة ، فشفعني في أهل الجنة ، فيقول: قد شفعتك وأذنت لهم في دخول الجنة .

قال رسول الله ﷺ : « والذي بعثني بالحق ، ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ، فيدخل كل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة ، فيدخل على الأولى منهنّ في غرفة من ياقوتة ، على سرير من ذهب ، مكلل باللؤلؤ ، عليها سبعون حلة من سندس واستبرق ، فبينا هو عندها لا يملها ولا تمله ، ما يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ، ثم يأتيهن واحدة واحدة ، وكلما جاء واحدة قالت : والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك ، وما في الجنة شيء أحب إلي منك .

وإذا وقع أهل النار في النار ، فمنهم من تأخذه إلى قدميه ، ومنهم من تأخذه إلى نصف ساقيه ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حقويه ، ومنهم من تأخذ جسده كله إلا وجهه ، فأقول : يا رب في النار من أمتي ، فيقول : أخرجوا من النار من عرفني ، ثم يأذن الله عز وجل في الشفاعة ، فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفع ، ثم يقول الله عز وجل : أخرجوا من وجدتم في قلبه زنة الدينار إيمانا ، فيخرجون ، ثم يقول : أخرجوا من وجدتم في قلبه إيمانا ثلثي دينار ونصف دينار ، إلى أن يقول : حبة خردل ، حتى ما يبقى فيها من عمل لله خيراً ، حتى ان إبليس ليتطاول مما يرى من رحمة الله رجاء أن يشفع له ، فيأخذ الله بيده ، فيخرج خلقاً لا يحصيه إلا الله ، كأنهم الحمم ، فينثرهم على نهر يقال له : الحيوان ، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ، ويكتب في رقابهم : الجهنميون عتقاء الله . فيمكثون في الجنة ما شاء الله كذلك ، ثم يقولون : ربنا امح عنا هذا الكتاب ، فيمحى عنهم » .

مضى زمن الصبا وحب الحبائب ، كفاك زجراً ووعظاً شيب الذوائب ، أفق لنفسك واسمع قول المعاتب ، لا تغترر بالاماني فرب خائب ، ياغافلاً فاته عن أفضل المناقب ، أين البكاء لخوف العظيم المطالب ؟ ليت الزمان الذي ضاع في الملاعب نظرت فيه إلى آخر العواقب ، كم في القيامة من أدمع سواكب ، على ذنوب حواها كتاب

كاتب ، من لي إذا قمت في موقف المحاسب ؟ فقيل لي : ما صنعت في كل واجب ؟ ترجو النجاة وتلهو يا شر لاعب ، الموت صعب شديد مر المشارب ، يلقى بشدة بأس صدور الكتائب ، فانظر لنفسك واذكر قدوم غائب ، يأتي بقهر يرمي بسهم صائب ، يا آملاً أن يبقى آمناً للنوائب ، بنيت بيتاً ولكن بنسج العناكب ، أين الذين علوا متون الركائب ؟ دب الهلاك اليهم مثل العقارب ، ضاقت بهم للمنايا كل المذاهب ، وأنت بعد قليل حلف المصائب ، فانظر وفكر ودبّر قبل العجائب .

يامن قد أخذ الموت منه ولداً وعرسا ، وغرس بعضه في القبور غرسا ، كم رأيت مصبحاً في الدنيا ما أمسى ، كم عاينت بطاشا كف الموت منه خمسا ، كأنك باليقين قد جاء فرفع شكاً ولبسا ، وكأنك بمركب العمر على اللحد قد أرسى ، وسكنت بعد القصور العالية حفرة ورمسا ، أرأيت في الحبوس مثل القبر حبسا ؟ وعلمت أن جميع مالك لايساوي فلسا ، وتخلع ثيابك فتكسى من التراب لبسا ، وينساك من كان خدينا ورفيقاً وأنسا ، تركوا والله ذكرك فوقعت في المنسى ، ولو بكوا ما انتفعت ، ولو ندبتك الخنسا ، ودرسك البلى بكلكله درسا ، ويحك الى متى تؤثر نجساً ورجسا ؟ متى تحصل تطهيراً بالتوبة وقدسا ، ؟ أفٍ لقلبك ما أصلبه وما أقسى ، أتؤثر مايفنى على مايبقى ؟ تعساً لرأيك تعساً ، ويحك خلص نفسك فيالها نفساً ، أما هذا بين يديك ؟ ما أكثر ماتنسى ، ثم تقوم من قبرك وقدسكتتِ الألسنُ هيبة حتى كأنها خرسا ، (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) يوم تنكدر النجوم ، وتنقلع الجبال من أصول التخوم ، وتصعد القلوب الى الحلقوم ، وكل فرحان بالهوى فهو مغموم ، وكل ذي طرب باللذات مهموم ، يرتعد العاصي كأنه محموم ، وينشر الكتاب المطوي المختوم ، ويظهر من الهول ما لم يكن في الوهوم ، فتحير العقول وتذهل الفهوم ، ويعم الإزعاج الخصوص والعموم ، ويتمنى الموجود أنه معدوم ، هذا والنار حول العُصاة تحوم ، فإذا أخذتهم لم يبق شحوم ولا لحوم ، والشراب الحميم والمأكول الزقوم ، يابئس المشروب ويابئس

المطعوم ، (لكل باب منهم جزء مقسوم) ، تالله إن نسيان هذا جهل ولؤم ،ألا ينتبه من رقدته هذا النؤوم ؟ جسده عندنا وقلبه في الروم ، متى ترى هذه الأهوال ، حين ينشق القبر ويقوم ؟ (وعنت الوجوه للحي القيوم) طه : ١١١ .

اللهم سلمنا من تلك الأهوال ، وآمنا من الفزع والزلزال ، وارزقنا الاستعداد لما وعدتنا ، وأدم لنا إحسانك ومعروفك كما عودتنا . وأتمم علينا نعمتك وفضلك ومنتك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، الأحياء منهم والميتين ، برحمتك ياأرحم الراحمين .



المجلس الرابع والسبعون

في ذكر جهنم اعاذنا الله الكريم منها

الحمد لله الحي القيوم ، الباقي وغيره لايدوم ، رفع السماء مزينة بالنجوم ، وأمسك الأرض بجبال في التخوم ، بنى بحكمته هذه الجسوم ، ثم أماتها ومحا الرسوم ، ثم ينفخ في الصور فإذا الهالك يقوم ، فالمؤمن الى جنة لذيذة المطعوم ، والمشروب والمشموم ، والكافر الى ناريلقى منها عذاب السموم ، (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) الحجر : ٤٤ .

أحمده حمداً يبلّغ أقصى المروم ، وأقر بوحدانيته لا كاعتقاد الروم ، وأصلي على رسوله محمد صلى الله عليه عدد قطرات الغيوم ، وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذيذكره للرافضة شجى في الحلقوم ، وعلى عمر الذي عمر بعدله الخصوص والعموم ، وعلى عثمان الشهيد التقي المظلوم ، وعلى علي الذي اصطلح على فضله الخصوم ، وعلى سائر آلهوأصحابه العدول ، فما فيهم ملوم ، وسلم تسليماً .

قال الله تعالى : (وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب) .الحجر : ٤٣ .

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إن أبواب جهنم هكذا ، بعضها فوق بعض ، وأومأ أبو شهاب بأصابعه .

وعن ابن جريج في قوله تعالى : (لها سبعة أبواب) قال : أولها جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية .

وقال الضحاك : هي سبعة أدراك بعضها فوق بعض ، فأعلاها فيه أهل التوحيد ، يعذبون على قدر ذنوبهم ثم يخرجون . والثاني : فيه النصارى ، والثالث : فيه اليهود ،

والرابع : فيه الصابئون ، والخامس : فيه المجوس ، والسادس : فيه مشركو العرب ، والسابع : فيه المنافقون .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « أُوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة » .

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « ناركم هذه الذي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم ، قالوا : والله إن كانت لكافية يارسول الله ، قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » . أخرجاه في الصحيحين .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » . رواه مسلم .

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض ، لأمرّت على أهل الدنيا معيشتهم ، فكيف بمن هو طعامه وليس له طعام غيره » .

وعن كعب قال : قال عمر بن الخطاب يوماً وأنا عنده : يا كعب خوّفنا ، قلت : يا أمير المؤمنين ، أوليس فيكم كتاب الله وحكمة رسول الله ﷺ ؟قال : بلى ، ولكن خوفنا . قلت : يا أمير المؤمنين ، إعمل عمل رجل لو وافيت القيامة بعمل سبعين نبياً لازدريت عملك مما ترى . فأطرق عمر ملياً ثم أفاق ، فقال : زدنا يا كعب ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ، ورجل بالمغرب ، لغلى دماغه حتى يسيل من حرها . فأطرق عمر ملياً ثم أفاق فقال : زدنا يا كعب ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن جهنم لتزفر يوم القيامة زفرة لا يبقى ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، إلا خرّ جاثياً على ركبتيه ، يقول : نفسي نفسي ، لا أسألك اليوم إلا نفسي .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدد عندهم ماهم فيه من العذاب ، فيستغيثون ، فيغاثون بطعام ذي غصة ، فيذكرون أنهم يجيزون

الغصة بالشراب ، فيستغيثون بالشراب ، فيغاثون بالحميم ، يتناولونه بكلاليب من حديد ، فإذا دنا منهم ، شوى وجوههم ، وإذا دخل في بطونهم ، قطع أمعاءهم ، فيطلبون إلى خزنة جهنم أن ادعوا ربكم ، يخفف عنا يوماً من العذاب ، فيجيبونهم أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : فادعوا ، (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) الرعد : ١٤ . فيقولون : سلوا مالكاً ، فيقولون : (يامالك ليقض علينا ربك) الزخرف : ٧٧ . فيقولون : إنكم ماكثون ، فيقولون : لا أحد خير لكم من ربكم ، فيقولون : (ربنا أخرجنا منها ، فإن عدنا فإنا ظالمون) فيقول الله عز وجل : (اخسئوا فيها ولا تكلمون) المؤمنون : ١٠٧ ١٠٨ . فعند ذلك ييأسون من كل خير ، ويأخذون في الشهيق والويل والثبور .

وقال كعب : الفلق بيت في النار ، إذا فتح صاح منه جميع أهل النار .

وقال شفي بن مانع : ان في جهنم وادياً فيه حيات وعقارب في فقار إحداهن مقدار سبعين قلة سم ، والعقرب منهن مثل البغلة الموكفة .

وقال أبو مثنى الأملوكي : إن في النار أقواماً يربطون بنواعير من نار ، تدور بهم تلك النواعير ، مالهم فيها راحة ولا فترة .

قال أحمد بن أبي الحواري : قال لي أبو سليمان الداراني : ربما مثل لي رأسي بين جبلين من نار ، وربما رأيتني أموت بينهما ، فكيف يهنأ بالدنيا من هذه صفته ؟. قال : فحدثته أن الحسن قال : مافي جهنم وادٍ ولا مغار ولا غل ولا سلسلة إلا واسم صاحبها مكتوب عليها ، فبكى وعدت إليه في بعض الأيام وهو يبكي ، فقلت : مايبكيك ؟ قال : أبكي لذلك الغم الذي ليس فيه فرج ، ولذلك الأمد الذي ليس له انقطاع .

روى محمد بن علي عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أصحاب الكبائر من مؤخري الأمم كلها الذين ماتوا على كبائرهم غير نادمين ولا تائبين ، من دخل منهم في الباب الأول من جهنم ، لاتزرق أعينهم ، ولا تسود وجوههم ، ولا يقرنون مع الشياطين ، ولا يغلون بالسلاسل ، ولا يجرعون الحميم ، ولا يلبسون القطران ، حرم الله

أجسادهم على الخلود من أجل السجود . منهم من تأخذه النار الى قدميه ، ومنهم من تأخذه النار الى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار الى حقويه ، ومنهم من تأخذه النار الى عنقه ، كل على قدر ذنوبهم وأعمالهم . ومنهم من يمكث فيها شهراً ويخرج منها ، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها ، وأطولهم فيها مكثاً كقدر الدنيا منذ يوم خلقت الى أن تفنى ، فإذا أراد الله أن يرحمهم ويخرجهم منها ، قالت اليهود والنصارى ومن في النار من أهل الأديان لمن في النار من أهل التوحيد : آمنتم بالله وكتبه ورسله ،ونحن وأنتم اليوم في النار سواء . قال : فيغضب الله غضباً لم يغضبه لشيءٍ فيما مضى ، فيخرجهم الى عين فيما بين الجنة والنار ، فينبتون فيها نبات الطراثيث ، أو نبات الحبة في حميل السيل ، فـيما يلي الشمس منها أخضر ، وما يلي الظل منها أصفر ، ثم يدخلون الجنة مكتوب في جباههم : الجهنّميون ، فيمكثون في الجنة ماشاء الله أن يمكثوا ، ثم يسألون الله أن يمحو ذلـك الاسم عنهم ، فيبعث الله ملكاً فيمحوه منهم ، ثم يقول الله لأهل الجنة : اطلعوا الى من بقي في النار ، فيطلعون اليهم ، فيقولون : (ماسلككم في سقر) بعد خروج الناس منها؟ فيقولون : (لم نك من المصلين) المدثر : ٤٢ ـ ٤٣ . أي : لو كنا منهم ، لخرجنا معهم. ثم يبعث الله ملائكة معهم مسامير من نار ، وأطباق من نار ، فيطبقونها على من بقي فيها ، ويسمرونها بتلك المسامير ، ثم ينساهم الجبار عز وجل من رحمته ، ويشتغل عنهم أهل الجنة بنعيمهم ولذاتهم ،وذلك قوله تعالى : (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) الحجر : ٢ .

هل ترى فيك مطمع   هل ترى الزجر ينفع
يا عتابـاً يضيّـع   في أذن ليس تسمـع

إخواني : الزمان يهدم الأعمار ، ويكفي انتقال الأقران في الإنذار . هذا الموت بالرصد ، لايبقي على أحد ، فاستدركوا عمراً يفوت ، ولينتبه الحي قبـل أن يموت ، فأموالكم بعدكم مواريث ، وأنتم عن قليل أحاديث .

واعجبا لفَطِن قد غر ، يؤثر على النفع مايضر ، ويشتري بعر الهوى بثمن الدر ، قد صار عبداً للشهوات وهو حر .

ياغافلاً عن أسباب المصالح ، أترضى بالشين والقبائح ؟ كـأنك بك قد قامت النوائح ،ونقلت إلى بطون الصفائح ، ثم قمت ولا عمل صالح ، فاستشهدت عليه الجوارح ، وربما عاسر المسامح . نبه هذه النفس النائمة ، أعلمها ماهي عليه قادمة ، قل لها : الى متى ياظالمة ؟! من لها إذا شقيت بجهلها ، وعلمت منازل المتقين وليست من أهلهـا ، وغلت إذ غلت فاغتيلت بغلها ، وأكرم المتقون وأهينت بذلها .

إلا مَ هذه الآمال ، والناس كلهم على ارتحال ؟! واعجباً ممن ينسى المآل ، وقد شدت الرحال ، الى كم تطمع في محال ؟ الى متى توغل في الضلال ؟ أترضى بهذا المحال؟ أما المواعظ قد صدقت ، أما الزواجر قد نطقت ؟ أما تعتبر بأمم قد سبقت ؟ أما رأيت خسار أكف بالهوى علقت ؟

وكم من عبرة أصبحت فيها	يلين لها الحديد وأنت قاسي
الى كم والمعـاد إلى قريب	تذكر بالمعاد وأنت ناسي

يامن على الخطايا والبلايا قد انهمك ، أغضبت المالك وأتعبت الملك ، أما بطش الموت بأقرانك وفتك ؟ هل أهمل حياً في حي أوترك ؟ ياطائراً لابد أن يعلقه الشرك ، الى متى يدور بسلامتك الفلك ؟ لابد أن يقال يوماً : فلان هلك ، كأنك بمشيد عمرك قد هدم ، وبباب القبر عليك قد ردم ، وبجيرانك ممن مات قبلك وعـدم ، يقولون : لامرحباً بمن قدم .

يامفتوناً بحب الهوى ، يامن كلما ترقى عن الحضيض هوى ، يامن إذا قوّم بالزجر التوى ، يامريضاً قد يئس منه الدوا ، لقد خاب من باع باقياً بفان ، وخطر في ثوبي غافل متوانٍ ، وسها عن أمر قريب دانٍ ، وضيع يوماً موجوداً تأميل ثانٍ ، ينصب الصراط على جهنم ، وتمشي عليه وما تدري هل تسلم ؟ ويوضع الميزان وتقـدم ، أسمعت ماقلنا أو ماتفهم ؟ إذا مر عليها المؤمن بالله وبالنبي ، قالت : جز يامؤمن فقد أطفأ نورك

لهي . إذا رأت من جهر بالخير وما خافت خافت ، وإذا شاهدت أجساداً باينت الحرام وعافت عافت . المعاصي تذل الإنسان ، وتخرس اللسان ، وتغير الحال المستقيم ، وتجعل الاعوجاج مكان التقويم .

قال بعض السلف : رأيت في بعض الجبال شاباً أصفر اللون ، غـائر العينين ، مرتعش الأعضاء ، لايستقر على الأرض ، كأن به وخز الأسنة ، ودموعه تتحادر ، فقلت : من أنت ؟ فقال : آبق هرب من مولاه ، قلت : فيعود ويعتذر ، فقال : العذر يحتاج الى إقامة حجة ، فكيف يعتذر المقصر ؟ فقلت : يتعلق بمن يشفع فيه ، فقال : كل الشفعاء يخافون منه ، قلت : فمن هو ؟ قال : مولىً رباني صغيراً فعصيته كبيراً ، شرط لي فوفاني ، وضمن لي فأعطاني ، فخنته في ضماني ، وعصيته وهو يراني ، فواحيائي من حسن صنعه ، وقبيح فعلي ، فقلت : أين هذا المولى ؟ فقال : أين توجهت لقيت أعوانه ، وأين استقرت قدمك ففي داره ، فقلت : ارفق بنفسك ، قد أحرقك هذا الخوف . فقال : الحريق بنار خوفه أحق وأولى ، لعله يرضى ، ثم أنشأ يقول :

لم يبق خوفك لي دمعاً ولا جلدا	لاشك أني بهـذا ميّت كمدا
عبد كئيب أتى بالعجز معترفا	وناره تحرق الأحشاء والكبدا
ضاقت مساكنه في الأرض من وجل	فهب له منك لطفاً إن لقيك غدا

فقلت له : ياغلام ، الأمر أسهل مما تظن ، فقال : هذا من فتن البطالين ، هبه تجاوز وعفا ، أين آثار الإخلاص والصفا ، ثم صاح صيحة فخر ميتا .

فخرجت عجوز من كهف جبل ، عليها ثياب رثة فقالت : من أعان على البائس الحيران ؟ فقلت : ياأمة الله ، دعوته إلى الرجاء ، فقالت : قد دعوته إلى ذلك ، فقال : الرجاء بلا صفاء شرك ، قلت : من أنت منه ؟ قالت : والدته ، فقلت : أقيم عندك أعينك عليه ؟ فقالت : خله ذليلاً بين قاتله ، عساه يراه بغير معين فيرحمه ؟ فلم أدر من ماذا أعجب ؛ من صدق الغلام في خوفه ، أو من قول العجوز وحسن صدقها .

فصل

في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) وقاية النفس بامتثال الأمر واجتناب النهي ، ووقاية الأهل بأن يؤمروا بذلك .

(وقودها الناس والحجارة) الوقود : بفتح الواو ، الحطب . واعلم أن الناس يوقدون في النار على جهة التعذيب ، والحجارة أوقدت لبيان قوتها وشدتها . وفي هذه الحجارة قولان .

أحدهما : أنها أصنام المشركين التي عبدوها . والثاني : أنها حجارة الكبريت ، وهي أشد الأشياء حراً إذا حميت ، يعذبون بها . (عليها ملائكة غلاظ شداد) التحريم : ٦ .

قال ابن عباس : خزنة جهنم تسعة عشر ، مابين منكبي أحدهم ستون سنة ، وقوته أن يضرب بالمقمعة فيدفع بتلك الضربة سبعين ألفاً ، فيهوون في قعر جهنم .

وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « لو أن مقمعاً من حديد وضع في الأرض ، فاجتمع أهل الأرض ما أقلّوه » .

وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ فقال له : والذي بعثك بالحق ، لو أن خازناً من خزنة جهنم برز إلى الدنيا حتى ينظروا إليه ، لمات من في الأرض كلهم جميعاً من قبح وجهه ، وتشويه خلقه ، ونتن ريحه .

لقد أزعج ذكر النار قلوب الخائفين ، وأطار نوم العيون عن جفون العابدين .

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرب يده من المصباح ويقول : يا عمر ألك صبر على هذا ؟.

وكان الأحنف بن قيس يقرّب يده من المصباح ويقول : يا حُنَيف ، ما حملك على ذنب كذا وكذا ؟

وكان شداد بن أوس إذا آوى إلى فراشه ، يتقلب كالحبة على المقلى ،ويقول : اللهم إن ذكر جهنم لايدعني أنام .

يا هذا ، لو أحببت نفسك لما عرضتها للعذاب ، ولو عرفت مرارة الخجل لحذرت العتاب ، لقد حمّلت نفسك ما يثقلها ، حسبك ما مضى أتلفتها ، إنما الدنيا منازل تنزلها ، يا طول سفرة الموت أوّلها ، أين جزع النفس أين تململها ؟ أما هذا بين يديها فماذا يشغلها ؟ تتوب وتنقض ، إلام تزلزلها؟ كأنها بالموت قد أتى فذللها ، وسبقه رائد المرض يستعجلها ، الحذر الحذر ، فقد فوّق السهام مرسلها ، البدار البدار ، فقد جلا السيوف صيقلها .

قل لنفسك المجهولة الأمّارة : أما للصلاح عندك أمارة ؟ كم يمين ولا حنث ولا كفارة ، وطريق خوف ولا لك خفارة ، لا تحقري ذنباً فقد تحرق شراره . احذر الدنيا فإنها مكّارة ، لا تثق بأيمانها فإنها غدارة ، لا تغتر بها فإنها سحّارة ، بينما قد عقدت هدنة شنّت غارة ، تنشف صافي الكأس وتبقى الكدارة ، ثم تنتقل إلى لحدٍ بلا عمارة ، ثم تقوم نادماً وفي الدموع غزارة ، ثم تعاين ناراً شديدة الحرارة (وقودها الناس والحجارة) .

دار قد خصّ أهلها بالبعاد ، وحرموا لذة المنى والإسعاد ، بدّلت وضاءت وجوههم بالسواد ، وضربوا بمقامع أقوى من الأطواد (عليها ملائكة غلاظ شداد) .

لو رأيتهم في الحميم يسرحون ، وعلى الزمهرير يطرحون ، وحزنهم دائم فمايفرحون ، مقامهم محتوم فما يبرحون ، أبد الآباد (عليها ملائكة غلاظ شداد) .

تعس كل منهم فما انتعش ، وشيك بالعذاب فما انتقش ، وأسفا قد قتلهم الحرّ والعطش ، والمصيبة إن القدر بهم بطش (ومن يضلل الله فماله هاد) عذابهم طريف بديع ، قد خرس الناطق وصم السميع (ليس لهم طعام إلا من ضريع) والشراب الحميم ، وهذا الزاد (عليها ملائكة غلاظ شداد) .

توبيخهم أعظم من العذاب ، تأسفهم أقوى من المصاب ، يبكون على تضييع أوقات الشباب ، وكلما جاء البكاء زاد (عليها ملائكة غلاظ شداد) .

يا حسرتهم لغضب الخالق ، يا محنتهم لعظم البوائق ، يا فضيحتهم بين الخلائق ، على رؤوس الأشهاد .

أين كسبهم للحطام ؟ أين سعيهم في الآثام ؟ كأنه كان أضغاث أحلام ، ثم أحرقت تلك الأجسام ، وكلما أهلكت تعاد (عليها ملائكة غلاظ شداد) .

يا من أعماله أعمال أهل النار ، ألَكَ قوة أم ثمّ اصطبار ؟ أما تعقل الوعيد ؟ أما تفهم الإنذار ؟ أترضى أن تسحب إلى جهنم وتقاد ؟ (عليها ملائكة غلاظ شداد) .

ويحك انتبه وأصلح قلبك ، ويحك تيقظ وافهم عتبك ، ويحك تب واترك ذنبك (ان ربك لبالمرصاد) الفجر : ١٤ .

قد بقي القليل وتنقل ، وإلى دار الجزاء تحمل ، كم أعلّمك وتجهل ، كم أقول لك ولا تقبل ، أنت في واد وأنا في واد .

اللهم أعتقنا من النار ، وسلمنا من دار البوار ، ووفقنا لسلوك سبيل عبادك الأخيار ، واغفر لنا جميع الذنوب والأوزار ، وعاملنا بمحض فضلك وكرمك يا أكرم الأكرمين ، وعمّنا بعفوك ومغفرتك ، . ووالدينا وجميع المسلمين ، الأحياء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الخامس والسبعون

في ذكر الجنة

الحمد لله مبلّغ الراجي فوق مأموله ، ومعطي اللاجئ زيادة على سؤله ، المنان على التائب بصفحه وقبوله ، خلق الآدميَّ وأنشأ داراً لحلوله ، وجعل الدنيا مرحلة لنزوله ، فتوطنها من لم يعرف شرف الدار الأخرى لخموله ، أو ماترى غربان البين تنوح على طوله ارحلوا عنها فربٌّ قفر يخاف من غوله ، (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أُعدّت للذين آمنوا بالله ورسوله). الحديد : ٢١ .

أحمده على نيل الغرض وحصوله ، وأُقر بوحدانيته إقرار عارف بالدليل وأصوله ، وأُصلي على محمد عبده ورسوله ، ما تردّد النسيم بين شماله وجنوبه وقبوله ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي يبغضه الرافضيُّ بفضوله ، وعلى عمر حامي الإسلام بسيف عزم لا يخاف من فلوله ، وعلى عثمان الصابر على البلاء حين نزوله ، وعلى علي الصائل بشجاعته قبل أن يصول بنصوله ، وعلى سائر آله وأصحابه صلاة دائمة ما امتد الدهر بطوله ، وسلم تسليماً .

عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس ، عن أبيه أن النبي ﷺ قال : « جنات الفردوس أربع ؛ ثنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما ، وثنتان من فضة آنيتهما وحليتهما ومافيهما ، وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » أخرجاه في « الصحيحين » .

وفيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ؛ عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله عز وجل قال : أعددت لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وفيهما من حديث أبي موسى رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « ان في الجنة لخيمة من درّة مجوّفة ، عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ، حدّثنا عن الجنة ، ما بناؤها ؟ قال : « لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم لا يبأس ، ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » .

وعن وهب بن منبه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خلق الله تعالى الجنان يوم خلقها ، وفضل بعضها على بعض ، فهي سبع جنان : دار الجلال ، ودار السلام ، وجنة عدن ، وهي قصبة الجنة ، وهي مشرفة على الجنان كلها ، وباب جنة عدن مصراعان من زمرد وزبرجد كما بين المشرق والمغرب ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة الفردوس ، وجنة النعيم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ان في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، وان جنة الفردوس أوسطها ، وأعلاها سماء ، وعليها موضع العرش يوم القيامة ، ومنها تفجر أنهار الجنة » .

قال رجل : بأبي وأمي يا رسول الله ، فيها خيل ؟ قال : « نعم والذي نفسي بيده إن فيها لخيلاً من ياقوتة حمراء ، تزف بهم من خلال ورق الجنة ، يتزاورون عليها » ، فجاء رجل فقال : بأبي وأمي يا رسول الله ، هل فيها إبل ؟ قال : « نعم والذي نفسي بيده ، ان فيها لإبلاً من ياقوتة حمراء ، أرحالها الذهب والفضة ، محفين نمارق الديباج ، تزف بهم بين خلال ورق الجنة ، يتزاورون عليها » . فجاء رجل فقال : بأبي وأمي ، هل فيها صوت ؟ قال : « نعم والذي نفسي بيده ، ان الله عز وجل ليوحي الى شجرة في الجنة أن أسمعي عبادي هؤلاء الذين شغلهم ذكري في الدنيا عن عزف المزاهر والمزامير بالتسبيح والتقديس » .

وعن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى : أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه فقال أبو هريرة : أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة فقال سعيد : أفيها سوق ؟ قال : نعم أخبرني رسول الله ﷺ : « أن أهل الجنة إذا دخلوها ، نزلوا فيها بفضل أعمالهم ، ثم يؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا ، فيزورون ربهم ، ويبرز لهم عرشه ، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة ، فيوضع لهم منابر من زبرجد ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم — وما فيهم دنيٌّ — على كثبان المسك والكافور ، مايرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً » ، قال . أبو هريرة : قلت : يارسول الله ، وهل نرى ربنا قال : « نعم ، هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر » ؟ قلنا : لا ، قال : « كذلك لاتمارون في رؤية ربكم ، ولا يبقى في ذلك المجلس رجل إلا حاضره الله محاضرة حتى يقول للرجل منهم : يافلان ، أتذكر يوم قلت كذا وكذا ؟ فيذكره بعض غدراته في الدنيا ، فيقول : يارب أفلم تغفر لي ؟ فيقول بلى ، فبسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه ، فبينما هم على ذلك ، غشيتهم سحابة من فوقهم ، فأمطرت عليهم طيباً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط . ويقول ربنا : قوموا الى ما أعددت لكم من الكرامة ، فخذوا ما اشتهيتم ، ونأتي سوقاً قد حفت به الملائكة ، فيه ما لم تنظر العيون الى مثله ، ولم تسمع الآذان ، ولم يخطر على القلوب . فيحمل لنا ما اشتهينا ، ليس يباع فيه شيء ، ولا يشترى .

وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضاً ، فيقبل الرجل ذو المنزلة المرتفعة ، فيلقى من هو دونه — وما فيهم من دني — فيروعه مايرى عليه من اللباس ، فما ينقضي آخر حديثه حتى يتخيل عليه ماهو أحسن منه ، وذلك أنه لاينبغي لأحد أن يحزن فيها ، ثم ننصرف الى منازلنا ، فتتلقانا أزواجنا ، فيقلن : أهلاً ومرحباً ، لقد جئت وإن لك من الجمال أفضل مما فارقتنا عليه ، فيقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ، ويحق لنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل أهل

الجنة على طول آدم ستين ذراعاً ، على حسن يوسف ، وعلى ميلاد عيسى ثلاثاً وثلاثين سنة ، وعلى لسان محمد ﷺ » .

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض ، فيسير سرير ذا ، إلى سرير ذا ، وسرير ذا ، إلى سرير ذا ، حتى يجتمعان ، فيتكىء هذا ، ويتكىء هذا ، فيقول أحدهما لصاحبه : تعلم متى غفر الله لنا ؟ فيقول صاحبه : نعم يوم كذا ويوم كذا ، في موضع كذا و كذا ، فدعونا الله فغفر لنا » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر فى ملكه ألفي سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، ينظر أزواجه وخدمه ، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله تعالى في كل يوم مرتين » .

وقبل شخوص المرء يجمع زاده　　　وتملأ من قبل الرماء الكنائن

حصادك يوماً مازرعت وإنما　　　يدان امرؤ يوماً بما هو دائن

إخواني : مضت الأعمار في الذنوب ، وامتلأت عِيَب القلوب بالعيوب ، وما راقبتم عالم الغيوب ، وأعظم المصائب ، فقد الطيب المطبوب ، وأطم العظائم يقظة الطالب وغفلة المطلوب ، فهل فيكم من يغسل درن ذنوبه بدمعه ؟ هل منكم معتذر من قبيح صنعه ؟ أين المتذكر حلول الموت بربعه ؟ أين من يزرع التقى ، هذا أوان زرعه ؟ تالله لو حضرت القلوب لطابت غير أنها غائبة ، ولو صدقت التوبة لقبلت ولكنها كاذبة .

عباد الله كيف بكم إذا فاز الأبرار وخبتم ، وحضر المتقون وغبتم ، كم ضيعتم الأوقات النفيسة ولعبتم ، ولو سمعتم وصفكم من غيركم تعبتم ، أما الموت عن قليل يأتيكم ؟ أما اللحود بعد أيام مثاويكم ؟ أما داعي الرحيل قد أسمعكم ؟ أما القيامة غداً تجمعكم ؟ كم بارزتم بذنب ومااستحييتم ، كم خوفتم من العقاب وما ارعويتم ، أعرفتم قدر ماعلى النفوس قد جنيتم ؟ أنسيتم أن الله يعلم ما أخفيتم ؟ لقد نهض المتقون نهضة عازم ، ولقد شد الصابرون لطلب الجنة الحيازم ، شغلهم تحصيل زادهم عن أهاليهم وأولادهم ، ومال

بهم عن المال ذكر المآل في معادهم ، وصاحت بهم الدنيا فما أجابوا شغلاً بمرادهم ، وتوسدوا أحزانهم بدلاً من وسادهم ، واتخذوا الليل مسلكاً إلى جدهم واجتهادهم ، وحرسوا جوارحهم بالليل والنهار عن غيهم وفسادهم ، فياطالب الهدى جز بناديهم ونادهم .

إذا ذكرتهم أسبلت واكفة من العيون فأسقي تربهم سحباً

جهد المقل الذي عزت مطالبه وهل يرد بكاءُ العين ماذهبا ؟

فصل

في قوله تعالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن)

قال أبو عبيدة والزجاج : الآسن : المتغير الريح . وقال ابن قتيبة : هو المتغير الريح والطعم . (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) وذلك لأن العادة تغير طعم اللبن إذابقي (وأنهار من خمر) قال الحسن : خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن . (لذة للشاربين) أي ذات لذة . (وأنهار من عسل مصفى) محمد : ١٥ . أي : ليس فيها سكر ولا كدر .

في « الصحيحين » من حديث سهل بن سعد ، عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة ثمانية أبواب ، فيها باب يسمى الريان ، لا يدخله إلا الصائمون » .

وعن علي رضي الله عنه قال : يساق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا انتهوا إلى أول باب من أبوابها ، وجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان ، فعمدوا إلى إحداهما كأنما أمروا بها ، فشربوا منها ، فأذهب مافي بطونهم من قذى وأذى ، ثم عمدوا إلى الأخرى ، فتطهروا منها ، فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلن تتغير أبشارهم بعدها أبداً ، ولن تشعث أشعارهم ، كأنما دهنوا ، ثم انتهوا إلى خزنة الجنة ، فقالوا : (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) الاعراف : ٤٦ .

ثم تتلقاهم الولدان ، يطوفون بهم كما يطوف ولدان أهل الدنيا بالحميم يقدم من

غيبته « يقولون له : أبشر بما أعد الله لك من إكرامه ، قال : ثم ينطلق غلام من أولئك الغلمان الى بعض أزواجه من الحور العين ، فيقول : قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا ، فتقول : أنت رأيته ؟ فيقول : أنا رأيته ، وهو ذا بأثري ،فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكفة بابها ، فإذا انتهى الى منزلها، نظر أي شيءأساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ ، فوقه صرح أخضر وأصفر وأحمر ومن كل لون ، ثم رفع رأسه ، فنظر الى سقفه ، فإذا مثل البرق، فلولا أن الله تعالى قدره له لألمّ أن يذهب ببصره ، ثم طأطأ رأسه ، فنظر الى أزواجه : (وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة) الغاشية : ١٤ - ١٦ . فقالوا : (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) الاعراف ٤٣ . ثم ينادي منـــاد : تحيون فلا تموتون ، وتقيمون فلا تظعنون .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إن أدنى أهل الجنة منزلة ، من يغـــدو عليه كل يوم ويروح خمسة عشر ألف خادم ، ليس منهم خادم إلا معه طرفة ليست مع صاحبه .

واعلم أن الله عز وجل ذكر نعيم الجنة مبسوطاً في مواضع من القرآن ، ثم جمعه في آيات ، منها قوله تعالى : (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعـــين) الزخرف : ٧١ . وقال: (لا يبغون عنها حولا) الكهف : ١٠٨ . وقال : (أولئك لهم الأمن) الأنعام: ٨٢ . فهذه الآيات الثلاث قد جمعت كل نعيم .

واعلم أن الجنة التي سمعت وصفها محفوفة بالمكاره ، فمتى أردتها فاصبر على ماتكره، لعلك تنال ما تحب .

واعلم أن الدنيا والآخرة ضرّتان ، متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى .

واعلم أن جمهور الخلق همهم الجنة ، ويندر من الناس من يعمل شوقـاً إلى رؤية الله عز وجل ومحبة له ، أولئك الكاملون الأقلون عدداً ، الأعظمون قدراً .

روي عن ميسرة الخادم قال : غزونا في بعض الغزوات ، فصففنا لعدونا ، فإذا بفتى إلى جانبي مقنّع بالحديد ، فحمل على الميمنة حتى ثناها ، ثم حمل على الميسرة حتى ثناها ، ثم حمل على القلب حتى ثناه ، ثم أنشأ يقول :

أحسنِ بمولاك سعيد ظنّا — هذا الذي كنت له تمنى
تنح يا حور الجنان عنّا — مالك قاتلنا ولا قُتلنا
لكن إلى سيِّدكن اشتقنا — قد علم السر وما أعلنا

قال : فحمل فقتل منهم عدداً ، ثم رجع إلى مصافّه ، فتكالب عليه العدو ، فإذا به قد حمل عليهم وأنشأ يقول :

قد كنت أرجو ورجائي لم يخب — أن لا يضيع اليوم كدي والتعب
يا من ملا تلك القصور باللعب — لولاك ما طابت ولا طاب الطرب

فحمل فقتل منهم عدداً ، ثم رجع إلى مصافه ، فتكالب عليه العدو ، فحمل الثالثة وأنشأ يقول :

يا لعبة الخلد قفي ثم اسمعي — مالكِ قاتلنا فكفي واربعي
ثم ارجعي إلى الجنان واسرعي — لا تطمعي لا تطمعي لا تطمعي

فحمل فقاتل حتى قتل .

أهل الدنيا لما صفوا عملهم في هذه الدار ، صفا جزاؤهم من الأكدار . سبحان من صفّى لمن صفا ، طالما قاموا بالجهاد صفاً ، وحملوا الأثقال على الأرواح ضعفاً ، فأعطاهم من الجزاء ضعفاً ضعفا ، وتقبل منهم عدلاً ، وقبل منهم صرفاً ، وصرف عنهم ما يؤذي صرفاً ، وشفى تائبهم بعد أن أشفى .

كانوا يندبون ندب الحمامة فارقت إلفا ، ويحتقرون عدد الركعات وربما كانت ألفا ، حزينهم من الخوف يكاد يطفى ، كانت دموعهم على الأجفان وقفاً ، تجري وبلا وتكف وكفاً ، يذكرون كتاباً لا يغادر حرفاً ، فلما قدموا عليه أوسعهم لطفاً ،

يبست شفاههم بالصيام فسقاهم لما لقوه صرفا ، وقد ذكر بعض ثوابهم وأضعاف المذكور أخفى (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى) محمد : ١٥.

اللهم يا من فتح بابه للطالبين ، وأظهر غناه للراغبين ، نسألك أن تسلك بنا مسلك الصادقين ، وأن تلحقنا بعبادك الصالحين .

اللهم أحي قلوباً أماتها البعد عن بابك ، ولا تعذبها بأليم حجابك ، يا أكرم من سمح بالنوال ، وأوسع من جاد بالإفضال .

اللهم أيقظنا من غفلتنا بلطفك وإحسانك ، وتجاوز عن جرائمنا بعفوك وغفرانك ، وارزقنا مارزقت أولياءك من نعيم قربك ، ولذة مناجاتك ، وصدق حبك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، الأحياء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين .



خاتمة

في التعازي ومواعظ منثورة

الحمد لله منبّه الراقدين في غفلاتهم بالزواجر ، ومذكر المنهمكين في شهواتهم بالمقابر ، وكاشف العواقب للعقلاء ، فاللبيب يرى الآخر ، إن الدنيا قد أفصحت بعِبرِها في غيرها ، فالعجب لعين الناظر .

فسبحان من جعلها معبْر عِبر ، ووعظ بمن رحل عنها من عَبر ، فالعجب لمن خَبر أمرها ثم ما عنده خبر ، أما يكفي من الزواجر تصرف الغِيرِ ؟ أينفع من الموت احتراز أو يرد حذر ؟ أما فيكم من حضر لدَي محتضر ؟ أما رأيتم حاله وسمعتم مقاله ؟ أم ليس ثم سمع ولا بصر .

أما الأعمار وإن طالت ذوات قِصَر ؟ أما تيقنتم أنه سيطوي البشر من نشر ؟ أما مآل ذوي الترفِ إلى بيوت المدر ؟ أيبكي فاقد الإلفِ إلفه ، وينسى نفسه ويذر ؟ إن الجزع يضرّ الجازع ، وإنما النافع صبر من صبر .

قصّر بدنياك الأمل	من قبل إدراك الأجل
فلترحلنّ كمثل مَن	قد كان قبلك وارتحل
واحذر وقوفك في غدٍ	عند الحساب من الخجل
وقد اعترفت بما اقترفت من الخطايا والزلل	
فإلى متى هذا الفتو	ر وذا التواني والكسل

إلام نسيان العواقب ؟ وقد رؤيت في الأغيار . وحتام مساكنة النفوس وقد تيقن أنها شرٌ جار ؟ وعلام معاتبة القدر وما جرى قط فجار ؟ ولم يؤثر حمل الآصار لما

قد عُو ين إلى ما صار، ولقد ضلّ من استظل بظلال دار. ومن جوانبها حتف نفار بها قد دار ، فالعاقل من نهض بالعزم وثار ، وتفكر في أبيه وجده واعتبر بالآثار ، وتذكر يوم مردّه في الدجى فهجر الدثار .

إنما الدنيا لمن تدبرها واعظة ، فهي لكل لحظة بالإنذار لاحظة ، وفي كل لفظة بالاعتبار لا فظة .

بينما حلوها يحلو حال ، فلا تثبت لمريد على حال ، وبينا الإنسان بين الأهل والآل ، صار إلى البلى صريعاً وآل .

كم سِنّ ضحكت من طرفٍ سال ؟ وكم ظاهر سلامةٍ في باطنه إنسال ؟ وكم رأينا حياً في الحي قد جال ، إذ لاح فاضطره مبيد الآجال . هيهات أخرجته الأملاك عن صفايا الأملاك ، واعتاقته أشراك الإهلاك بفنون الإدراك .

إخواني : أين مضى رفقاؤنا ؟ أين ذهب معارفنا وأصدقاؤنا ؟ رحل أقراننا ، وقلّ والله بقاؤنا . هذه دورهم فيها سواهم ، هذا محبهم قد نسيهم وجفاهم .

أين أصحاب القصور الحصينة ؟ والأنساب العالية الرصينة ، والحلوم الوافية الرزينة ، والمفتخرون بفاخر الزينة ؟ قبضت عليهم أيدي المنايا فظفرت ، ونقلوا إلى أجداث ما مهدت إذ حفرت ، ورحلوا بذنوب لا يدرى هل غفرت ؟ .

فالصحيح منهم بالحزن قد سُقم ، والمدعو إلى دار البلى أسرع ولم يُقم ، والكتاب قد سطّر بالذنوب فرقم ، ولذيذ عيشهم بالتنغيص قد خُتم ، وفراقهم لأموالهم وأحبابهم قد حُتم ، والولد قد ذلّ بعد أبيه ويتم .

فتفكر في القوم كيف رحلوا ، وتذكر ديارهم أين نزلوا ، واسأل منازلهم عنهم ماذا فعلوا ، فانتبه من رقادك قبل أن تصل إلى ما وصلوا .

أما يكفي في الهدى والإرشاد رحيل الآباء والأولاد ؟ . أما يشفي في الإيقاظ ونفي الرقاد عكس المشتهى وردّ المراد ؟ كيف يتم غرض في دار المكر والفساد ؟ أما أنتم غرض لسهام النائبات الشداد ؟ فأبكوا عليكم لا عليهم فهم فرط ، وأنتم ورّاد .

لنا كل يوم رنة خلف ذاهبٍ ومستهلك بين النوى والنوائب
وقلعـــة إخوان كأن وراءهم نرامق أعجاز النجوم الغوارب
نوادع أحداث الليالي على شفى من الحرب لو سالمن من لم يحارب
ونأمل من وعد المنى غير صادق ونأمل من وعد الردى غير كاذب
الى كم نمنى بالـــغرور ونثني بأعناقنا للمطمعات الكواذب
نراع إذا ماشيك أخمص بعضنا وأقدامنا ما بين شوك العقارب
ونمشي بآمال طوال كأننا أمِنّا بنات الخطب دون المطالب
نعم إنها الدنيا سموم لطاعم وخوف لمطلوب وهمٌ لطالب
وإنا لنهواها مع الغدر والقلى ونمدحها مع علمنا بالمعائب
ومن كانت الأيام ظهراً لرحله فيا قرب ما بين المدى والركائب
تحل الرزايا بالرجال وتنجلي ورب مصاب مقلع عن مصائب

أيها الباكي على أقاربه الأموات، إبك على نفسك فالماضي قد فات، وتأهّب لنزول البلايا وحلول الآفات، وتذكّر قول من إذا ذكرك قال: مات، إبك على نفسك لا على موتاك، فكأنك بما أتاهم قد أتاك، ولقد صاح بك نذيرهم: أنت في غد كذاك، ولينقلنك الذي نقل من قبل أباك، وليخرسن بسطوته إذا وافاك فاك، وإنما اليوم لهذا وغداً لذاك.

أرى الناس ورّادين حوضاً من الردى فمن فارط أو بالغ الورد عن خمس
ويجري على من مات دمعي وماله بكيت ولكني بكيت على نفسي
وكل فتى باق سيتبع من مضى وكل غد جاء سيلحق بالأمس

أي مطمئن لم يزعج؟ أي قاطن لم يخرج؟

إخواني: فرس الرحيل مسرج، وإلى وادي القبور المخرج، والنعش المركوب بعد

الهودج ، كم قتيل للموت مضرج ، ماهتف بمقيم إلا وأدلج ، ولا استدعى نطق فصيح إلا تلجلج . سلوا عن الجيران المنازل ، وقولوا لها : أين النازل ؟ تالله ماتجيب السائل .

إخواني : الدنيا ظل زائل ، وحال حائل ، وركن مائل ، وسم قاتل ، ورفيق خاذل ،ومسؤول باخل ، كم تعد الدنيا وكم تماطل ، كل وعدها غرور وباطل ، تالله مافرح بالدنيا عاقل . على نية النقض بني البنيان ، وعلى شرط الرحيل الأرواح في الأبدان ، وإنما الدنيا معبر إلى دار الحيوان ، وليست للاقامة فالعجب لنسيان الإنسان .

أودع في كل يوم حبيبا — وأهدي إلى الأرض شخصاً غريبا
وأرجع عنه جميل العزا — ءأمسح عن ناظري الغروبا
كأني لم أدر أن السبيل — سبيلي وأني ملاقٍ تعوبا
وأن ورائيَ سوقاً عنيفاً — وأن أمامي يوماً عصيبا
ولا أنني بعد طول البقاء — أصاب كما أن غيري أصيبا
قعدت بمدرجة النائبات — يمر الزمان علي الخطوبا
على الهم أنفق شرخ الشباب — وأعطي المنايا حبيباً حبيبا
بمن أتسلى وأيدي المنون — تخالس فرعي قضيباً قضيبا

فصل

واعلم أن أولى ما اعتمده المصاب الصبر ، ففي « الصحيحين » من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « ما أعطي أحد عطاء أعظم وأوسع من الصبر » .

وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « يقول الله عز وجل : مالعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيـا ، ثم احتسبه إلا الجنة » .

وفي أفراد مسلم من حديث أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من مسلم تصيبه

مصيبة فيقول ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي ، واخلف لي خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها » .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « مامن مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث ، فتمسه النار إلا تحلة القسم » .

وفيها من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال للنساء : « ما منكن امرأة يموت لها ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار » . فقالت امرأة : واثنان فإنه مات لي اثنان ؟ فقال رسول الله ﷺ : « واثنان » .

وروى ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان له فرطان من من أمتي ، دخل الجنة » . فقالت عائشة رضي الله عنها : فمن كان له فرط ؟ فقال : ومن كان له فرط ياموفقة . قالت : فمن لم يكن له فرط من أمتك ؟ قال : أنا فرط أمتي لم يصابوا بمثلي » .

وعن أبي سنان قال : دفنت ابناً لي ، وإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة - يعني الخولاني - فأخرجني وقال : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى . قال : حدثني الضحاك بن عثمان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ولد العبد قال الله عز وجل : ياملك الموت ، قبضت ولد عبدي ؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده ؟ قال : نعم . قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع ، قال : ابنوا له بيتاً في الجنة ، وسموه بيت الحمد » .

وعن أبي حسان قال : توفي ابنان لي ، فقلت لأبي هريرة : سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً تحدثناه ، تطيب أنفسنا عن موتانا ، قال : نعم صغارهم دعاميص الجنة ، يلقى أحدهم أباه ، أو قال أبويه ، فيأخذ بناحية ثوبه أو يده كما آخذ بنصيفة ثوبك هذا ، فلا يفارقه حتى يدخله الله عز وجل وأباه الجنة » .

وعن قرة أن رجلاً كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له ، فقال له النبي ﷺ : « أتحبه ؟ فقال : يارسول الله ، أحبك الله كما أحبه . ففقده النبي ﷺ فقال : مافعل ابن فلان ؟

قالوا : يارسول الله ، مات . فقال لأبيه : أما تحب أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك ؟ فقال رجل : يارسول الله ، أله خاصة أو لكلنا ؟ قال : بل لكلكم ».

وقال عبد الله بن عمر : أجد في التوراة : ما كنت لآخذ كنينة عبدي ثم لا أجزيه بها إلا الجنة . وهي المرأة . وعزّي مكحول بامرأته فقال : الله تعالى يقول : إذا أخذت كريمة عبدي وهو بها ضنين ، فحمدني عند ذلك ، لم أرض له ثواباً دون الجنة .

واعلم أن الصبر هو حبس الجوارح ان تتصرف بما يدل على الجزع . قال عليه الصلاة والسلام : «ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية». وقال عليه السلام للأشعث بن قيس : « إنك إن صبرت إيماناً واحتساباً وإلا سلوت كما تسلو البهائم » .

وكتب حكيم الى حكيم يعزيه : إنه قد ذهب منك مارزئت ، فلا يذهبن منك ماعوضت . يعني الأجر . وأنشد بعض الحكماء :

إذا طالعك الكره فكن بالصبر لوّاذا
وإلا ذهب الأجر فلا هذا ولا هذا

وإنما يسهل الصبر لشيئين . أحدهما : العلم بأن الدنيا دار محن وآفات ، بنيت على الابتلاء . والثاني : العلم بثواب الصبر .

جاء رجل الى بعض السلف وهو يأكل طعاماً فقال : مات أخوك . فقال : قد علمت ، اجلس فكل . فقال : ماسبقني غيري ،فمن أعلمك ؟ قال : قوله تعالى : (كل من عليها فانٍ) وفي هذا المعنى قيل :

يمثل ذو اللب في نفسه مصيبته قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغتة لم ترعه لما كان في مثله مثلا
رأى الهم يفضي الى آخر فصير آخره أولا
وذو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع من قد خلا
ولو قدم الحزم في أمره لعلمه الصبر حسن البلا

واعلم أن الجزع لا يرد الفائت ، ولكن يسر الشامت . وأنـــه ليقدح في الصبر فينقص الأجر ، فالصبر يناضل الحدثان ، والجزع من أعوان الزمان ، ومن علم أنه مملوك متصرف فيه ، لم يعترض على المتصرف .

قال سعيد بن جبير : ما أعطيت أمة عند المصيبة ما أعطيت هذه الأمة قوله تعالى : (إنا لله وإنا إليه راجعون) البقرة : ١٥٦ . ولو أعطيها أحد لأعطيها يعقوب عليه السلام . ولم يقل :يا أسفا على يوسف .

ويا أيها المعزي ، إذا كنت أنت البقية ، فالتعزية تهنئة ، والمصيبة نعمـــة إذا كانت لك لا بك ، على أن التهنئة لأجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المصاب .

قال ثابت البناني : كان صلت بن أشيم في مغزى له ومعه ابن له ، فقال : أي بني ، تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فحمل فقاتل حتى قتل ، ثم تقدم فقتل ، فاجتمعت النساء عند امرأته معاذة العدوية ، فقالت : إن كنتن جئتن لتهنئنني ، فمرحباً بكن ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك ، فارجعن . وعزى رجل رجلاً عن ولد صغير فقال : الحمد لله الذي نجاه مما هاهنا من الكدر ، وخلصه مما بين يديه من الخطر .

ولما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، دفنه عمر ووقف على قبره فقال :رحمك الله يابني ، قد كنت براً بأبيك ، والله مازلت منذ وهبك الله لي مسروراً بك ،ولا والله ما كنت قط أشد سروراً بك ، ولا أرجى لحظي من الله فيك ، منذ وضعتك في هـــذا المنزل ، رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره .

ولما مات ولد الفضيل بن عياض قال : الحمد لله ، رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره ، الحمد لله الذي جعل علياً لي ، ولم يجعلني له .

ومات ولد لعمر بن ذر فوقف على قبره فقال : ليت شعري ، مـاذا قلت وماذا قيل لك ؟ فقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، اللهم إني وهبت له إساءته إلي فهب له إساءته ، فإنك أكرم مني .

ومات ولد لإبراهيم الحربي وكان قد قرأ القرآن وتفقه ، فقال : قد كنت أحب

موته ، فقيل له : لمَ ؟ قال : رأيت في المنام القيامة قد قامت ، والناس عطاش ، وإذا بصبيان معهم قلال الماء ، يتلقون الناس بها ، فقلت لأحدهم : اسقني ، فقال : لست أبي .

وكتب رجل إلى صديق له مات ولده : سمعت خبر غصن ما أورق في الدنيا حتى أثمر في الآخرة .

فإن كنت ترجوه طلاباً لنفعه	فقد نال جنات الخلود مسارعا
وإن كنت تبكي أنه فات عيشه	عليك بنفع سل فقد صار شافعا

إخواني : تفكروا في الراحلين ، واعتبروا بالسالفين ، وتأملوا بالبصائر حال الدفين ، وتأهبوا فأنتم في أثر الماضين . أين الأخلاء ، أين الإخوان ؟ أين الرفقاء وأين الأقران ؟ رحلوا عنا إلى أعجب الأوطان ، وبنوا في القلوب بيوت الأحزان .

على ذا قبلنا مضت القرون	حصاد يجتنى ورحى طحون
وأجساد من الأرواح تعرى	كما عريت من الطير الوكون
إلام يديرنا رفعاً وخفضاً	بسرعة أمره هذا المنون
ولو نظرت بصائرنا لكنـا	بما قد كان نعلم ما يكون

من الذي طلبه الموت فأعجزه ؟ من الذي تحصن في قصره وما أبرزه ؟ من الذي سعى في مناه فما أعوزه ؟ من الذي أمل طول الأجل فما حجزه ؟ أي عيش صفا ما كدره ؟ أي قدم سعى وما عثره ؟ أي غصن علا على ساقه ما كسره ؟ أما أخذ الآباء والأجداد ؟ أما ملأ القبور والألحاد ؟ أما حال بين المريد والمراد ؟ أما سلب الحبيب وقطع الوداد ؟ أما أَرمل النسوان وأيتم الأولاد ؟ أما تتبع قوم تبع وعاد على عاد ؟

ماهذا الانزعاج عند موت الأحباب ؟ أو ما على هذا الشرط رقم الكتاب ؟ هل للبقاء سبيل للناس ؟ هل يصح البناء مع تضعضع الأساس ؟ ياحزيناً لفراق أترابه ، كئيباً لرحيل أحبابه ، يبكي ذهابهم غافلاً عن ذهابه ، إن حزنه عليه لا عليهم أولى به .

عزاء فما يصنع الجازع	ودمع الأسى أبداً ضائع
بكى الناس من قبل أحبابهم	فهل منهم أحد راجع

عرفنا المصائب قبل الوقو ع فماذا دنا الحادث الواقع

فدلي ابن عشرين في قبره وتسعون صاحبها راتع

وللمرء لو كان ينجي الفرا رفي الارض مضطرب واسع

ومن حتفه بين أضلاعه أينفعه أنـه دارع ؟

وكل أبيّ لداعي الحما م إن يدعه سامع طائع

يسلّم مهجته سامحاً كما مد راحته البائع

ولو أن من حدث سالماً لما خسف القمر الطالع

وكيف يوقى الفتى ما يخا ف إذا كان حاصده الزارع

هذا المصير يامعشر الغافلين ، واللحود المنازل بعد الترف واللين ، والأعمال الاقران فاعملوا ما يزين ، والقيامة تجمعكم وتنصب الموازين ، والأهوال عظام فأين المتفكر الحزين؟ (إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) الأنعام : ١٣٤ .

اللهم اجعلنا ممن أفاق لنفسه ، وفاق بالتحفظ أبناء جنسه ، وأعد عدة تصلح لرمسه ، واستدرك في يومه ماضيع في أمسه ، واجعلنا اللهم بطاعتك عاملين ، وعلى مايرضيك مقبلين ، وآمنا من الفزع الاكبر يوم الدين ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين ، واغفر لنا ولوالدينا ، ولأحبتنا ولمشايخنا في الدين ولجميع المسلمين والمسلمات الأحيـاء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، آمين .

قال ملخصه رحمه الله تعالى رحمة الأبرار ، وأدخله الجنة دار القرار ، وأعتقه ووالديه وذريته من النار : وهذا آخر مايسر الله تعالى من كتاب « قرة العيون المبصرة بتلخيص كتاب التبصرة » جعله الله تعالى خالصاً لوجهه الكريم ، ونفع به النفع العميم ، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً [انتهى] .

بسم الله الرحمن الرحيم

تنبيه

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

وبعد : فقد تم كتاب « **قرة العيون المبصرة بتلخيص كتاب التبصرة** » بجزءيه الأول والثاني ، وهو من الكتب المفيدة التي تشتمل على المواعظ النافعة ، والرقائق الملينة للقلوب القاسية .

وقد ضمن المؤلف رحمه الله كتابه هذا كثيراً من الأحاديث النبوية المناسبة لموضوعه الذي يتحدث عنه ، كما سرد كثيراً من قصص الماضين وأحوال الأنبياء والمرسلين ، والصالحين من عباد الله ، ليتخذهم المؤمن أسوة وقدوة ، حتى يكتب له النجاح في الدنيا ، والفلاح في الآخرة .

غير أنه لابد لنا من أن نلفت نظر القراء إلى أن كثيراً من الأحاديث التي استشهد بها المؤلف ، ضعيفة أو موضوعة ، و كذلك ماقصه عن الأنبياء من أحوالهم ، ففيه الكثير مما يتنافى مع مقام النبوة ، ولم يثبت عن النبي ﷺ أنه حدث به ، وإنما هو من الاسرائيليات التي لايجوز الاعتماد عليها ، ولا الركون إليها ، وخاصة فيما يتعلق برسل الله الذين هم صفوة الله من خلقه .

والمؤلف رحمه الله سلك هذا المسلك تأسياً بمن سبقه من الوعاظ والقصاص ، ومؤلفي كتب الرقائق الذين عرفوا بالتساهل ، وعدم التثبت من النصوص التي يستشهدون بها .

وبما أن رسول الله ﷺ قد حذرنا من التحدث عنه إلا بما يغلب على الظن أنه قاله بقوله : « اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم » فقد وجب على المسلم ألا يقبل حديثاً إلا بعد أن يتأكد من صحة نسبته إلى رسول الله ﷺ .

وقد كان الواجب يقضي أن نعلق على أحاديث الكتاب سيراً على نهجنا فيما ننشر ، إلا أن الطلب السريع في انجاز الكتاب حال دون ذلك .

نسأل الله أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به قارءه وسامعيه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الناشر

فهرس الجزء الثاني

الصفحة	الموضوع

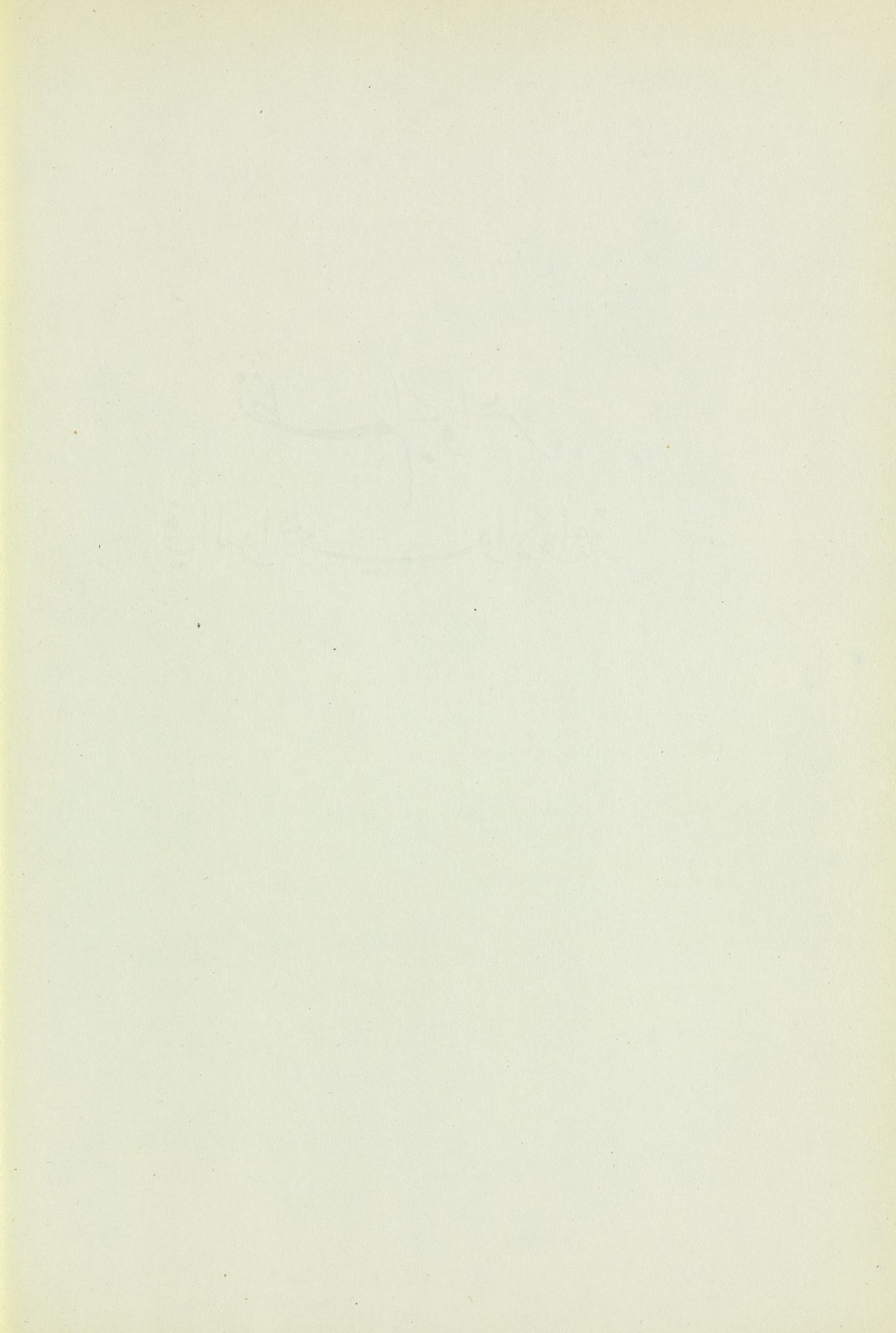
الموضوع	الصفحة

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
٢٦٠	فصل في قوله تعالى : (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم)
٢٦٥	المجلس الثاني والسبعون في ذكر القبر
٢٧٠	فصل في قوله تعالى : (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون)
٢٧٤	المجلس الثالث والسبعون في ذكر القيامة وما فيها
٢٧٨	فصل في قوله تعالى : (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً)
٢٨٦	المجلس الرابع والسبعون في ذكر جهنم أعاذنا الله الكريم منها)
٢٩٢	فصل في قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة)
٢٩٥	المجلس الخامس والسبعون في ذكر الجنة
٢٩٩	فصل في قوله تعالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن)
٣٠٣	خاتمة في التعازي ومواعظ منثورة
٣١٢	تنبيه
٣١٤	الفهرس

نظم الجواهر

في النّواهي والأوامر



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد : فهذا « نظم الجواهر في النواهي والأوامر » ذكر فيه الناظم ما يتعلق بالإيمان وأركانه ، وصفات الله تعالى ، وأركان الإسلام ، من صلاة وصيام وحج وزكاة ، سلك فيها مسلك السلف الصالح رضوان الله عليهم .

وهو نظم مفيد بما حوى من عقائد حقة ، ونصح جميل ، وموعظة حسنة. إلا أن كثيراً من أبياته محرفة ، فاضطررنا إلى إصلاحها حسب الإمكان .

وقد جاء في آخر النظم في النسخة الخطية التي أرسلت إلينا « وقد كتب هذا النظم بقلم حمد بن محمد آل سويلم في شهر ذي القعدة من سنة ١٣٢٠ هـ » .

وقد اتصلنا بالصديق فضيلة الشيخ يوسف بن راشد المبارك وسألناه عن الناظم ، فكتب ـ جزاه الله خيراً ـ إلى السيد إبراهيم بن محمد السويلم ، فجاء منه ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضيلة الشيخ يوسف بن راشد المبارك سلمه الله آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد: فنرجو من الله العلي القدير أن تكونوا متمتعين بالصحة والعافية .

تلقينا كتابكم الكريم الذي تستفسرون فيه عن القصيدة التي مطلعها :

أرى المجد صعباً غير سهل التناول شديداً أبياً معجزاً للمحاول

وقد ذكرتم أنه قد سألكم عنه أحد علماء الشام ،وأنها موجودة لديه،وهي مكتوبة بقلم حمد المحمد السويلم ، وتستفسرون عن المذكور .

ونشكركم قبل كل شيء على عنايتكم وحسن اهتمامكم . أما حمد المحمد السويلم فهو شقيقنا ، وقد ولد ونشأ في بلدة « بريدة » ونشأ نشأة فقيرة ، وكان بطبعه ميالاً إلى العلم والأدب ، وكان يتعيش من استنساخ الكتب ، وكان آخر مانسخه «تاريخ» و«تفسير الإمام ابن جرير الطبري» ولما انتهى من كتابته ، صدرت طبعته الأولى في مصر ، فضاقت به سبل العيش في « نجد » وهاجر إلى «العراق» واستوطن بلدة «الخميسية» في لواء المنتق ،وبقي هناك إلى أن توفاه الله سنة ١٣٥٢هـ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أرى المجد صعباً غير سهل التناول | شديداً أبياً معجزاً للمحاول
بعيدٌ مرام نادر من يحوزه | يشق على أهل الدناة الأرافل [1]
وأهل العلى قد نافسوا في اكتسابه | فكانوا به أحياء تحت الجنادل
فلا مجد إلا باهتمام ورغبة | وقوة عزم باكتساب الفضائل
وملاكها تقوى الإله فإنها | تبوىء في الجنات أعلى المنازل
وتنجي الفتى يوم الجزا وتجيره | من النار دار الخزي ذات السلاسل
وما نائل التقوى من الناس كلهم | سوى تارك المنهيِّ للأمر فاعل

فصل

في قوله تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه).

لقد ضلَّ من لم يهتدي [2] بكتابه | وسنة من قد جاءنا بالدلائل
فليس إلى المولى سبيلٌ سواهما | لكل ولي في الولاية واصل
وغيرهما سُبْل الشياطين ترتمي | بسلاكها في مهلكات الحبائل

---

(١) الأرافل : المتبخترون .   (٢) أثبت ياء العلة لضرورة الشعر .

وما الأوليا إلا ذوي العلم والتقى بإيمانهم فازوا بخير المحاصل
أولئك لا هم يحزنون ولا همُ يخافون في الأخرى عظيم المهاول
لهم في كلا الدارين بشرى وإنهم همُ السابقون السابقون بما تلي

فصل

في بيان المتقين أولياء الله الصادقين

وأُقسم ما نال الولاية في الورى سوى تابع للشرع من كل فاعل
ومصداقها في (المؤمنين) و (هل أتى) وفي سورة (التطفيف) شاهدها جلي
به افتتح الله الكريم كتابه فقال (هدىً للمتقين) العوامل
وهم من أقاموا للصلاة لوقتها وجاؤوا بمسنوناتها والنوافل
وآتوا زكاة طيِّبات نفوسهم بها ينفقون في النوادي بفاضل
من الرزق بل هم ينفقون بما أتى إلينا من التنزيل بل قبل نازل
وقد عرفوا الأخرى وقد أيقنوا بها وحازوا جميع البر يافوز عامل
وقد آمنوا بالغيب لله أولاً وما سمعوا من علم أهل الرسائل
أولئك كانوا في اليقين على الهدى من البر هم أهل الفلاح بآجل

فصل

في الإيمان بالله تعالى في الكتاب والسنة

من السنة المحض الصحيحة فاعتقد ... على نهج أصحاب الحديث الكوامل

فأشهد ألاّ يستحق عبادة ... سوى فاطر السبع العلى والأسافل

ولو كان في هاتين غير إلهنا ... لأدى إلى إفسادها والتزايل

إذاً لمضى كلٌّ بما كان خالقاً ... وطاب كل للعلى بالتقاتل

فسبحان ربي عن شريك ووالد ... وعن ضد اوندٍ وشبه وباطل

فصل

في إثبات الصفات وإمرارها كما جاءت

وأثبتْ صفات الله حقاً كما أتت ... وإياك أن تصغي لتأويل جاهل

وما قد حوته الدّفتان كلامه ... يقيناً به جاءت صحاح الدلائل

وأوله في الحمد والناس ختمه ... كما قاله الأسلاف من كل فاضل

وقالته زوج المصطفى بنت صادق ... وذلك عنها صح في نقل ناقل

وما فيه حق من يكن فيه ناقص ... ومارد فيه عامداً غير عاقل

بتكفيره قال الأفاضل يا فتى ... فلا تغترر بعدُ بقول الأجاهل

على ذلك الإجماع من كل مسلم ... حكاه عياض والنواوي فقائل

فصل

في صفة الإيمان والاستواء والنزول

وآمنْ بأن الله فوق عباده   بلا جهة تحوى سوى رأي عازل

بسورة (ملكٍ) آيتين كلاهما   تدل بأن الله فوق السما علي

وفي (سجدة) مع (فاطر) ثم (فصِّلت)   وفي (النحل) مذكور وسورة (سائل)

وفي الطِّول الأولى الثلاث علوُّه   يفصِّل إجمالاً بها كل عاقل

وفي موضعين جاء فوق عباده   بخامسها فافهم لتصريح ماتلي

ولو لم يكن إلا عروج محمد   لكان به إلجام كل مجادل

ومنه استواء الله جل جلاله   على عرشه في السبع أيّ دلائل

ومنها نزول الله في كل ليلةٍ   وفي نصف شعبانٍ فياحب نازل

إلى السما الدنيا منادٍ عباده   ألا من منيب تائب لي وسائل

فينزل ربي كيف شاء كما استوى   ويأتي لفصل الحكم سبحان فاصل

ويكشف عن ساق فيسجد مؤمن   تعوّده في سالفات الليائل

وكلٌّ سيفنى والبقاء لوجهه   ففي سورة (الرحمن) خير الدلائل

وآدم خلقٌ باليدين لربنا   فنال على إبليس أعلى الفضائل

يداه إذاً مبسوطتان بجوده   بإنفاق أرزاق وإغناء عائل

وكلتاهما يمنى بذلك صرحت ... أحاديث لا تخفى على كل عاقل

ويطوي السماوات العلى بيمينه ... وقبضته الأرْضين يوم الزلازل

وإن قلوب الخلق بين أصابع ... يقلّبها ربي فسبحان فاعل

وما جاء في العينين مع قَدَم له ... وما جاء في معناهما من مشاكل

وما جاء من حب وبغض ومن رضى ... وسخط وما قد صح في نقل ناقل

عن النفي والتعطيل جلّت صفاته ... ومن كل تخييل ببالك جائل

فليست صفات الله تدركْ كذاته ... تعالت وجلّت عن شبيه مماثل

فآمنْ بلا كيف بها مثلما أتت ... فهذا سبيل الراسخين الأماثل

فصل

في الإيمان بأن الله يرى في الآخرة

وإن جميع المؤمنين يرونه ... كرؤية بدر تم من غير حائل

وجوه نضيرات وتنظر ربها ... بجناته في محكمات الدلائل

ويحجب عنه الكافرون ومن لها ... غدا منكراً بالإعتزال المعازل

فصل

في الإيمان بأنه قول وفعل

وإيماننا قول وعقد مطهَّر ... وفعل جميل يؤتسى بالأماثل

يزيد مع الطاعات والعلم والتقى ... وينقص بالعصيان في رأي عاقل

ويجمعه بضع وسبعون شعبة ... وأرفعها التوحيد من كل عاقل

ورفع الأذى عن طرْق أدنى شعابه ... ومنها الحيا لايحوها[1] غير كامل

وفي اللغة الإيمان تصديق جازم ... ومصداقه قد جاء في نص ماتلي

وإسلامنا استسلام تابع أمرنا ... لأحكامنا ينقاد شاهدها جلي

بما قالت الأعراب في (الحجرات) من ... دعاوي ذوي البدو الغواة الأجاهل

فصل

في أن الصلاة ثانية الأركان

وأركان إسلامٍ أخي خمسة أتت ... كذا في صحاح النقل عن كل ناقل

رواه البخاري في الصحاح ومسلم ... وكل إمام عمدة للأماثل

فأولها توحيد ربي فريضة ... هي الصلوات الخمس من كل فاضل

وفي ليلة الإسراء قد كان فرضها ... على خير خلق الله ختم الرسائل

وخصت بأوقات لها ليس تختفي ... على كل ذي قلب من الله واجل

فحافظ عليها في أداء شروطها ... وأركانها والواجبات لها تلي

وسارقها قد عدَّ في سوء سارق ... ومن يوفها يُوف له مثل كائل

(١) كان حقه أن يقول : لايحويها ، ولكن حذف الياء لضرورة الشعر .

وواظب عليها في الجماعات إنها | عماد لهـذا الدين طوبى لفاعل
أقام لدين الله من قـد أقامها | وهادمها مهدوم عزٍّ فقاتل
وآخر مفقود من الدين فعلها | فما بعدها دين لساهٍ وغافل
جماعتها مشروعـة للتوادد | وإفشا سلام بينهم والتواصل
تضاعف فيها عن صلاةٍ لواحدٍ | بخمسٍ وعشرين بنص الدلائل
وجاحدها بالإتفاق فكافر | وعن أحمد التكفير للمتكاسل
ولا قتل من قبل الدعاية فيهما | بذا قال أهل الدين من كل كامل

فصل

في الزكاة وهي ثالثة الأركان

وأد زكاة المال ياصاح إنها | لثالثة الأركان في نص نازل
فكم ذكرت مقرونة لصلاتنا | وكم بهما خلي سبيلٌ لفاعل
وكم أتلفت للمال يوماً بمنعها | كما كان حصناً دفعها من غوائل
ولا تحسبنَّ الباخلين ببذلها | لهم ذاك خير بل لهم شر حامل
يطوّق يوم الحشر مابخلوا به | شجاع من الحيَّات شر مجادل
وكم من يجي يوم القيامة حامل | بعيراً كذا شاةً فياويل حامل
ومن بعد أن يحمى سيكوى جبينه | وجنب وظهر زاجرٌ كل باخل

وجاحدها بعد الدعاية كافر ... له فاقتلن بالسيف والجمع قاتل
ومانعها إن كان صاحب شوكة ... ولم يك جحد بالقتال فعامل
إلى أن يؤدي طائعاً حق ربه ... كفعل أبي بكر إمام الأفاضل

فصل

في الصوم والحج وهما تمام الأركان

فرابعها في الصوم والحج خامس ... أداؤهما فرض على كل عاقل
بذكرهما تمت قواعد ديننا ... بفعلهما يا صاح بادر وعاجل
وحسّن لهما من جملة الفحش والأذى ... ولا تك ترفث فيهما وتجادل
ومن يجحدِ الشهر المعظّم صومه ... ويجحدُ حج البيت كفر وقاتل
فهذا هو الدين القويم وحكمنا ... به صح إجماع الهداة الأماثل
فمن شهد الشهر المحرّم فليكن ... من الصائمين القائمين العوامل
ويوم وقوف الناس صمه فإنه ... يكفّر عامين بإثبات ناقل
وفي شهر شوالٍ فأتبعه ستة ... تكن كصيام الدهر أجر معادل
وَصُمْ يوم عاشورا احتساباً فإنه ... يكفّر عاماً في صحاح الدلائل
وحج إلى البيت العتيق تطوعاً ... ولا تك عن أجر الحجيج بغافل
فمن حج بيت الله حطت ذنوبه ... ويرجع كالمولود من بطن حامل

فصل

في حقوق الوالدين وشكرهما

وقم بحقوق الوالدين فإنهـا　　تلي لحقوق الله من غير فاصل
رضى الله مايرضيهما فاسلكن له　　وشكرهما شكر له بتماثل
فلا تتكره عند بذل حقوقهم　　ولا تك يوماً يا أخي بالمماطل
وقل لهما قولاً كريماً ولا تقل　　لأف ولا تسمعهما قول باطل
وحافظ على بذل الدعا لكليهما　　منيباً فيا نعم المجيب لسائل
وعدَّ عقوق الوالدين نبيُّنا　　من الموبقات السبع ياويل فاعل
وقد جاء (لقمان) مع سورة (النسا)
وفي سورة (الإسرا) عظيم الدلائل

فصل

في حقوق الأولاد على الوالدين

كذاك وللأولاد حق فلا تكن　　عن الحق أعمى أو بضد تقابل
فقد جاء في الشرع العليّ طلابه　　نجـابة أم من كرام القبائل
وتحسين إسم عند وضع ولادة　　ودنياه بالآداب إنهض وعامل
وتعليمه مافيه إصـلاح دينه　　وتعليمه القرآن خير المحاصل

وتزويجه عند البلوغ بـكاعب تقية دين ذات حسن مقابل

تغض العيون الخائنات عن الخنا وتزجره عن فعل شبه الأجاهل

وصل

في صلة الأرحام والتحذير من قطعها

ووصلُ ذوي الأرحام أمسى خليقة

لأهل النهى والأكرمين الأماثل

فقد أمر الله العباد وحثّهم فياويل من للأمر ليس بفاعل

ولو لم يكن فيها سوى المجد كافياً فكيف وفي القرآن أزكى الدلائل؟!

إلى أن يكونوا بينهم في توادد وإيتا حقوق الأقربا بالتواصل

وإن لم تصل بالمال صله بزورة وإن لم تزر فابعث سلاماً وراسل

وفي (الرعد) لعن القاطعين وفي التي

محمد مذكورٌ بها في التقاتل

وقد جاء وعد الواصلين قبيله بجنات عدن طيّبات المنازل

فصل

في الإحسان إلى اليتيم والتحذير من أكل ماله

وأحسن إلى الأيتام وامسح رؤوسهم
وأطعمهمُ من طيّبـــات المآكل

يليّن قلباً قاسياً منك لم يكن — فؤادك أقسى من أصم الجنادل

وقال رسول الله إني وكافل — يتيماً كهاتين فطوبى لكافل

فلا تك يوماً لليتيم بقــاهرِ — ولا تأكلن مالاً فويل لآكل

فآكله يصلى جهنم في غـــد — ويطعم في الأمعاء نار المشاعل

فنابت لحم بالحرام غذي به — له النار أولى من حسان المنازل

فصل

في التحذير من قتل النفس الحرام بغير حق

ومن يقتل النفس الحرام تعمداً — فلا بد من نار الجحيم لفاعل

ويجعل سلطان لآخذ ثاره — من الأوليا حقاً على قتل قاتل

ويلقى عليه الله في الحشر غاضباً — ويلعَنُهُ قد جاء في نص ماتلي

ويجزى عـذاباً دائماً متعـاظماً — معداً ويلقى بعدها كل هائل

فصل

في التحذير من اللواط والزنى

فلا تك لوّاطاً ولا تك زانياً   فذلك للشيطان شر الحبائل
وإثمهما إثم كبير لأنه   من المهلكات الموبقات الجلائل
وما إثم ذنب عند ربي كمن يضع   لنطفته في رحم غير الحلائل
وأعظم ذا زانٍ بحرمة جاره   فيا ويل من للجار شر مخاتل
سيجزيهم الرحمن بين عباده   فيا ويل مفعول ويا ويل فاعل

فصل

في التحذير من التجبر والتكبر والظلم

فلا تكن جباراً ولا متكبراً   فويل لجبار عن الحق مائل
ولا تك يوماً للرعية ظالماً   ولا تك يوماً للغصوب بآكل
سيدفع للمظلوم ما قد عملته   من الخير والإحسان في حكم عادل
وإن لم يكافى حط من سيآته   عليك فتمسكْ في جوار السلاسل
وحاذر دعا المظلوم إن كنت حازماً   سينصر قطعا عاجلاً أو لآجل

فصل

في الخمور والربا وشرب المسكرات

ولا تك يوماً للخمور بشارب فشاربها يسقى بطين الخبائل
فسحقاً لها أم الخبائث كلها فكم أنتجت منها قبيح الفعائل
وكن سامعاً نصحي وحاذر من الربا
وعن كل ما يدني له بتعامل
زيادته نقص كذلك ربحه خسار فجانب فاعليه وعازل
وإن الربا سبعون باباً أقلها كناكح أم في صحاح الدلائل
وقد جاء في القرآن زجر ذوي الربا
فإن لا تتوبوا فاحذروا حرب عادل

فصل

في التحذير من الرياء واليمين الغموس وقذف المحصنات

ولا تك بالأعمال يوماً مرائياً فإن الريا شرك بنص الدلائل
فويل لمن قد كان يعمل بالريا بطاعته لله ليس بعامل
ولا تك حسّاداً لصاحب نعمة فأول ذنب حسد أهل الفضائل

ولا تك يوماً بالنميمة ماشياً ولا تك يوماً للحديث بناقل

ففي محكم القرآن سمي فاسقاً فياويل نمّام يقول بباطل

ولا تك همازاً ولا تك لامزاً وإن قلت بالبهتان فارجع وحالل

ومن يكسبنْ إثما ويرمي مبرءاً فقد حمل الآثام يا ويل حامل

ولا تك يوماً للغموس بحالف ستردى وترمى خاسئاً في الحبائل

وإياك من حلف لترويج سلعة فما أفلح الحلاف عند التعامل

وإياك من زور الشهادة إنها من المهلكات العبد بعداً لقائل

وإياك رمي المحصنات من النسا ولا سيما من مؤمنات غوافل

فتلعن في الدنيا وتلعن آخراً وتجزى من التعذيب أعظم هائل

لدى موقف فيه اللسان وأرجل فتشهد والأيدي بنص الدلائل

فصل

فى حفظ القرآن فإنه حجة لك أو عليك

ومن يحفظ القرآن ويعمل بما به ينل كل مايرجوه من ربه العلي

ولو وضع القرآن في وسط أهبة لما مسه نار فكيف لحامل

وبادر إلى ما كان يأمر فأتمر وما كان ينهى عنه جانب وعازل

به إن تكن تعمل يكن لك حجة وبالعكس من أمر عن الحد عادل

فصل

في العلم وإكرام العلماء العاملين

وبادر إلى حفظ العلوم مجاهداً ... وواظب عليها بالضحى والأصائل

فإكرام أهل العلم بالنص واجب ... عنيت الذي يحتاجه كل عاقل

سيرفع ربي كل طالب علمه ... وهل يستوي العلام مع صاحب الجهل

وإكرام أهل العلم لا شك واجب ... فهم أُمناء الله من كل عامل

لأنهمُ حراس دين نبينا ... حماة له من زيغ أهل الأباطل

ومن لم يكن منهم جحوداً لحقهم ... حكمنا له في الأرذلين الأسافل

ومن يؤذهم قد حارب الله جهرة ... كذاك اتفاق الصالحين الأفاضل

فصل

في إكرام الضيف

وقد مدح الله خليله ابراهيم عليه السلام بذلك

وأكرم لضيف الله إن عرجتْ به ... حتوف القضا فوق النضا والرواحل

يبث لما لاقى من الكرم الذي ... يكون به نيل العلى والفضائل

فواجبه في الشرع يوم وليلة ... ونَدْبٌ ثلاث جاء من كل ناقل

وإن زدت زاد الله في الأجر يافتى ... فبادر لإطعام الضيوف الأماثل

وقد مدح الله الكريم خليله ... بإكرامه للضيف وقت الأصائل

وما جاء في القرآن من أنه أتى ... إلى الضيف بالعجل الحنيذ بعاجل

فذاك الخليل ليس يأكل وحده ... وليس ينال القوت إلا بآكل

وكان إماماً للمكارم والندى ... فمن أجل هذا خص باسم التخالل

فصل

في حقوق الجار على الجار والوصية به

وقم بحقوق الجار واعلم بأنها ... حقوق على الإيجاب عند الأفاضل

به ورد القرآن والسنة التي ... أتانا بها الهادي لخير الدلائل

ومن كان يؤمنْ بالإله وبعثه ... بإحسانه للجار حقاً بقائل

فجيراننا فاعلم هديت ثلاثة ... فلا تك عن إكرامهم ذا تغافل

فجار له حق وجار ثلاثة ... وجار له حقّان طوبى لباذل

وقال رسول الله لا زال موصياً ... بحقِ أخي جبريل جارَ المنازل

فصل

في حسن الخلق وكظم الغيظ

وكن آخذاً بالعفو والعرف آمراً وكن معرضاً بالحلم عن كل جاهل
وللغيظ فاكظم نابذاً كل مجرم وذا السوء بالإحسان جازهْ وعامل
وليس شديد البطش صارع غيره ولكنَّ من يصرع هواه بعاجل
ووصى رسول الله من قال أوصني وكررَّ لاتغضب ثلاثاً لسائل

فصل

في إنفاق المال في مواضعه

وكن في اكتساب المجد طلاَّع أنجد على الحق لاتعبأْ بقول العواذل
بإنفاق أموال لكل ملمة لها من أدا حق وإغناء عائل
فمن جاد بذلاً حاز مجداً وسؤدداً وليس يكون المجد إلا لباذل
وكم من قليل الجند عزت جنوده وقد حاز أجناد الأعادي الأباخل

فصل

في الصدقات والرفق في الفقراء

ومن يتصدق يخفها عن شماله يُظَلَّ بظل العرش يوم المهاول

ومن يبدها لو أنها شق تمره فيانعمها من تُقْيَةٍ للمناول
فيقبلها الرحمن من متصدق بيمناه قبل الآخذ المتناول
فللمال حفظاً والمريض دواً له بإخراجها قدصح عن كل ناقل
وكن خافضاً منك الجناح لمؤمن ولا تنهرن يوماً لحرمة سائل

فصل

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وأمرٌ بمعروف وتغيير منكر ففرض علينا بالضحى والأصائل
وأعلاه فعل ثم بالقول بعده وأدناه بالقلب الضعيف المنازل
فإن لم تكونوا تأمرون رؤوسكم وتنهوا عن الغي القبيح المعاول
وإلا فسلطاناً يسلطْهُ ربكم عليكم ظلوماً جائراً غير عادل
فمن ظلمه هذا فليس براحم صغيراً ولا يرعى لشيبة عاقل
وأخياركم يدعون بالنصر ربهم فلا يستجيب الله منهم لسائل
وقد قاله من ليس ينطق بالهوى وشاهَدَه في عصرنا كل عاقل
وقد نطق القرآن في لعن أمّة خلت أهل كفر في زمان الأوائل
ولم يك ينهى البعض بعضاً عن الهوى ولم يك موجوداً بهم عذل عاذل

فصل

في الامام ونائبه ومن يخرج عن طاعته

وإن كنت ياهذا إماماً ولم تجب على طاعة الرحمن فانهض وقاتل
وقاتل بصبر في الحروب وضيقها ولو كان فيها جرع لب الحناظل
وأقنية لدن حراب فواريا من السمهريات الرماح الأطاول

فصل

في إعداد الحروب في غاية المطلوب

وإعداد آلات الحروب بأسرها دروع وبيض واقتناء الرواحل
من الهجن أبكار حرار تعوّدت بقطع مسافات وطي المراحل
وإعداد خيل صافنات عوارب من العربيــات الجياد القوافل
وغارتها صبحاً على كل معتد وإيراؤها قد جا بصم الجنادل
وتثويرها نقعاً من الأرض عالياً حجاب لعين الشمس من غير كامل
توسط جمعاً للعــدى ذات ميعة بصوت رفيع للجموع الجحافل
عليها رجال كالأسود فوارس جريؤون لايخشون ضرب المقاتل
وعند التقا الصفين في الناس جربوا
بتفليق هــامات العدى بالفواصل

وتجعلهم صرعى جذاذاً تخالهم | كأعجاز نخل قطّعت بالمناجل
فهذا جزاء المفسدين من العدى | عداءً لأهل الدين من كل جاهل
ولا تك خواراً من الهول جازعاً | غداة ترى جيش العدى بتواصل
ولكن صبوراً في الأمور وصارماً | بصرمك للأعدا حبال التواصل
فهذا هو المجد المؤثل أصله | ذكرت ولم أذكر فروع الفضائل
وأزكى صلاة ثم أحلى سلامه | على المصطفى الهادي كفيل الأرامل

تمت وبالخير عمت، وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه وسلم
بقلم العبد الفقير إلى الله الغني عمن سواه حمد بن محمد
آل سويلم غفر الله له ولوالديه وجميع
المسلمين آمين وذلك في ٢٠ من ذي القعدة
سنة ١٣٢٠هـ



